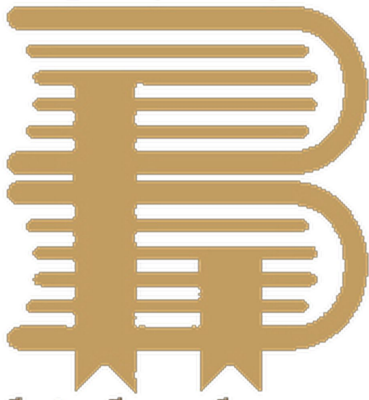


الجاهلية في الشعر الجاهلي

أخلاق العرب
بين
الجاهلية والإسلام
دراسة مقارنة على ضوء الإسلام

محمد الناصر

دار الرسالة - مكة المكرمة
المملكة العربية السعودية



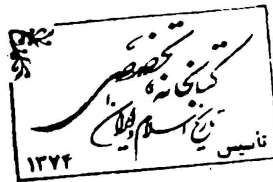
shiabooks.net

mktba.net

المكتبة

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام

دراسة مقارنة على ضوء الإسلام



الطبعة الأولى

١٤١٣ - ١٩٩٢

الناشر

دار الرسالة - مكة المكرمة

ت : ٥٥٧٠٦٤٨ - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأصلي وأسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وبعد :

هذا هو الكتاب الثانى « أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام » من سلسلة : الجاهلية فى الشعر الجاهلى .

وقد وعدت بإنجازه فى مقدمة الكتاب الأول منها^(١) ، فحمدًا لك اللهم ، على فضلك ونعمك التى لا تحصى .

إن أهمية الأخلاق فى بناء المجتمعات لا يمارى فيها إلا مكابر ، وإن أزمة الحضارة الحديثة أزمة أخلاقية بلاشك .

« إن الدول لا تسود ولا تعلو بالحديد والنار ولا بالمال ، ولكنها تسود وتعلو بالخلق المتناسك » .

وإن أعلى مصادر الخلق المتناسك ، وأعماقها جذورًا ، وأدومها أثرًا هو الدين ، فهو الذى يجمع الناس على التواد والتراحم ، ويكف بعضهم عن بعض .

(١) الحياة السياسية عند العرب : دراسة مقارنة على ضوء الإسلام .

وهذه هي دول الغرب يستطيع كل ذى بصر أن يرى كما رأى المؤرخ الإنجليزى « توينبى » قبل الحرب العالمية الأولى مظاهر تدهورها وانحلالها ، وهى فى كامل مجدها الصناعى والآلى .

لم يعوزها المال ، ولم تنقصها الآلات ولا المعارف .. ولكن أُعوزَها الخُلُق والدين ، فسرى الفساد فى جسدها ودَبَّ الخلاف فى صفوفها «^(١) وما يزال .

لقد رصدتُ فى هذا الكتاب مكارم أخلاق العرب ومساوئها فى العصر الجاهلى ، حيث كانت أخلاق القوم خليطاً من الفضائل والردائل ، حتى إذا جاء الإسلام ، ارتفع بمكارم الأخلاق : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »^(٢) فصَحَّحَ مسارها ، وصَفَّى النية فيها ، وَوَجَّهَهَا الوجهة البناءة ، فارتفع جيل الذُرَّة بها إلى القمم العالية شفافيةً ونقاءً وصفاء .

وسارت الأجيال المؤمنة يحدوها الشوق إلى اللحاق بذلك الجيل الفريد ، لتقود العالم إلى شاطئ الأمان والإيمان .

ثم اجْتَثَّ هذا الدين مساوئ الأخلاق والعادات بعد أن ربط بين قلوب المؤمنين ومصادر التلقى من الكتاب والسنة .

وقد شَدَّ من عزمى على المضى فى هذا البحث ، أنى وجدت كثيراً من القيم الأخلاقية قد اهتزت فى حياتنا المعاصرة ، فشاع كثير من الرذائل من جديد ، حيث انحدر كثير من الناس إلى مهوى الرذيلة فى المجون والخمور والميسر والمخدَّرات ، وشيوع أدوات العزف واللهو الحرام .

(١) حصوننا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين رحمه الله ص ١٧-١٨ .

(٢) مُوطَّأ الإمام مالك : (كتاب الجامع) ، والمسند للإمام أحمد : (٣٨١/٢) .

وانظر : مشكاة المصابيح ، ١٤١١/٣ .

ومما يؤسف له أن كثيراً من القيم الأصيلة عند العرب في الجاهلية قد اختفت في واقعنا المعاصر ، فبات الكرم نادراً والشجاعة أقوالاً ناهيك عن المروءة والغيرة والعفة .

ولذلك أوردت نماذج من مكارم الأخلاق ، وفصلتُ فيها القول معتمداً على شعر العرب وتاريخهم .

وأوضحت الصورة في عرض موقف الإسلام من هذه الأخلاق ، عسى أن يعود إلى الأذهان ما فقدناه من قيم نبيلة نحن في أمس الحاجة إليها .

أما الفصل الأخير، فقد حُصِّصَ للسَّمات الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، ذلك أن الأخلاق لدى المسلمين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان والعقيدة ، وأن العبادة الحقة تهذب النفوس ، وتركّي الأخلاق ، وأن أخلاق المؤمنين أخلاق عملية طبقت في عالم الواقع وليس في عالم الكلام والنظريات .

وبالمقارنة تبين أن السمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية تناقض تماماً سمات المؤمنين الصادقين في سلوكهم وأخلاقهم .. مما يظهر لنا فضل الله سبحانه وتعالى علينا في صفاء هذا المنهل من تعاليم الكتاب العظيم وتوجيه رسول رب العالمين ، وتريبته الفريدة لذلك الجيل الرائد .

إن إعادة البناء العقدي الأخلاقي لهذه الأمة واجب دعوى ، وأمانة ضخمة ، وإن التربية الأخلاقية الواقعية بالإيمان الحى النابض تقدم هذه الأمة خدمة جليلة تنقذها مما هي فيه من ضعف وتردٍ ، وتحفظها من الانهيار ، لأن مفاسد الأخلاق من أكبر عوامل الهدم في الحضارات الإنسانية .

وعسى أن تكون هذه التربية لِبَنَّةٍ من لِبَنَاتِ البِنَاءِ المرتقب هيمنة الحياة
الإسلامية في جميع مجالات الحياة .

وما ذلك على الله ببعيد . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة ١٤١١/٧/١٣ هـ

الفصل الأول

المجتمع العربي بين الجاهلية والإسلام

المبحث الأول :

لمحة عن المجتمع العربي في العصر الجاهلي

- ١ - النظام القبلي .
 - طبقات الناس في القبيلة :
 - أ - أبناء القبيلة الصُّرَحَاء .
 - ب - طبقة الموالى .
 - ج - طبقة الرِّقِيق والعبيد .
- ٢ - الناس في المجتمع الجاهلي منازل ودرجات .
- ٣ - معاش العرب ونظرتهم إلى المهن .

المبحث الثاني :

رأية العدل والمساواة ترفرف على الناس
في ظلال الدعوة الإسلامية

المبحث الأول

لمحة عن المجتمع العربي في العصر الجاهلي

إن الحديث عن أخلاق العرب ، يستلزم منا أن نلقى نظرة على طبيعة المجتمع الجاهلي ، وطبقات الناس في هذا المجتمع ومنازلهم ودرجاتهم ، وما يترتب على ذلك من أعراف وتقاليد . حيث أن الصلة قوية بين القيم الخلقية والأعراف الموروثة .

ولابد من أن نلاحظ الأثر العظيم الذي هزَّ به الإسلام المجتمع العربي ، والنقلة السريعة التي أحدثها هذا الدين في المجتمعات العربية والإنسانية ، حيث أسَّس حضارته على العدل والمساواة ، وعمل على تفتيت الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ، وغير كثيرٍ من القيم والمفاهيم لدى الناس جميعاً .

إذ انطلق الإسلام من مفهوم التوحيد ، وصفاء العقيدة في إرجاع الناس إلى أصلهم الواحد :

« كلكم لآدم وآدم من تراب » « الناس سواسية كأسنان المشط » .

كان النظام في العصر الجاهلي يعتمد على أعراف عدّة منها :

١ - النظام القبلي :

وهو النظام السائد آنذاك ، فالقبيلة عماد الحياة في البادية ، حيث لا شرط تؤدّب المعتدين ، ولا سجون يعاقب فيها الخارجون على النظام

الاجتماعي ، وكل ما هنالك عصبية تأخذ بالحق لأهلها ، وأعراف يجب أن تطاع .

وكان الرابط الذي يربط شمل القبيلة هو النسب ، وهو عندهم ، رمز المجتمع السياسي في البادية ، فالقبيلة هي الحكومة التي يفقهها الأعرابي .
والعربي - شأن بقية الساميين - لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة ، دولة صلة الرّحم ، دولة العظم واللحم ، والحكام يُختارون من القبيلة ، وكانت أحكامهم نافذة فيها^(١) .

ويَعتمد هذا النظام على العصبية للأهل والعشيرة ، ومن شروطها أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته ، والتألب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين .. وكانوا يعتبرون هذا العُرف ضرورياً للقبائل ، لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها إلا إذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشدد شوكتها .

وتشمل العصبية الصرحاء من أبناء القبائل والموالي والجيران كما أنها تشمل أهل المَدَر والحَضَر .

وكان للعصبية صلة كبيرة بالعقوبات ، فعلى درجة العصبية تقع المسؤولية ، وأقرب الناس إلى الجاني يكون عادة أول من يتناوله الأخذ بالثأر ، ثم الأبعد فالأبعد ..

وتكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب أو بُعدهما^(٢) .

ومن مظاهر هذه العصبية الحِمِيَّة : وهي الأثفة والعَيِّرة أو الغضب .

(٢-١) انظر الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد علي ٣١٣/٤ - ٣١٥

٣٩٢ - ٣٩٤

فالرجل يغضب وتأخذه حميته من أن يترك سُنَّةَ آبائه وأجداده ، ويعتبرون ذلك العرف ميراثاً اجتماعياً ، يضعه الآباء ليصير سُنَّةً ثابتة يسير عليها الأبناء .

يقول لبيد في مُعَلَّقَتِهِ مفتخرًا :^(١)

مِنْ مَعْشَرٍ سُنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وقد نهى الإسلام عن هذه الحِمِيَّة ، ونزل الوحي يندد بها ، يقول جل من قائل : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾^(٢) .

لقد كانت العصبية عميقة الجذور في حياة العربي ، وكانت أساس التعامل مع أبناء القبائل الأخرى ، ولها آثار راسخة ظهرت في الشعر الجاهلي وخلال الحروب والعادات^(٣)

صفات الرئيس :

كان على من يسُود قومه أن يتحلَّى بخلال حميدة وسجاياء طيبة ، كأن يتحمل أذى قومه ، وأن يكون شريفًا في أفعاله ، حليمًا كريمًا ، وأن يكظم عيظه ، جاء في المثل : « اَحْلَمْ تُسُدْ » ، وأن يحترم الناس ، ويؤلف بينهم ، ويكتسب مودتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل بيته مضيئًا لكل من يرفد إليه .

(١) سنت : أى وضعت ، وانظر : ملاح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية

د. محمد رشاد خليل ط ١ سنة ١٩٨٢ م .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٦

(٣) تحدث عن هذا الموضوع مطولاً في (الحياة السياسية من حياة العرب قبل الإسلام)

الجزء الأول

ومن صفات رئيس القبيلة أن يكون شجاعاً وفي مقدمة قومه في حربهم وغزوهم ، مقدّماً لا يهاب الموت حتى يحقق النصر لنفسه وقومه ، فهو قائد القبيلة وواضع خطط الحرب لها .

وما كانت قيادة القبيلة بالأمر السهل ، ولا سيما إذا كانت كبيرة ذات عشائر وبطون متباعدة ، وكان الرئيس يعلن الحرب على العشيرة العامة المنشقة ، وقليل هم الذين يستطيعون أن يسودوا القبائل الكبيرة^(١) .

طبقات الناس في القبيلة :

كثيراً ما كان لكل قبيلة حاضرة وبادية في آن واحد ، ولم تكن البادية منقطعة عن الحاضرة كما يبدو للوهلة الأولى ، وإذا صح هذا على بعض القبائل المتبدية التي لا هم لها إلا الغزو وانتجاع الكَلأ فإن كثرة القبائل كانت على صلة دائمة بالمدن .

وقد شملت الطبقة القبلية نفسها ، فكان فيها طوائف متعددة ليسوا سواء ، فيها أبنائها الصرحاء ، وفيها موالها وعبيدها كذلك .

أ - أبناء القبيلة الصرّحاء :

هم أبنائها وذوو الدم النقي الذي لا تُشوبه شائبة حسماً يعتقدون به هم الذين ينتمون إلى أب واحد ، منهم تتكون الطبقة الأرستقراطية في القبيلة ، وفيهم رياستها وبيوتات الشرف فيها ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقياً ، وأن تجمع الشرف من كلا طرفيه الآباء والأمهات^(٢) .

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ٣٤٤/٤ .

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف الله ص ١١٣

والنسب هو أساس العصبية ، ولذا حرص العربي على حفظ نسبه ، ولا يزال يحرص عليه ، ويبدأ النسب بالأب غالباً وبالأم قليلاً ، والبيت عند العرب بيت الأب ، ولذلك صار النظام عندهم أبوياً ، السلطة العليا فيه للأب ، يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ، ومجتمع أهل الدير .

وللخوالة مكانة كبيرة عند العرب ، قد تقوى أحياناً على العمومة ، كأن يموت الرجل وله خلاف مع إخوته ، فتقوم عندها الخوالة مكان العمومة في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدهم بالعصبية .

ولذلك كان الجاهليون يقولون رجل مُعِمّ ورجل مُخول ، ويقال : كريم الأعمام والأخوال على سبيل المدح والتقدير^(١) .

لقد كان الاعتزاز بالنسب مجال فخر الشعراء ، وتباهي أبناء القبائل .. والشعر الجاهلي زاخر بهذه المعاني .

بل نلاحظ أن الغلو بأحساب القبائل والمحافظة على أمجادها الموروثة ، قد وقف دون قبول دعوة الخير ، دعوة الإسلام من الرسول ﷺ .

لقد جابهت الجاهلية العربية الطليعة الأولى للدعوة السمحة ، بحجة المحافظة على ما كان عليه عرف الآباء والأجداد .

ب - طبقة الموالى :

تعتبر هذه الطبقة أدنى منزلة من أبناء القبيلة الصُّرَحَاء ، وهؤلاء على أقسام :

موالى الجوار أو الحِلْف ، أو من العتقاء الذين أعتقتهم القبيلة .

تتكون هذه الطبقة إذن من أصليين كبيرين : الأحرار والعبيد .

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على : ٤٥٣/٤ ، ٤٥٦ - وتاج العروس :

مادة (خَوْل) ٣١٢/٧ .

فالأحرار هم الذين لجأوا إلى القبيلة ، سواء عن طريق الجوار حيث يختمي الجار بالقبيلة المجاورة عن طريق أحد أفرادها ، فيصبح مولاه ، ويعيش في ظل هذه القبيلة الجديدة ، ولكل منهما أن يرث صاحبه إذا مات قبله . ومن هؤلاء الأحرار مَنْ جاء عن طريق التحالف بين القبائل ، إذ تلتجى قبيلة ضعيفة إلى قبيلة أخرى أقوى منها لتدافع عنها .. أو يلتجى فرد إلى قبيلة تغزه وتحميه ، ومن هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج قبل الإسلام^(١) .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن الموالى ثلاثة : مولى اليمين المخالف ، ومولى الدار ، ومولى النسب ابن العم والقرابة .

وقد وردت هذه الأنواع في البيت التالى :^(٢)
نبئت حياً على نعمان أفرادهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب
وقد يكون المولى من الخلعاء :

وهم الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جنائياتهم ، فإذا ارتكب الفرد جريمة القتل لأحد أفراد قبيلته ، ورفض أهله الدية خُلع ، وتعلن قبيلته ذلك ، وأن صلته بها انقطعت ، فكأن جنسية القبيلة قد سُحبت منه ، ولذلك يضطر المخلوع إلى الالتجاء إلى إحدى القبائل ، ومن هنا نشأ قانون الجوار .

هذا الرجل الذى يهيم على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أخرى ، يقال له : « الخليع » فقد خلعتة قبيلته وحرمتة عطفها وعصبيتها ، ولا بد من إعلان الخلع في المواسم العامة كالْحج مثلاً أو سوق عُكاظ ، ويجد الجوار المنشود عند مَنْ يلتجىء إليه^(٣) .

(١) انظر جواد على : ٣٦٦/٤ مما بعدها ، والشعر الجاهلى د. يحيى الجبودى .

(٢) العمدة : لابن رشيّق ١٩٨/٢

(٣) انظر الشعراء الصعاليك : ٩١-١٠٠ ، وجواد على : ٤١٠-٤١١ .

وقد قدّس العرب الجوار حتى اشتهر به بعض أشراف العرب كالزبير
ابن عبد المطلب الذي كان ينزل عليه الخلعاء بمكة ويحميهم^(١)
وكانت دية الجار نصف دية ابن القبيلة الصريح .

ومن هؤلاء الخلعاء الشذاذ أبو الطمحان القيني فقد كان فاسقاً ،
عاش حياة مضطربة ، متنقلاً بين أحياء العرب مستجيراً بها ، وذلك لتكرار
جناياته ، أدرك الجاهلية والإسلام .

واستقر به المقام أخيراً في جوار أحد بني فزارة^(٢) وكان الفزاري قد
أكرمه . ثم اشتاق أبو الطمحان إلى أهله وعشيرته وقال لسعد بن مالك :
لولا أن يدي تقصر عن دية جنايتي لعدتُ إلى أهلي .

فقال له الفزاري : هذه إبلى فخذ منها دية جنايتك ، وازدّد ما
شئت .

فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره مفارقة جاره ، ثم أتى مالكاُ
وأنشده أبياتاً يمدحه فيها ويعتذر عما كان منه فيها قوله :

وقد عرفتُ كلابكم ثياني كأني منكم ونسيْتُ أهلي

فقال مالك مُرحباً به : إنك حبيبٌ ازداد حُباً ، إنما اشتقتُ
لأهلك ، وذكرتُ أنه يحبسك عنهم ، ما تطالب به من عقل أو دية ، فبذلك
لك ما بذلتُ ، وهو لك على كل حال ، فأقم في الرَّحْب والسَّعة .

فلم يزل مقيماً عندهم حتى هلك في دارهم^(٣) .

(١) الشعر والشعراء : لابن قتيبة : ص ٢٩٩

(٢) سعد بن مالك الغزوي

(٣) الأغاني : ١٣٢/١١ (ط بولاق) .

الهَجَنَاء :

وهم أبناء العرب من إمائهم ، فقد تزوج العربى من أُمّيه ، وكان يطلق على اسم المولود من هذا الزواج « الهَجِين » ، وما كان العرب ينظرون إلى هذا الزواج ونتائجه الخطيرة لديهم نظرة احترام .

فالهجين إذن ولد العربى من غير العربية ، وقد عاب العرب هذا الزواج لوجود دم أعجمي فيه .. وكان الأعاجم - مهما كانوا عليه من منزلة - دون العرب فى نظر عرب الجاهلية ويظهر أن لفظة الهجين خصصت لمن يولد من أم أعجمية بيضاء ، كأن تكون الأم رومية أو فارسية^(١) .

وكان أبغض ما يبغضه العربى أن تلد أُمّته منه ، ومن هنا كانوا يستعبدون أولاد إمائهم ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة ، فإنهم حينئذ يلحقونهم بنسبهم^(٢) .

وكان شعر عترة بن شدّاد ينبض ألماً وحزناً مما يعانى به بسبب ولادته من أم سوداء ، وبسبب موقف والده ومجتمعه منه رغم بسالته وشجاعته . وكان أسوأ هؤلاء الهجناء حظاً وأوضاعهم منزلة أولاد الإماء السود ، فقد كانوا سُبّة يُعَيَّر بهم آباؤهم ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسم : الأُغَرِيّة .

(١) جواد على : ٣٩٠/٤ .

(٢) الشعر والشعراء : ابن قُتيبة (٢٥٠-٢٥١) .

أُغْرِبَةُ العرب :

وذلك تشبيهاً لهم بذلك الطائر المشؤوم عندهم .. فما يحسن هؤلاء الأُغْرِبَة ، أولاد الإماء السود في نظرهم إلا رَغِي الإبل والجِلاب والصَّر ، كما يعبر عنترة عن ذلك في شعره، ساخراً من تلك الأوضاع الاجتماعية السائدة .

وقد خرج بعض هؤلاء الأُغْرِبَة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الذليلة التي فُرِضت عليهم .

ومن هؤلاء الأُغْرِبَة المتمردين ، تألفت جماعات من صعاليك العرب ترفض واقعها الأليم .. أمثال : السُّلَيْك بن السُّلَكَة السَّعْدِي ، يصفه ابنُ قتيبة : « بأنه أحد أُغْرِبَة العرب وهجنائهم وصعاليكهم »^(١) .

كانت أمه سوداء حبشية ، ومثله ثَابُطٌ شراً كان من هذه الطائفة .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأُغْرِبَة إلى طائفة الصعاليك الخُلعاء والشَّدَاذ ليشتركوا في العمل ضد هذا المجتمع، الذي تخلى عن رعاية الأُغْرِبَة ، وعن حماية الخُلعاء الشَّدَاذ^(٢)

لقد مَيَزَ القوم بين الناس على أساس اللون ، وكان احتقارهم للسود يدفع السُّودَ دَفْعاً إلى المكارم والنباهة والبطولة والفصاحة .

لقد ميز عرب الجاهلية بين الناس ، فهذا أُصَيْيل ، وذاك دَخِيل ، وآخر هَجِين .. وأُغْرِب من هذا كله استعباد الأب لابنه إن كان من أمة سوداء .

(١) الشعر والشعراء : ٢١٤

(٢) الشعر الصعاليك : ١٠٣ ، ١١٤

لقد ميزوا بين الناس بسبب العنصر ، فهذا شريف ، وذاك وضع ،
هذا كريم وذاك بخيل ، هذا مولى وآخر حر ..^(١) وقد ظهرت هذه التفرقة
في شعرهم :

يقول المثلث :^(٢)

أَحَارِثُ إِنَّا لَوْ تُشَاطُ دِمَاؤُنَا تَزِيلُن حَتَّى مَا يَمَسُّ دَمٌ دَمًا
فدماء القوم لا تقبل الاختلاط ، حيث لا يختلط دم الشريف بدم الوضع .
وقد اعتبروا أبناء السبايا في منزلة أقل من منزلة أبناء الإماء .

يقول شاعرهم :^(٣)

نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَحْمَلُوا فَوْقَ خَيْلِكُمْ هَجِينًا لَكُمْ يَوْمَ الرُّهَانِ فَيَدْرُكُ
وَهَلْ يَسْتَوِي الْمِرْعَانُ : هَذَا ابْنُ حَرَّةٍ وَهَذَا ابْنُ أُخْرَى ظَهَرُهَا مَشْرُكُ

والموالي مهما كانوا عرباً أم عجماء ، كانوا أقل شأنًا في المجتمع
الجاهلي من الأحرار ، ولهذا قلما زَوَّج الأحرار بناتهم للموالي ، وكان من
سنتهم في الزواج : كفاءة النسب والمنزلة والحرفة^(٤) .

كما أن المولى لا يستطيع أن يجير على القبيلة كما يجير ابنها عليها .

إلا أنه كان لديهم أعراف تجعل نقض العهود والمواثيق من أقبح
العيوب ، وتجعل الغدر بالمولى والحليف من العار المُسْتَهْجَن .

(١) انظر المعتقدات والقيم : محمد محمود صيام ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

(٢) لسان العرب مادة : شيط ، والصاحح : ١١٣٩/٣ ، ومعنى شاط الدماء :

حلطها .

(٣) للشاعر العبدى : المستطرف للأبشيبي ٨٥/٢ .

ومشرك : أى مشترك (انظر اللسان : شرك)

(٤) جواد علي : ٣٦٩/٤

يقول الحادرة ،^(١) (وهو قطبة بن أوس) :

أُسْمِي وَيَحْكِ هَل سَمِعْتَ بِعَذْرَةٍ رُفِعَ اللِّوَاءُ لِنَابِهَا فِي مَجْمَعٍ
وقبل أن تنتقل إلى طبقة الرقيق والعبيد ، لابد أن نتحدث عن طائفة
أخرى أشرنا إليها خلال حديثنا عن الخلعاء وهي (طائفة الصعاليك) .

طائفة الصعاليك

هم أولئك المشاغبون المُغيرون أبناء الليل ، الذين يسهرون لياليهم في
السُّلْب والنهب والإغارة ، بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة
واهدوء .. هم طائفة من قطاع الطرق كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة
العربية ينهبون من يلقونه في صحرائها الموحشة الرهيبة ويأكلون ماله^(٢) .

كان الجوع سبباً من أسباب ظهور هذه الطبقة ، حتى أن عُروَةَ بن
الْوَرْد (سيد الصعاليك الذين كانوا يلجأون إليه كلما قست عليهم الحياة)
كان صعلوكاً فقيراً مثلهم .

ويذكر الرواة أنه جاء بامراته إلى بنى النضير « ولا شيء معه إلا هي
فرهما ولم يزل يشرب حتى غَلَّقَتْ »^(٣) .

وتكثر في شعر عروة أحاديث فقره ، وما يتكبد في سبيل المال من جهد
ومشقة إذ يقول^(٤) :

دعيني للغنى أُسْمِي فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ

(١) الفضليات : ص ٤٥٦ رقم (٨) .

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : د. يوسف خليف الله ط دار المعارف بمصر ص

٢٤ ، ٢٣

(٣) الأغاني : ٣٨/٣ (طبعة دار الكتب المصرية) « ومعنى غلق الرهن في بد الميراث :

أى استخفّه وذلك إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط » .

(٤) ديوان عروة : ص ٤٥ ، ٢٣ ط دار صادر ، بيروت .

وقوله :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِرًا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ

ومن يتأمل شعر الصعاليك ، يلفت نظره شعورهم الحاد بالفقر ،
حيث أن المجتمع ظلمهم بأعرافه وتقاليده كما يرون .

فقيس بن الحِذَادِيَّة مثلاً يرى أنه لا يساوي عند قومه « عَنزًا جرباء
جوفاء » .

وفي أخبار الشنفرى : أن قومه قتلوا رجلاً في خفرة بعض بنى فهم
فرهنوه وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يقدوهم^(١) .

لقد حاول هؤلاء الصعاليك أن ينتزعوا لقمة العيش - حسبما
يرون - من أيدي من حرّمهم منها . « فالحق للقوة والغاية لديهم تبرر
الوسيلة » .

لقد كانوا يأنفون من الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي التي يقوم بها
العبيد وأشباههم ، كخدمة الإبل مثلاً ، فعترة يقول محتجاً على قومه :
« العبد لا يُخسِنُ الكَرَّ ، وإِنَّمَا يُخسِنُ الجِلَابَ والصَّرَّ »^(٢) .

إن الصعاليك لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي
يقوم عليها المجتمع البدوي كالغزو والإغارة^(٣) .

وهم رغم ذلك كله كرماء حتى ليُضرب بهم المثل في الكرم قيل :
« كُلُّ صُغْلُوكِ جَوَادٌ »^(٤)

(١) شرح المفصلیات لابن الأنباری : ١٩٧-١٩٨

(٢) الشعر والشعراء : ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) الشعراء الصعاليك : (٣٠-٣٤) .

(٤) مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ لِلْمَعْدَانِي : ٩٠/٢

ويقرنون عروة بن الورد مثلاً بحاتم الطائي ، فقد روي عن عبد الملك ابن مَرْوان أنه قال :
« مَنْ زَعَمَ أَنَّ حَاتِمًا أَسْمَحَ النَّاسِ فَقَدْ ظَلَمَ عُرْوَةَ بْنَ الْوَرْدِ »^(١) .

إنَّ الغنى والغزو والغارة والسلب ليست عند الصعاليك وسائل للغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها كانت وسائل للبذل والعطاء كذلك

وكانت النتيجة الطبيعية هذا كله، أن فرَّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي، ليقيموا لأنفسهم مجتمعاً فوضوياً ، شريعته القوة ، ووسيلته الغزو والإغارة ، وهدفه السلب والنهب، ووجدوا في الصحراء الفسيحة مجالاً يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي .

ويلاحظ مما سبق أن هنالك ثلاث طوائف تتألف منها عصابات الصعاليك :

- طائفة الخلعاء والشذاذ الذين أنكرتهم قبائلهم وطردتهم من حماها
مثل : قيس بن الحِذَادِيَّة .

- وطائفة الأغربة السُّود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، ولم يعترف بهم آبائهم العرب ولم ينسبوا إليهم مثل : ثَابُطٌ شَرًّا والشَّنْفَرَى ، والسُّلَيْكُ بن السُّلَكَةِ .

- وطائفة الفقراء المتمردين ويمثلهم عروة بن الورد .

لقد انطلقت هذه العصابات كما تنطلق الذئاب الجائعة في الصحراء الموحشة تثير الرعب والخوف وتعود بالنهب والسلب^(٢) .

(١) الأغاني : ٧٤/٣

(٢) انظر الشعراء الصعاليك ، ص ٥٥-٥٦ .

ج - طبقة العبيد والرقيق :

كانت هذه الطبقة تتألف من عنصرين : عنصر عربي وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربي، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يُجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية مثل افريقيا والحبشة بشكل خاص .

وكان السبي نتيجة الحروب القبيلة من الرجال والنساء أمراً أساسياً في كل غارة ، ومن الطبيعي أن يكون تعرّض النساء للنسبي أكثر من الرجال ، وكان الرجل يحرص على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن في هذا إهانة لأعدائه ، وكان يحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحى فيؤخذن سبايا ، ومن هنا كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فئهم الحرنى ، ومن هنا أيضاً كانت حماية الطّعيّنة عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية^(١) .

وربما باعت القبيلة أسراها ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ، من قبيلة قُضاعة « أصابه سياء في الجاهلية لأن أمّه خرجت به تزور قومها بنى مَعْن فأغارَت عليهم خيل بنى القَيْن، فأخذوا زيداً فقدموا به سوق عُكَاظ فاشتراه حكيم بن حِزام لعتمته خديجة بنت خُوَيْلِد رضى الله عنها ، وقيل : اشتراه من سوق حُباشة^(٢) .

أما العنصر الآخر من الرقيق المجلوب للتجارة ، وقد كانوا كثيرين ، حيث كان كل شريف من أشراف العرب يحرص على ألا يخلو منزله من هؤلاء العبيد .

(١) الشعراء الصعاليك : (١٠٣-١١٤) .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير : ٢٤٤/٢ ط القاهرة ١٢٨٠ هـ .

وقد كانت قريش تستخدمهم في حراسة قوافلها التجارية وفي الحروب ، يدل على ذلك اشتراك وحشي وغيره في يوم أحد ، وقول كعب ابن مالك - رضى الله عنه - في جيش قريش يوم أحد وفيهم العبيد :^(١) فجعنا إلى مرج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسِرٌ ومُقَنِّعٌ ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء العبيد أقل مكانة من الموالى، ويقومون بالأعمال الشاقة المرهقة .

وكان الرقيق أمراً شائعاً ونظماً عالمياً ، إلا أنه كان في عُرف الأمم الأخرى لا حقوق له ولا كيان ، يعامل بقسوة بالغة . « كان الرقيق في عرف الرومان شيئاً لا بشراً ، شيئاً لا حقوق له البتة وإن كان عليه كل ثقل من الواجبات .

كانوا يعملون في الحقول وهم مُصَفَّدُونَ في الأغلال الثقيلة التي تكفى لمنهم من الفرار .. كانوا يساقون أثناء العمل بالسياط .. كانوا ينامون في أكواخ « زنزانات » مظلمة كريهة الرائحة .

ومن أبشع وسائلهم مع الرقيق حلقات المبارزة بالسيف والرمح ، إذ كانت من أحب المهرجانات إليهم ، حيث يجتمع السادة لمشاهدة الرقيق ، يتبارزون مبارزة حقيقية فتنتلق الضحكات السعيدة العميقة حين يقضى أحد المتبارزين على زميله قضاء كاملاً .

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها تختلف كثيراً عما ذكرنا من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهداراً كاملاً ونخميله بأثقل الواجبات^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١٣٤/٢ الطبعة الثانية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلى ١٩٥٥ م .

(٢) شبهات حول الإسلام : الأستاذ محمد قطب (ص ٣١-٤٨)

وفي اليونان كان أرسطو يقول في تعريف الرقيق : « إنه آلة ذات رُوح ، أو متاع قائمة به الروح » .

وكانت حكومات القرون الوسطى في أوروبا تعتبره كالحيوان الأهلي المستخدم وكذلك القوانين السوداء في أمريكا المتحدة نصت أن العبيد لا نفس لهم ولا روح ولا إرادة .

وإذا تزوج الأبيض بامرأة امتزج بها دم الأرقاء ، اعتبر هذا الأبيض ساقطاً عن درجة ذى اللون الأبيض .

وأغرب من هذا ما كان في العصور الوسطى في أوروبا عند بعض أممها ، من أنه إذا تزوج أحد الأهالي بأمة سوداء وقع في الرُّق مثلها ، وإن المِرة الحرة التى تتزوج بعد تفقد حريتها ، وينالها هذا العقاب ، وكانت تعاقب أحياناً بالإعدام ، أما إذا تزوجت السيدة بعدها فجزاؤهما أن يخرقا بالنار وهما على قيد الحياة .

ولو قارنا ما جاء به الإسلام من عدل ومساواة بين الأجناس كلها حيث لم تقف ورائة اللون أو الجنس أو الطبقة دون أن يعيش الجميع إخواناً متحابين . لو قارنا هذا مع ما كان عليه الرقيق في بلاد الرومان واليونان وأوروبا في القرون الوسطى والحديثة حتى الثورة الفرنسية وفي أمريكا حتى حرب سنة ١٨٦٢ م نجد البؤس شاسعاً والفرق عظيماً^(١) .

(١) انظر : هذا الدين الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، ط دار الشروق ، الصفحات :

٧٧-٧٨ ، ٩٧ ، ١٠٠ هـ .

٢ - الناس في المجتمع الجاهلي منازل ودرجات :

كان الناس يتفاوتون في المكانة الاجتماعية ، وترتب على ذلك أعراف شتى :

أ - فهناك عرف التكافؤ بين الطبقات :

حيث أن دم القاتل الشريف لا يغسل إلا بدم شريف مثله ، ومن أهل مكانته - فالدم لا يغسل إلا بدم مواز له ، ولا بد من قتل شريف مثله حتى يستطيع أن ينام أهل القاتل .

وعلى هذا بنوا تقويم أثمان الديات : فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم ، إذ جعلت دية الملوك ألفاً من الإبل .

تليها ديات الأشراف وسادات القوم ، حسب الشرف والمنزلة ، حتى تصل إلى ديات المغمورين ، فتكون أقلها ثمناً إذ تبلغ خمساً من الإبل .

وعلى أساس هذه النظرية قُدِّرَت فدية الأسرى أيضاً ، فدية الملوك ألف من الإبل ، وفدية من هم دونهم أقل حتى تصل إلى أبخس الأثمان وهي فدية سواد الناس .

ب - وهناك عرف التكافؤ في الزواج :

إذ كانوا يمتنعون عن تزويج بنات الأشراف من رجال هم دون أهل البنت في المنزلة .

فقد يرفضون تزويج رجل ثرى من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، إذا كان الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أو جده صانعاً أو بائع خضار ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وإنجاب الأولاد النجباء .. ومن

أجل ذلك امتنع العرب من تزويج بناتهم من الأعاجم، حتى لو كانوا ملوكاً^(١).

وقد روي أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ردّ طلب كِسرى لما طلب منه تزويج إحدى بناته من أحد أبنائه ، وقد اغتنم زيد بن عدي هذه الفرصة وقال لكسرى :

« قد كنتُ أخبرُك بضنّ العرب بنسائهم على غيرهم ، إنَّ شرَّ شيءٍ في العرب وفي النعمان ، أنهم يتكرمون عن العجم » .
ومن أجل ذلك غضب كسرى على النعمان وقضى عليه^(٢) .

ومن هذه النظرة كان هجاء عبد القيس بن خفاف البرجمي للنعمان ابن المنذر في الجاهلية ، لأن أحد آبائه كان صائغاً ، حيث أن العرب كانت تحتقر المهن وتعتبرها لا تليق بهم حيث قال :^(٣)

لَعَنَ اللهُ ثُمَّ ثَمَّى بَلَعْنِ ابْنَ ذَا الصَّائِغِ الظُّلُمَ الْجَهُولَا
يَجْمَعُ الْجَيْشُ ذَا الْأُلُوفِ وَيَغْزُو ثُمَّ لَا يَرْزَأُ الْعَدُوَّ فَتِيلَا

وهكذا كان العربى يعتقد أنه أرفع من العجمي ، بل يأنف العربى نفسه أن يكون أحد أصوله ذا صنعة، لأن المهن من شأن العبيد والضعفاء ، أما هم فقد خلّقوا للقتال والغزو ، والعيش في أجواء البوادرى الفسيحة .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٥٤١/٤ - ٥٤٥ .

(٢) انظر تاريخ الطبرى : ٢٠٢/٢ وما بعدها .

(٣) الأغاني : ١٥٨/٩ ، والحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون : ٣٧٩/٤

ج - وكان الأحرار منازل ودرجات :

وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال ، ويظهر هذا التفاوت بين أهل المَدَر أكثر مما يظهر بين أهل الوَبَر . ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى أنه شريف كغيره، نبيل وإن قلّ ماله وشح .

ولذلك فالتفاوت بين الطبقات لا يمكن أن يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين وهو أشد ما يظهر في اليمن :

لأن أرض اليمن خصبة وذات خيرات ، ولذلك ظهر فيها الإقطاع ، وكثر الرقيق لتشيغله في الزراعة والمهن الوضيعة - حسبما يرون - .

وكان قد عيب على أهل اليمن اشتغالهم بالحرف : كالحداذة والحيافة والصياغة ، وقد أشار أمية بن خلف الهذلي إلى اشتغال أهل اليمن بالحرف بقوله :^(١)

يَمَانِيًا يَظَلُّ يَشْدُو كَبِيرًا وَيَنْفَخُ دَائِبًا هَيْبَ الشَّوَاظِ

ولكن من عابهم كان عالة عليهم ، وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي تخص شؤون حياتهم اليومية كالسيوف والخناجر الجيدة ، وكانوا يخافونهم في الحروب لامتلاكهم أسلحة لا يملكونها^(٢) .

وأصبح مجتمع اليمن وعرب الجنوب مجتمعاً له طبيعته الخاصة وكذلك صار لأهل مكة مجتمعهم الخاص وذو طابع متميز .

(١) تاج العروس : ٣٧١/٩ - مادة يمن .

(٢) انظر جواد علي : ٥٤٥/٤ ، ٢٧٩ ، ٣٧١ .

ويقال مثل ذلك : في أهل الحيرة ويثرب وبقية المجتمعات الحضرية ، شأن بقية أهل المدّر ، وذلك بسبب طبيعة الجو والأرض وعوامل اجتماعية أخرى خلافاً لأهل الوبر ومجتمعاتهم^(١) .

لقد كان في اليمن تباين الطبقات واضحاً : كطبقة رجال الدين من المكاربة ، وطبقة السادة والأشراف والوجوه والمحاربين ، وطبقة التجار ، والطبقات الدنيا من الخدم والفقراء والعبيد ، وطبقة الأبناء : الناتجة من زواج الفرس من العرب ، وطبقة الحرفيين : كالحلاقة والحجامة وأمثالها ، وهم غالباً من العبيد .

ومثل هؤلاء : طبقة المطربين والمغنيين والمُخَنَّثين ، لأنها كانت من الطبقات الدنيا الوضيعة .

أما مجتمع الأعراب أهل الوبر : فهو مجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ، وكل ما هنالك ففيهم سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها ، ولهم أموال ورقيق يخدمونهم ، وينتشر سواد القبيلة في أرضها دون تمييز^(٢) .

٣ - معاش العرب ونظرتهم إلى المهن : أ - في البادية :

كان العرب يزدرون الزراعة والصناعة ، حيث كانوا يهتمون بتربية الأنعام .

وأهم حيوان في البادية وأكثرها نفعاً عندهم الإبل ، إذ كانت عماد الحياة عند العرب ، فهي خير المال ، بها يُقَوِّمون البضاعة ويفتدون

(١) المصدر السابق : ٢٨٢/٤ - ٢٨٣

(٢) المصدر السابق : ٥٤٥/٤ ، ٥٦٤ - ٥٧٠ .

الأسرى ، ويدون القتلى ، ويدفعون المهور ، ولذلك اهتم العربى بإبله ، وكثرت أسماؤها فى شعره ونظموا فيها القصائد وبثوها أشجانهم وعواطفهم .

وحياة الأعراب تكاد تكون واحدة ، لا تغير فيها ولا تبدل - إلا ما كان من أعراب الضواحي والحوضر ، فإن ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، وكان مجال تفكيرهم أوسع من مجال تفكير الأعراب ، بسبب نوع المعيشة المتغير ، وقربهم من الحضر .

ولو درسنا حياة القبائل فى الجاهلية لوجدناها مشابهة لحياة الأعراب فى العصر الحاضر ، فى نمط الحياة وكثير من مظاهر الحياة^(١) .

ب - نظرة العرب إلى مهنة الزراعة :

كانت هذه المهنة هى مهنة الحضر فى المدن والقرى وما حولها . أما أبناء البادية فقد كانوا ينظرون إليها على أنها عمل أهل الذلة والهوان ، فهم ينالون أرزاقهم بأطراف القنا والسيوف .

وقد صَوَّرَ الأعشى هذه التزعة حين عَيَّرَ قبيلة إباد بالزراعة إذ يقول :^(٢)

لسنا كمن جعلت إباد دارها تكرث تمنع حبها أن يحصدوا
جعل الإله طعامنا فى مالنا رزقاً تضمنه لنا لن ينقدا
ضمنت لنا أعجازهن قدورنا وضروعن لنا الصريح الأجردا

(١) انظر : بلوغ الأرب للألوسى : ٣٨٥-٤٢٥

وتاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٣٠٢/٤

والشعر الجاهلى : بحى الجبورى : ٧٥-٨٨ .

(٢) ديوان الأعشى : ص ٥٦ ، طبعة دار بيروت ، ويقصد بالصريح الأجرد : اللبن

الصافي .

هكذا كانت نظرة العربى فى باديته إلى الزراعة ، ولذلك أصبحوا قوماً مُتَكَلِّينَ عَلَى الْعَيْثِ ، يَتَّبِعُونَ مَوَاقِعَهُ ، يَرْعَوْنَ أَغْنَامَهُمْ ، وَيَنْتَقِلُونَ بِهَا ، فَهِيَ قَوَامُ حَيَاتِهِمْ بَعْدَ الْغَزْوِ ، وَحَيَاةُ أَنْعَامِهِمْ ، سِوَاءِ أَكَانَتْ فِي أَرْضِهِمْ أَمْ فِي أَرْضٍ غَيْرِهِمْ .

يقول شاعرهم ، معاوية بن مائل مَعُودَ الْحُكَمَاءِ^(١) :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابَا

وهكذا كان العرب فى تِهَامَةٍ وَتَجْدٍ وَبَوَادَى الشَّامِ وَالذَّهْنِ يَعِيشُونَ عِيشَةً بَدْوِيَّةً تَعْتَمِدُ عَلَى الرِّعَى ، وَكَانُوا لَا يَفْضَلُونَ شَيْئاً عَلَى حَيَاتِهِمُ الرِّعْوِيَّةِ الْبَدْوِيَّةِ ، بَلْ يَخْتَقِرُونَ الزَّرَاعَةَ وَالصَّنَاعَةَ وَيَزِدُّوْنَهَا ، حَيْثُ يَفْضَلُونَ حَيَاةَ الْحَرِيَّةِ وَالْبَسَاطَةِ ، فَطَعَامُهُمْ بَسِيطٌ ، وَلِبَاسُهُمْ كَفَذَائِهِمْ ، إِلَّا أَنَّ الصَّحْرَاءَ مَلِئَتْ بِالْمَخَاطِرِ وَالْخَوَافِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْوَحْشِ وَالسَّبَاعِ ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ الْمَفَازَةَ فِي النَّهَارِ ، فَإِذَا جَنَّتْ اللَّيْلُ وَجَدَّتْهُ فِي مَفَازَةٍ أُخْرَى .. وَهُمْ دَائِماً مُفَزَّعُونَ حَتَّى فِي النَّوْمِ ، سِوَاهُمْ جَاهِزَةٌ لِأَيِّ طَارِءٍ ، وَلِذَلِكَ فَهُمْ يُوَثِّرُونَ الْوَحْشَةَ وَيَسْتَحْبِبُونَهَا .

هذه الحياة القاسية المخوفة هى التى دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد ، بِالْجُرْأَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَكَانَ صَيْدُ الْحَيَوَانِ يَشْغُلُ كَثِيراً مِنْهُمْ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُمْ شَجْعَانِهِمْ وَفِرْسَانِهِمْ ، كَانَ هُمْ الْفُقَرَاءَ وَالْمُعَوِّزِينَ وَلِذَلِكَ كَانَ يَأْتَى فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ غَزْوِهِمْ وَنَهْبِهِمْ ، فَالْغَزْوُ وَالنَّهْبُ فِي نَظَرِهِمْ كَانَا

(١) الرُّؤُوسُ الْأَنْفُ : ١٧٤/٢ ، وَانْظُرِ الشُّعْرَ الْجَامِلُ : الْجُبُورَى (٧٥-٨٨)

دلالة على البطولة ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن مَعْدَى كَرِب يهجو قومًا بأنهم يعيشون على الصيد إذ يقول :^(١)

أَبْنَى زِيَادٍ أَنْتُمْ فِي قَوْمِكُمْ ذَنْبٌ وَنَحْنُ فِرْعَوْنُ أَصْلَ طَيْبٍ
نَصَلَ الْخَمِيسَ إِلَى الْخَمِيسِ وَأَنْتُمْ بِالْقَهْرِ بَيْنَ مُرَبِّقٍ وَمَكْلَبٍ
حَيْدٌ عَنِ الْمَعْرُوفِ سَعَى أَيْبِهِمْ طَلَبَ الْوَعُولَ تَوْفِضَةً وَأَكْلَبَ

وتلك كانت معيشتهم : بين صيد للوحش ، وصيد للإنسان ، ورعى للأغنام والأغنام ، وتلك كانت موارد رزقهم^(٢) .

ج - نظرهم إلى الصناعة :

كانت نظرة الحاضرة إلى الصناعة أهون من نظرة البادية وإن كان الأشراف يترفعون في جاهليتهم عنها ، ولذلك عيّر عمرو بن كلثوم النعمان ابن المنذر بأن أمه كانت من أسرة ، مهنتها الصِّياغة . قال عمرو :^(٣)
لِحَا اللَّهِ أَدْنَانَا إِلَى اللَّؤْمِ زُفْئَةً وَالْأَمْنَا خَالًا وَأَعْجَزْنَا أَبَا
وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفَخَ الْكَبِيرُ خَالَهُ يَصُوغُ الْقُرُوطَ وَالشُّتُوفَ بِيْثَرَا
وقد استمرت هذه النظرة عند كثير من القبائل العربية حتى عصور متأخرة .

د - أما التجارة :

فقد كانت مهنة مربحة ، مهنة الحضر المتعلمين ، ولم تكن ظروف البادية ولا طباع أهلها تُعين على أن يبرعوا فيها ، لكن بعضهم كان يعمل

(١) الحيوان للجاحظ : ٣٠٩/٢ .

• المربق : الصائد بالزُبقة وهي العروة في الحبل ، والمكَلَب : الذى يصيد بالكلاب - الزَفْضَة : حَقِيقَة للسَّهَام تكون من أَدَم .

(٢) العصر الجاهلى : د. شوق ضيف ص ٧٨-٨٠ .

(٣) نهاية الأرب للنويرى : ٨٢/١ ط دار الكتب المصرية .

دليلاً يرشد القافلة ألا تضل في مجاهل الصحراء ، وخَفِيرًا حامياً ذا ، يمنعها من النهب والغارة^(١) .

وكانت تجارة اليمن مشهورة ، ورحلات مكة التجارية معروفة ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ﴾ ١ ﴿لَفِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ، وقصة قافلة قريش التي مرت ببدر وحصلت بعدها معركة بدر الكبرى ، معروفة مشهورة .

الحنين إلى الديار :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها ، فإن الأعرابي يحن إليها ولا يصبر على فراقها . قال الجاحظ :

« ترى الأعراب تحن إلى البلد الجذب والمحل القفر ، والحجر الصلد وتستوخم الريف »^(٢) ولو كان ذا جنات وأرفة .

والعرب وإن عُرفوا بالرحل والتنقل بسبب البداوة إلا أنهم يحنون إلى أوطانهم ، يستوى في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون أن في العُربة كُربة ، وإذا صار الإنسان في غير أهله ناله نصيب من الذل .

« قيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتقل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ؟ ! »

يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً ، ثم ينصب عصاه ، ويلقى عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في إيوان كسرى »^(٣) .

(١) انظر المحرر محمد بن حبيب : ص ١٨٩ ، ٢٦٤ ، دار الإقامة الجديدة بيروت
(٢-٣) انظر رسالة الحنين إلى الأوطان ، من مجموعة رسائل الجاحظ : ٢٨٨/٢ ، تحقيق
عبد السلام هارون .

ولقد نظم شعراء العرب في مساكنهم ، وفي الحنين إلى بواديهم شعراً
عذباً حزيناً مؤثراً^(١) .

من ذلك ما قاله الصّمة بن عبدالله :

قفا ودعا نجداً ومن حلّ بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الرّبا وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن حلّ عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم انتهي على كبدى من خشية أن تصدعا

ومما يروى أن ميسون بنت بحدل الكلابية ، لما تزوجها معاوية
-رضى الله عنه- ، ونقلها من البادية إلى الشام ، كانت تكثر الحنين إلى
أهلها وموطنها ، استمع إليها ذات يوم وهى تنشد قصيدة منها هذه الأبيات :

ليبت تخفق الأرواح فيه أحب إليّ من قصر مُنيف
ولبس عباءة وثقّر عيني أحب إليّ من لبس الشُّفوف
وكلب ينبع الطّراق دوني أحب إليّ من ثَقُر الدفوف

إذ فضلت الخيمة تخفق فيها الرياح في البادية ، على قصر الخلافة في
دمشق ، فمَنْ شَبَّ على شيء شاب عليه والله في خلقه شؤون .

ومن هذا القبيل ما يذكر أن صبية تسمى حسانة قعدت على بركة في
روضة بين الريحين والأزهار في ألطف وقت وأبهجه ، وكانت قد احتملت
من البادية إلى الحضر .. فقل لها كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما
كنت فيه من البادية ؟ فأطرقت ساعة ثم تنفست وقالت قصيدة منها :

أقول لأدنى صاحبي أسيره وللعين دمع يحدر الكحل ساكبه
فياحبذا نجد وطيبُ تراه إذا هضبت بالعثى هواضبه^(٢)

(١) انظر بلوغ الأرب : الألوسى : ١٩٨-١٩٩ ، و ٤٢٥/٣-٤٢٧

(٢) المرجع السابق . و هضبت السماء : فاضت ، والهاضبة : السحابة .

وبعد : فهذه إمامة بطبقات الناس ومنازلهم ، وأعرافهم وتقاليدهم ، ونظرتهم إلى أصحاب المهن اليدوية ، ومدى تعلق الأعراني بموطنه رغم شَطَف العَيْش .

وسوف نتحدث في المبحث الثاني عن النقلة البعيدة التي نقل الإسلام العرب والناس جميعاً إليها .

« المبحث الثانى »

راية العدل والمساواة ترفرف على الناس فى ظلال الدعوة الإسلامية

جاء الإسلام ليرتفع بالبشرية إلى أعلى درجات العدل والمساواة ، جاء
ليساوى بين القرشى والأعجمى ، جاء ليرد إلى البشر إنسانيتهم .. ويروض
نفوس العرب للانقياد إلى التعاليم الجديدة والسلوك الكريم .

« وبعد أن كانت حِمَى الجاهلية ونُصرة العصبية ، والتعاون على الإثم
والعدوان ، أصبح التعاون على البر والتقوى .

جاء الإسلام ليربط القلوب بالله ، ويربط موازين القيم والأخلاق
بميزان الله ، جاء ليخرج العرب والبشرية كلها من حمية الجاهلية .. وضغط
الشاعر والانفعالات الشخصية والعشائرية فى مجال التعامل مع الأصدقاء
والأعداء إلى آفاق الدين الجديدة .

وولد الإنسان من جديد فى الجزيرة العربية ، بل وكان هذا هو المولد
الجديد للعرب ، وللإنسان فى سائر الأرض «^(١) .

فالعدل تحقق عملياً فى سيرة المصطفى ﷺ فى المجتمع الإسلامى وفى
حياة أصحابه رضوان الله عليهم قال ﷺ فى فتح مكة ، فى تحريم الدماء
والأعراض والأموال :

(١) فى ظلال القرآن : سيد قطب ٨٣٩/٢ ، بتصرف يسير .

« إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا .. » (١)

ونهى عليه الصلاة والسلام عن الشفاعة في الحدود عندما حاولت قريش أن تشفع في المرأة المخزومية التي سرقت واستغرب ﷺ شفاعته أسامة ابن زيد ، عندما فزع قومها إليه ، وتلّون وجه رسول الله وقال : « أتكلمني في حَدٍّ من حدود الله تعالى ؟ » فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله . ثم قام رسول الله خطيباً وقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقُطِعَتْ يَدَاهَا » (٢) .

وأمر رسول الله بتلك المرأة فُقطعت يدها ، وخُسِّنت توبُّتها بعد ذلك .

هكذا يقرر الإسلام أن لا فرق في العقوبة بين شريف ووضيع ، الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، امرأة من مخزوم من ذُؤابة قريش لم ينفعها نسبها إذ تأخر بها عملها .

ألا ما أحوَجْنَا إلى إعادة هذه الرُّوح إلى واقع البشرية اليوم ، فواقع الرشاوى والوسائط بضيع الحقوق ، ويعجّ بالمظالم .

ولقد شمل العدل الناس جميعاً ، وساوى الإسلام بين الفاتحين وأهل البلاد التي فتحت حتى أهل الذمة منهم . « مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ النَّاسَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ فَقَالَ :

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٦٩/١١ .

(٢) مسلم مع الشرح ١٨٦/١١ ، والبخارى في روايته عن عروة بن الزبير .

ما أنصفناك ، كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في
كبرك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » (١) .

راتب نجره أمير المؤمنين على رجل من أهل الذمة ، بالعدل والرحمة
والإنسانية ، والمسلم اليوم يفرق بينه وبين أخيه المسلم في الحقوق
والواجبات لا لشيء إلا أنه لا يتسبب إلى هذا الوطن أو ذاك .. بل ربما أفنى
العامل زهرة شبابه وصحته ، حتى إذا عجز عن العطاء ألقى به خارج
الحدود وقد صحب معه أسرة كبيرة لا معين لها إلا الله ..

إن البشرية الحائرة المنكودة تفتقر إلى إعادة العدل والمساواة تحت راية
الإسلام من جديد .

وقصص العدل والمساواة تكاد لا تُحصى في ظل الإسلام » أخرج
ابن عبد الحكم عن أنس - رضي الله عنه - أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر
ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم .
قال : عُدْتُ مُعَاذاً أَى التَّجَاتِ إِلَى مَلْجَأٍ يَحْمِيكَ قَالَ : سَابَقْتُ ابْنَ عَمْرٍو
ابْنَ الْعَاصِ - مُحَمَّدَ بْنَ عَمْرٍو - فَسَبَقْتُهُ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُنِي بِالسَّوْطِ وَيَقُولُ :
أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ ، فَكُتِبَ عَمْرٌو إِلَى عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ
وَيَقْدَمُ بَابَهُ مَعَهُ . فَقَدِمَ فَقَالَ عَمْرٌو : أَيْنَ الْمَصْرِيُّ ؟ خَدَّ السَّوْطَ فَاضْرِبْ
بِهِ ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِالسَّوْطِ وَيَقُولُ عَمْرٌو : اضْرِبْ ابْنَ الْأَكْرَمِينَ ، قَالَ
أَنْسٌ : فَضْرَبَ وَاللَّهِ !

ولقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقْلَع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه
ثم قال للمِصْرِي : ضَعِ عَلَى صَلْعَةِ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا ابْنَهُ الَّذِي

(١) انظر : كنز العمال ٣٠١/٢ ، وحياة الصحابة : ١٠٥/٢ .

ضربني وقد استقدت منه . فقال عمر لعمرؤ : مُدِّ كُمْ تعبدُكم الناسَ وقد ولدَهم أمهاتهم أحراراً ؟ فقال يأمرؤ المؤمنين : لم أعلم ولم يأتني « (١) » .

فمصر إذ ذاك بلد فتح حديثاً من قِبَل المسلمين ، وهذا القبطى لم يزل على دينه فرداً من جماهير البلد المفتوح ، وعمرؤ بن العاص هو فاتح هذا الإقليم وأول أمير عليه من قبل الإسلام .

وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان ، أصحاب السياط على جلود أهل المستعمرات ، ولعل ذلك القبطى كان مايزال يحمل ظهره آثار سياط الرومان !

ولكن المد الإسلامى الذى حَرَّر به الإسلام الشعوب أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وإذلالها ، وأطلقه إنساناً آخر ، حرّاً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الأكرمين ابنه ثم نحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريئة على أن يركب من مصر إلى المدينة ، فلا طائرة ولا سيارة .. ولكن جهلاً يخب به ويضع به الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو إلى الخليفة .

وهكذا ينبغي أن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى ، فليست المسألة فقط أن عمر عادل ؟ وأن عدله لا تتناول إليه الأغناق فى جميع الأزمان ، ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر قد انطلق فى الأرض تياراً جارفاً مكرماً الإنسان بصفته « الإنسان » .

وهذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط (٢) وكم من المظلومين فى هذا العصر ممن لا يستطيعون أن يوصلوا شكواهم لأحد إلا الله ، بل كم من قتيل أو مفقود لا يجرو أهلهم على الهمس بَلَّة الكلام .

(١) انظر : حياة الصحابة : ٩٧/٢ - ٩٨ ، ومُنتخب كُتُر العمال : ٤٢٠/٤ .

(٢) هذا الدين : سيد قطب ، (ص ٨٢ - ٨٣) .

مكانة الموالى فى الإسلام :

لقد شمل الإسلام بعدله جميع الطبقات ، وارتفع بمكانة الإنسان ، وسأوى بين الناس ، وبعد أن كان الموالى والرقيق يعاملون معاملة تقل عن معاملة أبناء القبيلة الصرحاء ، شملهم الإسلام بعدله وأشعرهم بالعزة والكرامة .

« فانظر إلى مكانة نافع مولى ابن عمر - رضى الله عنهما - والذى قال البخارى فيه : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر .
وقيل فى هذا السند : إنه سلسلة الذهب .

وإلى منزلة عكرمة مولى ابن عباس - رضى الله عنهما - ، الذى أعتقه ابنه على بعد وفاة أبيه ، وقد انتهى إليه علم التفسير ، وشهد له ابن عباس وأذن له بالفتوى وأخذ عنه العلم سبعون أو يزيدون من أجلاء فقهاء التابعين » (١) .

وقد تصدّر مجالس العلم عدد من الموالى كالحسن البصرى وسعيد بن جبير وطاووس رحمهم الله ، بينما كان العلم عند الرومان واليونان مقصوراً على الضبقات العليا . .

وكان خلفاء بنى العباس إلا التّزّير اليسير منهم أمهاتهم أمهات أولاد ، وما كان ذلك لينقص من شرفهم شيئاً .

وقد تولى كافور الإخشيدي (وكان مولى للإخشيدي) حكم مصر بعد وفاة سيده وخطب له على المنابر فى مصر والشام والثغور والحجاز أيام الخليفة المطيع لله العباسي .

(١) انظر تهذيب التهذيب ، ونظام النفقات فى الشريعة الإسلامية أحمد إبراهيم إبراهيم -
القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٩ هـ .

« والأمثلة الرائعة في هذا المعنى تستقى من الجماعة الأولى التي أنشأها محمد ﷺ ، فقد انتقل منها الموالى من أدنى درجات الظلم والغسَف والاضطهاد والتعذيب إلى أعلى مكانة في الأمة ، مكانة الإسهام في تدبير الأمور وقيادة الجماعة

يروى ابن سعد في طبقاته : أن سالماً مولى أنى خذيفة كان يؤم المهاجرين بقاء وفيهم عمر بن الخطاب (رضى الله عنهم أجمعين) وذلك لأنه أقرؤهم ، وأن رسول الله ﷺ آخى بين سالم وأنى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما

والجماعة التي ترضى أكثرية أفرادها ، وتقير في نفوسهم الضمائية هي الجماعة التي تقيم العدل وتزن بالقسطاس المستقيم .

أما الجماعة التي نخانى بعض أفرادها لأسباب غير عادلة فهي جماعة تشيع فيها روح السخط والتبرم .. وتنتهى الأمور إلى تصدع الألفة وتداعى بناء الوحدة »^(١) .

وهذا ما جعل أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - يقول : « ألا إن أقوامك عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه »^(٢) .

وإكرام التقى هو أساس التعامل عند المسلمين : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

(١) المجتمع الإسلامى : د. محمد أمين المصرى رحمه الله . دار الأرقم الكويت ص

٢٦-٢٧ ، بتصرف يسير .

(٢) جمهرة خطب العرب : أحمد زكى صفوت ١/١٨٠ ، ط الحلبي بمصر ١٩٦٢ م .

معاملة الرقيق في الإسلام :

كنا قد عرفنا في الصفحات السابقة شيئاً عن معاملة الرقيق قبل الإسلام ، ولما أشرقت أنوار هذا الدين ، شملهم الإسلام بعطفه ورحمته ، حتى ساوى بين الأحرار وبين الرقيق في كل شيء تقريباً إلا فيما هو من خصائص الولاية لاقتضاء السياسة الحازمة آنذاك .

وكان المسلمون يعتبرون التسلط على المملوك دناءة ، وباشر الرقيق التجارة ممن رأى فيه موله حذقاً في إدارة الأموال ومعرفة بشميرها .

جاء الإسلام فوجد الرّق عُرفاً دولياً يأخذ به المتحاربون جميعاً ، فعمل على تخفيف موارد الرق بالكفّارات وبالمُكاتبة وبغير ذلك .

يروى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أُعْتِقَ رَقَبَةً مُؤْمَنَةً ، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى يَغْتَقَ فُرْجَهُ بِفُرْجِهِ » (١) .

وقد اهتم الإسلام بحسن معاملة المملوك ، وألزم السيد بنفقة رقيقه قَدْرَ كفايتهم بالمعروف ، ولو كان الرقيق عاجزاً عن الكسب بسبب مرض أو عي أو غير ذلك :

ويلزم السيد تزويج أرقائه إذا طلبوا ذلك كالنفقة لا فرق في ذلك بين ذكورهم وإناثهم كما قال تعالى :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَبْنَاءَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ (٢) .

(١) أخرجه مسلم في العتق . باب فضل العتق ، والبخارى في الأيمان والنذور . انظر

شرح السنة : ٣٥١/٩ .

(٢) انظر : نظام النفقات في الشريعة الإسلامية ص ٩١

وارتفع الإسلام بالرقيق إلى درجة عالية في المكانة الرفيعة والمعاملة الطيبة ، وفي قبول الرواية :

« فرواية العبد والأمة للحديث مقبولة بالإجماع ولا يشترط في كل منهما لقبول روايته إلا مثل ما يشترط في غيرهما من العقل والضبط والعدالة والإسلام ، وفتوى كل منهما جائزة إذا كان المفتى منهما أهلاً لذلك كالأحرار تماماً^(١) .

بل إن المعاليك حكموا بلاد المسلمين في مصر والشام قرابة ثلاثة قرون ، وما كان يمكنهم ذلك لولا تسامح الإسلام والمسلمين .

وقد اهتم رسول الله ﷺ بشأن الرقيق وعواطفه إذ يقول : « لا يقولن أحدكم عبي وأمتى ، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقُل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى »^(٢) .

جاء الإسلام ليقرر أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والتسخير والتحقير وإنما علاقة القرى والمودة قال ﷺ : « هُمْ إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْنَهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْنَهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ »^(٣) .

(١) المرجع السابق : ص ٩٤ .

(٢) مسلم مع الشرح : ٥/١٥ .

(٣) رواه البخارى وأحمد عن أبى ذر - رضى الله عنه - .

ومن وصايا رسول الله ﷺ في الخدم والرقيق :
 « إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ، ثم جاء به وقد وَلِيَ حَرَّهُ ودُخَانَهُ فَلْيَقْعِدْهُ معه ، فليأْكُلْ ، فإن كان الطعامَ مَشْفُوعاً قليلاً ، فليضع في يده منه أَكْلَةً أو أَكْلَتَيْنِ » (١) .

وفي هذا الحديث حثٌّ على مكارم الأخلاق والمواساة في الطعام ولا سيما في حق من صنعه وحمله لأنه ولي حَرِّه ودخانهِ وتعلقت به نفسه ، وشتم رائيحه (١) .

وهذا نموذج في معاملة الرقيق : هو قصة أُمِّي ذَرٍّ - رضى الله عنه - مع غلامه .

عن المَعْرُورِ بنِ سُوَيْدٍ قال : مررنا بأُمِّي ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه مثله فقلنا : يَا أَبَا ذَرٍّ ، لو جمعتَ بينهما كانت حُلَّةً فقال : إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلامٌ وكانت أُمُّهُ أعجمية فَعَيَّرَتْهُ بأُمِّهِ ، فشكاني إلى النبي ﷺ ، فلقيتُ النبيَّ فقال : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ .

قلت : يا رسول الله مَنْ سَبَّ الرجالَ سَبَّوا أباه وأُمَّهُ . قال : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ ، هم إخوانُكم جعلهم الله تحت أيديكم فَأُطْعِمُوهُمْ مما تَأْكُلُونَ وَالْيَسُوءُ مَا تُلَبِّسُونَ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » .

أى أن هذا التعبير من أخلاق الجاهلية ، ففِيكَ خُلُقٌ من أخلاقهم ، وفي ذلك النهي عن التعبير وتنقيص الأبناء والأمهات ، وأنه من أخلاق

(١) صحيح مسلم مع الشرح : ١٣٤/١١ ، وأَكْلَةً أو أَكْلَتَيْنِ : قال الراوى يعنى لقمة أو لقمتين - ومشفوعاً : أى قليلاً بالنسبة إلى من اجتمع عليه لأن الشفاه كثرت عليه حتى صار قليلاً .

الجاهلية ، رغم أن الرجل كان قد سبَّ أبا ذر ، وإنما يباح للمسبوب أن يسبَّ السابَّ نفسه بقدر ما سبَّه ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه^(١)

هذه الشفافية كانت توجيهات رسول الله ﷺ إلى أصحابه .

وبهذه الرُّوح كانت معاملة الصحابة والمسلمين .. عدل ورحمة في المأكل والملبس .. وأخوة ومودة بينما نطالع في الصحف المعاصرة أنباء السائقين والخدم وما يعانون من ظلم واضطهاد ، بعيداً عن الرحمة والإنسانية وربما انتحر أحدهم تخلصاً من جحيم حياته ، وربما أُلقت المرأة « الخادمة » بنفسها من أعلى العمارات ، هرباً من نيران الحياة أو حفاظاً على عِرْضها المصُون .

جاء الإسلام فحرّم الظلم والأذى ، جاء ليحرر الرقيق أولئك الذين كانوا يُجلدون بسياط أسيادهم ، جاء ليعتبر الناس سواسية بعد أن كان العرَبى في جاهليته يتبرأ من إلحاق ولده الأسود من جاريته السوداء بل كان يَسْتَرْقُهُ أيضاً .

أين هذا من قول رسول الله ﷺ لأحد الأنصار وقد رآه يضرب غلاماً له : « اغْلَمْ أبا مسعود أن الله أَقْدَرُ عليك منك على هذا الغلام » قال أبو مسعود وقد ألقى السوط من يده : قلت لا أضرب مملوكاً بعده أبداً^(٢) .

وفي رواية : « قال : فقلت يارسول الله هو حُرٌّ لوجه الله .

فقال : « لو لم تفعلْ لَلْفَحْتَكِ النارُ أَوْ لَمَسْتِكِ النارُ »^(٣) .

(١) صحيح مسلم مع الشرح للنووى : ١٣٣/١١ .

(٢) صحيح مسلم مع الشرح للنووى : ١٣٠/١٧ .

(٣) شرح السنة للبغوى : ٣٤٧/٩

وبذلك يرتفع الإسلام بأبنائه جميعاً : الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة ،
الموالى والرقيق ، ويُفَتَّق طاقاتهم وقُدْرَتهم كلها نحو الخير وبناء حضارة
إسلامية فريدة تقوم على العدل والمساواة ، تحمي العقيدة ، وسداها الأخوة
« وحسب هذا المفهوم يكون الوطن داراً تحكمها عقيدة ومنهاج وشريعة من
الله ، وتكون الجنسية عقيدة ومنهاج حياة ، فعصية العشيرة والقوم والجنس
واللون والأرض عصية صغيرة متخلفة ، عصية جاهلية عرفتها البشرية في
فترات انحطاطها الروحي » (١) .

وها هي تعرفها في فترات تخلفها الحضارى ، وانحسارها العقدى ،
بعيداً عن قيم هذا الدين وأخلاقياته ، لتغزو البشرية من جديد جاهلية ظالمة
جائرة .

معاملة الرقيق بين المسلمين والأمم الأخرى :

لو قارنّا ما جاء به الإسلام وطَبَّقَه المسلمون بشأن الرقيق وبما كان
عليه عند اليونان والرومان وأم أوروبا في القرون الوسطى وأمريكا حتى نهاية
القرن التاسع عشر لوجدنا اليون شاسعاً .

فإذا أَبَقَ العبد في قوانين فرنسا السوداء ، يعاقب بقطع الآذان والكَيِّ
بالحديد المحمى في المرتين الأولى والثانية ، أما في المرة الثالثة فكان جزاءه
القتل .

وفي القوانين الإنجليزية الاستعمارية ، كان جزاء العبد الآبق القتل إن
استمر هروبه أكثر من ستة أشهر .

أما عقوبات الرقيق إذا اقترف ذنباً ، فقد كانت عند اليونان الجلد
بالسَّوط وبالطحن على الرَّحَى .

(١) معالم في الطريق : سيد قطب رحمه الله

وفي العصور الحديثة : لم تكن قوانين المستعمرات الفرنسية تمنع السادة البيض من إهلاك أرقائهم بجلدتهم أو تكييلهم بالسلاسل بل لا تمنعهم من إحراقهم بالنار .

وفي أمريكا : حظرت قوانينها على العبد حق المرور والذهاب والحجى ، وأنه لا يفارق الزرع إلا بإذن قانونى .

وإذا تعدى الزنجى على مولاه وأولاده بالضرب فجزاؤه الإعدام .

وكذلك كان الأرقاء يُحرمون من العلم والتعليم وذلك أنهم غير جديرين به كالبيض .. وقد قضى ملك فرنسا سنة (١٧٦٧م) قضاء مبرماً مؤبداً على جميع ذوى الألوان وذرياتهم بألا يتمتعوا بالمزايا التى يتمتع بها الجنس الأبيض ، ولذلك قضى على حقوق المُلَوَّنِينَ بالحرمان من طلب العلم فى فرنسا ، واستمر الأمر على ذلك حتى ثورة ١٨٤٨ م بفرنسا ، التى أعقبها العمل على إبطال الاسترقاق واستمرت حالة الاضطهاد للسود فى أمريكا حتى الحرب الأمريكية الطويلة ابتداء من سنة (١٨٦٢م) فأخذ حال ذوى الألوان بالتحسن ، لكنه لم يصل إلى درجة السادة البيض حتى الآن^(١) .

وما تزال التفرقة العنصرية قائمة حتى الآن فى جنوب افريقيا ومايزال الزنوج يعانون من نظرة البيض إليهم فى أمريكا حتى أيامنا هذه .. فما أحوج العالم المضطرب القائم على التفريق بين الناس على أساس القوم أو الوطن أو أتباع الحزب المتسلط الواحد إلى هذا العدل . وإن بلاد المسلمين لتفتقر إلى جهود الدعاة حتى يعيدوا إليها راية العدل والمساواة خفاقة وارقة الظلال .

(١) نظام النفقات فى الشريعة الإسلامية : ص ١٠٢-١٠٣ .

الفصل الثاني

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام

- ١ - المبحث الأول :
مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس البشرية
- ٢ - المبحث الثاني :
صور من مكارم الأخلاق
- ٣ - المبحث الثالث :
صور من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة

المبحث الأول

مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس البشرية

تحديد مفهوم الأخلاق :

في اللغة : جاءت كلمة « الخُلُق » بمعنى السَّجِيَّة والطَّع والمُرُوءة ، والدِّين ، والخِلَقة بمعنى الفِطْرَة ^(١) .

وفي لسان العرب : « الخُلُق » الطبيعةُ وجمعها أخلاق ، وحقيقته أنه وَصَفَ لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه ، وأوصافها ومعانيها ، ولهما أوصاف حسنة وقيحة ^(٢) .

ومن هذا العَرَض اللُّغوي لمفهوم الأخلاق يمكننا استخلاص ثلاثة معان بارزة :

الأول : الخلق يدل على الصفات الطبيعية في خِلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة .

الثاني : تدل الأخلاق أيضاً على الصفات التي اكتسبت وأصبحت عادة في السلوك ، وَمِنْ ثَمَّ تصبح وكأنها خُلقت مع طبيعته ، أو تصبح طبيعة ثانية .

(١) القاموس المحيط : « كلمة الخلق » .

(٢) لسان العرب : « كلمة الخلق » .

الثالث : أن للأخلاق جانبين : جانباً نفسياً باطنياً ، وجانباً سلوكياً ظاهرياً^(١)

وقد تعددت آراء الفلاسفة حول تحديد الأخلاق ومدلولها ، وبهنا هنا مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام .

الإنسان في نظر الإسلام خلق من مادة وروح ، وهو يدعو إلى الإيمان بوجود حقائق روحية وأخرى غير روحية وثالثة مادية وروحية معاً .
وحقيقة الإنسان الروحية ترجع إلى أن فيه نفخة إلهية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ سورة الحجر / ٢٩ .

وحقيقة مادية ترجع إلى تراب الأرض أو طينها الذي بدأ خلق الإنسان منه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ٧ ﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ٨ ﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة / ٧-٩ .
ولذلك فإن الإسلام يعتمد في التنظيم الأخلاقي في الحياة الإنسانية على جانبي الروح والمادة في آن واحد^(٢) .

ويزداد الأمر وضوحاً في فصل : طبيعة مزدوجة للأستاذ محمد قطب إذ يقول :^(٣)

الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد : عضلاته ووشائجه وأعضائه وأحشائه والمعلم

(١) انظر : كتاب التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد بالجن - مكتبة الخانجي بمصر - الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق : (ص ٧٣-٧٤) .

(٣) انظر دراسات في النفس الإنسانية : الأستاذ محمد قطب دار الشروق ١٤٠٧ هـ - ص

يقول : إن جسم الإنسان يتكون من ذات العناصر التى يتكون منها طين الأرض .

وتتمثل كذلك فى مطالب الجسد وألوان نشاطه . فاعلم يقول : إن الجوع والعطش أمران يرجعان إلى التركيب البيولوجى للجسم ، وكذلك النشاط الجنسى وأنواع النشاط الجسمى الأخرى التى يشترك فيها الإنسان مع الحيوان من حيث الدافع ، وإن لم يتماثلا فى الصورة التى يتخذها النشاط ولا الغاية التى يصل إليها .

والشهوات كلها أو الدوافع الفطرية أو القوة الحيوية للإنسان هى نشاط جثمانى ، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية بحيث تتعطل أو تزول لو أُزيل العضو الذى يقوم بها أو العُدّة التى تبعث نشاطها .

ونفخة من رُوح الله : تتمثل فى الجانب الروحى للإنسان ، تتمثل فى الوعى والإدراك والإرادة ، وفى كل القيم والمعنويات التى يمارسها الإنسان . ويظهر هذان الجانبان فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ۖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سٰجِدِينَ ۝ (٧٢) ۝ (١) ۝ ﴾

فالخير والبرّ والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمُثل العليا والعمل على تحقيقها فى واقع الحياة .. كل ذلك نشاط روحى أو نشاط قائم على قاعدة روحية وهو مثلها أمر معنوى لا تدركه الحواس ، ولكن تُدرك آثاره الظاهرة فى الواقع المحسوس .

وهذان اللونان من النشاط البشرى حقيقة واضحة مشهودة^(٢) .

(١) سورة ص : (٧١-٧٢) .

(٢) طبيعة مزدوجة : (ص ٤٣ - ٤٤) .

والذى يهنا هنا أن نقرر وجود هذين اللونين من النشاط في كيان الإنسان كمظهر من مظاهر الازدواج في طبيعته . وهذا الكيان مع ازدواجه ليس مكوناً من عنصرين منفصلين يعمل كل منهما وحده في اتجاه .

فالعنصران مختلطان ممتزجان مترابطان يتكون منهما كيان مُوَحَّد مختلط الصفات ، أو مزدوج الصفات .

وتلك حقيقة كبرى في الكيان البشرى ، تنبنى عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة^(١)

إلا أن النظم التي لا تؤمن بوحدة النفس البشرية وامتزاج عنصرها الكبيرين انحرفت انحرافات خطيرة تؤدي إلى إحدى نتيجتين : إما كُتبت الجسد وإما كُتبت الروح .

ثم تتعرج في انحرافات تفصيلية كثيرة تندرج تحت واحد من هذين الاختلالين الرئيسيين .

هنالك نظم أهملت الجسد واحتقرته ونبدته ، وكُتبت نوازعه الفطرية .. فنشأ من ذلك اختلال في داخل النفس واختلال في الحياة ، فرانت السلبية على النفوس ، وتأخر المجتمع وانحسر عن التقدم والانطلاق ، شأن الهندوكية والبوذية وما نحا نحوهما من الديانات والفلسفات والعقائد^(٢) .

وهنالك نظم فصلت بين القيم الروحية والمادية ، فأهملت الروح ونبذت كل ما يتصل بها من قيم ، فنشطت نشاطاً جثماً في عالم المادة وعالم الجسد ، ولكنها لفقرها الروحي انقلبت تتقاتل وتتصارع ، فلم تعد تعرف الراحة ولا السلام .

(١-٢) المرجع السابق : ص ٤٦-٤٧ ، ص ٦٢

لقد كتبت المادية الأوربية الروح لتعلى من الإنتاج المادى والمتاع
الحسى والجسدى ، فوصلت إلى ما يشبه الحيوانية فى صلات الناس بعضهم
ببعض : من إستعمار واستعباد واستغلال وهبوط خلقى وروحى فى أمور
الجنس خاصة .. حيوانية لا تليق بالإنسان .

ثم إن أوربا المادية هى التى فصلت بين القيم المختلفة : فأقامت السياسة
والاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية ، وشؤون الدنيا بمعزل عن الآخرة -
وشؤون الجنس بمعزل عن الأخلاق .

وكان التصادم بين هذه القيم المقطوعة من جذورها المشتركة ،
والصراع المدمر العنيف ، فوصلت حوادث الجنون والانتحار وضغط الدم
والأمراض العصبية والنفسية إلى درجة لا مثيل لها فى التاريخ^(١) .
ويقول الدكتور الكسيس كارل فى كتابه : تأملات فى سلوك
الإنسان^(٢) .

« ومن الغريب أن الإنسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية
كل عامل نفسى « روحى » ، وبنى لنفسه وسطاً مادياً بحتاً ، غير أن هذا
العالم لا يلائمه قط ، بل نراه يصاب فيه بالانهيار .

ومن أجل ذلك يجب على البشرية المتحضرة أن تعود إلى بناء المعابد فى
ذلك العالم الفاخر الصارم .. فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط فى
الضييق بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسى
بطابعه » .

(١) دراسات فى النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٦٣

(٢) تأملات فى سلوك الإنسان : ص ١٧٣ / عن كتاب التربية الأخلاقية : د مقداد

الخير والشر :

الخير فطرى فى النفس البشرية ، وتشير آيات القرآن الكريم إلى أن النفس الإنسانية قد تُلْقَتْ فى تكوينها الأولى الإحساس بالخير وبالشر قال تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) .

وكما أن الإنسان قد وهب مَلَكَه اللغة والحواس الظاهرة فإنه زُوِّدَ أيضاً ببصيرة أخلاقية :

﴿ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ (٢) .

ولقد هُدى الإنسان طريقى الفضيلة والرذيلة :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٣) .

فالنفس أُمارة بالسوء ، ولكن الإنسان قادر على أن يحكم أهواءه :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٤) .

وإذا لم يكن كل الناس يمارسون هذا التأثير على أنفسهم فإن منهم من يفعلُه بتوفيق الله له ، وهو ما قرَّره رسول الله ﷺ فى قوله : « إذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه » (٥) .

(١) سورة الشمس (٧-٨) .

(٢) سورة القيامة : (١٤) .

(٣) سورة البلد : (٨-١٠) .

(٤) سورة النازعات : (٤٠) .

(٥) الديلمى فى مسند الفردوس ، صحيح من طريق أم سلمة ؓ ذكره السيوطى فى الجامع

الصغير ١٧/١ هـ .

وإن الأنفس الكبيرة تثق بفضل الله العلى أكثر مما تثق بقواها الخاصة ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ سورة يوسف : ٣٣
هذا ما قاله نبي الله يوسف عليه السلام ، وهو يصارع الكيد والإغراء (١) .

فالإنسان المؤمن يلجأ إلى ربه ويردّد قوله تعالى :
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ سورة الناس / ١-٤ .

أما الذين هم بعكس ذلك فقد سدوا آذانهم عن النصيحة ، وإن الله يذرهم في طغيانهم وعماهم :

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ عِثْرًا يُعْثِرْهُ نَفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ مُقِرٌّ﴾ سورة الزخرف ٣٦
﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنفال : ٢٣ .

وموجز القول : إن الله لا يضل إلا الأشرار ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة : ٢٦

﴿ويهدى إليه من ينيب﴾ غافر : ١٣ (٢) .

والواقع : إن الإنسان يكون خيراً تارة وشريراً تارة .

خيراً حين تحكم الروح هذا المزاج ، وشريراً حين يحكم الجسد مزاجه المجتمع المترابط .

(١) انظر : دستور الأخلاق في القرآن : د. محمد عبدالله دراز ص ٢٧ مؤسسة الرسالة

- دار البحوث العلمية ، ط ٣ سنة ١٤٠٠ هـ

(٢) دستور الأخلاق في القرآن : ص ٢١٧ ، ٢١٨

وليس هذا حُكماً تَعَسُفِيّاً مفروضاً على الإنسان من خارج كيانه ، وإنما هو الحكم الذى يتمشى مع حقيقة الفطرة ، ومع النشأة التاريخية للإنسان .

فالخير والشر يصبحان بذلك ذوى مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يتحد فيهما الإنسان .

حين يحكم الجسد هذا المزاج المجتمع المترابط فما الذى يحدث ؟ إنه لا يلغى وجود الروح ولكنه يطمس عليها بعنامة الطين فتختنق وتكبت إشعاعاتها التى تمنح الطين خفة وشفافية وانطلاقاً^(١) .

وفى ضوء ذلك يمكن تحديد مفهوم الأخلاق فى نظر الإسلام بأن الأخلاق :

هى المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنسانى ، والتى يحددها الروحى لتنظيم حياة الإنسان ، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده فى هذا العالم على أكمل وجه^(٢) .

فرويد والدراسات النفسية الحديثة :

إلا أن بعض هذه الدراسات اعتمد على مبدأ خاطيء منحرف شوّه فيه النظرة إلى إنسانية الإنسان .

فالمدرسة السلوكية مثلاً تقوم على مبدأ حيوانية الإنسان وماديته ، وتمثل أفكارها فى إنكار الروح إنكار استقلالية العقل ، وتؤمن بالجسد وحده ، وتعتبر السلوك البشرى بأكمله أفعالاً شرطية منعكسة لا غير^(٣) .

(١) دراسات فى النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٣٣٣

(٢) التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مفداد ياجن ص ٧٥

(٣) العلمانية : الفصل الرابع ص ٣٩٩ ، د. سفر الخوالى - جامعة أم القرى ١٤٠٢ هـ .

وقد كان لهذه النظرية أسوأ الأثر في التطبيق الواقعي فقد استغلها الهدامون لنفي الفطرة وإفقار القيم الخلقية المجردة .

وأسوأ الدراسات تلك التي قام بها فرويد ومدرسة التحليل النفسي .

فقد أعطى فرويد صورة مُزوّرة للنفس الإنسانية خلاصتها : « أن الكيان الحقيقي للإنسان هو الطاقة البهيمية البحتة ، وأن كل تعديل لهذه الطاقة أو تشكيل أو تهذيب لا يدخل في هذا الكيان الحقيقي .

ولم يكتف بهذا التفسير الحيواني البحت .. بل زاد على ذلك أن أعطى هذا الكيان الحيواني لوناً جنسياً صارخاً ، فلم يتركه حتى كالحَيوان الحقيقي يأكل بلذة الأكل ويشرب بلذة الشرب . ويصارع بدافع الصراع ، ثم يؤدي نشاطه الجنسي بلذة الجنس .. وإنما جعله يأكل ويشرب ويتحرك ويصارع .. كل ذلك بلذة الجنس إضافة إلى النشاط الجنسي المتعارف على أنه نشاط جنسي !!^(١)

لقد أنفق فرويد سنوات من عمره ليثبت أنه ليس هناك إلا أحد طريقين اثنين : إما انطلاق الطاقة الشهوية - الجنسية في أساسها - انطلاقاً حراً أى حيوانياً لا شذوذ فيه !

وإما الكبت المدمر للأعصاب المبدد للطاقات المفسد للحياة وليس هناك طريق ثالث ...!

أما عملية الضبط فلم يشر إليها فرويد ، وليس في عرّفه ضوابط وكل شيء في عرّفه كوابت ضارة مفسدة كريمة^(٢) .

لقد عبّرت مؤلفات فرويد جميعها عن يهوديته ، ويظهر ذلك في التدنيس والتلوّث المتعمدين للجنس البشري . وهي ظاهرة بارزة في التوراة

(١-٢) دراسات في النفس الإنسانية : الأستاذ محمد قطب (ص ٢٠ ، ص ٢٠٨)

المخرقة ، كما تتجلى في الإفساد المتعمد للأخلاق والتآمر الخبيث على القيم الإنسانية وهما مضمون وفحوى التَّلْمُود^(١) .

وقد تغلغل الفكر المادى فى النفوس والنزعة الحيوانية المنفلتة ، أصبحت هى الصبغة العامة للحياة والثورة الصناعية وما صاحبها من تغيير فى البنية الاجتماعية ، وتفكك فى حياة الأسرة .

كل ذلك هيا الجو للهدم الأخلاقى والعقائدى . ثم كانت الحروب الإقليمية والعالمية (الأولى) فقوضت دعائم المجتمع الأوربى وأفقدته الثقة فى كل مبادئه ومعتقداته ونشرت الرعب والذعر فى القلوب وحطمت كل الأعراف والقوانين والأخلاقيات^(٢) .

وليس صحيحاً ما قاله فرويد وأصحابه حول الغرائز والدوافع إن كل ما فى الطبيعة الإنسانية من غرائز ودوافع لا يمكن أن تعد فى حد ذاتها شراً ، بل يمكن أن تعد خيراً بحكم ضرورتها لدوام الحياة الإنسانية ، وبحكم الغايات التى خلقت من أجل تحقيقها .

إن هذه الطبيعة بما فيها من ميول ودوافع مختلفة خلقت من أجل الخير ، وتصبح خيرة إذا استخدمت فى الخير . والشر يأتى من سوء استخدامها فى الغايات التى لم تخلق من أجلها ، أو يأتى الشر نتيجة الجهل بها ، وبعدم معرفة طريقة استخدامها للاهتمام الزائد ببعض الميول والدوافع أكثر من غيرها أو إهمال بعضها تماماً وتجاهلها .

عندئذ تطغى بعض الدوافع على الأخرى وتتحكم فى الطبيعة حسب هواها ، ولهذا يجب إعطاء كل دافع حقه .

(١) انظر : الكثر المرصود فى قواعد التلمود ، دوهلنج وزميله ترجمة يوسف حنا نصر الله

- بيروت نقلاً عن العلمانية .

(٢) العلمانية : الشيخ سفر الحوالى ص ٤٠٢-٤٠٣ .

ومن هنا نصح الإسلام بإعطاء كل ذى حق حقه من هذه الدوافع
أو الحاجات الإنسانية الأساسية ، ووضع تشريعاً لذلك .

يقول الرسول ﷺ في هذا الصدد وهو ينصح عبدالله بن عمرو بن
العاص - رضى الله عنهما - ، عندما علم أنه انقطع للعبادة
« يا عبدالله ألم أُخَبِّرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَلَا
تَفْعَلْ ، صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَتَمْ ، فَإِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنْ لَعَيْنِكَ عَلَيْكَ
حَقًّا ، وَإِنْ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » (١) .

وجاء في حديث آخر : « إِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ
حَقًّا ، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ » (٢) .

كما دعا الإسلام إلى الاعتدال في كل الأعمال والتصرفات (٣)
﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤) .

القيم العليا :

إن القيم العليا وثيقة الصلة بالجانب الروحي في الإنسان وهى انبثاق
طبيعى لهذا الجانب .. وهى التحقيق الواقعى له في كيان الإنسان .. ومن ثم
فهى أصيلة في أعماق هذا الكيان .

ومن أين تأت أحلام البطولة وأحلام الكمال ؟ وإحساس الإنسان
بالجمال ؟

(١) فتح البارى : كتاب الصوم ١٢١/٥ ، ط الباي الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٢) فتح البارى : ١٢٨/٥ ط الباي الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية : مقدار يالجن ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ وانظر : دراسات في

النفس الإنسانية (الدوافع والضوابط من ص ١٥٧ : ٢١٠) .

(٤) سورة الأعراف : (٣١) .

فأحلام البطولة تستهوى الطفل الصغير كما تستهوى الإنسان الراشد ،
وقد كانت تستهوى البشرية في طفولتها وما تزال تستهوى البشرية اليوم ،
وإن اختلفت المقاييس من عمر لعمر ومن عصر لعصر ..

والبطل ليس شجاعاً فحسب ، ولكنه كذلك نبيل لا يستخدم
شجاعته في سفك الدماء والسرقة والنهب .. ولكن في إغاثة الملهوف وإعانة
الضعيف ، ودفع الظلم عن المظلوم وكلها قيم إنسانية ، لأنها خاصة بعالم
الإنسان ولا وجود لها في عالم الحيوان^(١) .

إن القيم العليا جزء من كيان الإنسان الداخلي ، وهي ليست مفروضة
عليه من خارج نفسه .. إنها انبثاق ذاتي من كيان الإنسان .

ومع ذلك فهي في حاجة إلى معاونة من الخارج لكي تأخذ مجراها
الصحيح .. ولو لم تحدث هذه المعاونة الخارجية فهي عرضة لأن يتأخر نموها
في النفس أو ينحرف عن سواء السبيل^(٢) .

أهمية العقيدة وإرسال الرسل :

ومن أجل هذه الطبيعة البشرية ، أرسل الله الرسل عليهم الصلاة
والسلام ، ليكشفوا عن الدوافع الخيرة في الإنسان ويحذروا من نمو دوافع
الشر والاستماع إلى نزغات الشيطان . عن معاوية عن رسول الله ﷺ أنه
قال : « الْحَيِّرْ عَادَةً وَالشَّرَّ لَجَاجَةً . وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي
الدِّينِ »^(٣) .

(١-٢) دراسات في النفس الإنسانية : الأستاذ محمد قطب ، ص ٢٥٠-٢٥١ ، وص

١٢٦ .

(٣) رواه ابن ماجه في سننه من طريق هشام بن عمار ، رقم الحديث ٢٢١ ، وهو
صحيح ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٦٥١ .

فالخير عادة : أى أن المؤمن الثابت على مقتضى الإيمان والتقوى ينشر صدره للخير فيصير له عادة : « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » سورة الروم آية ٣٠ .

أما الشر فلا يدخل إلا بلحاجة الشيطان .

إن الله لا يترك الإنسان وشأنه ، لقد خلقه وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير .

ولذلك يرسل الرسل يعرفونه المنهج الصحيح ويردّونه إليه ، والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية فى حياة البشرية وليست نافلة تستغنى عنها حين تريد .

والإنسان إما أن يهتدى بهذا الهدى الإلهى ، فيجعل لروحه قياد كيانه المتمترج المترابط ، ويكون فى وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة ، وإما أن يرفض الهدى ويجعل القيادة لجسمه وشهواته فهو كالأنعام بل هو أضل وهو متكس بروحه إلى أسفل وغارق بكيانه فى الطين^(١) .

فالإسلام وحده هو الذى يتمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله . والإسلام هو النظام الذى يربط بين كل ألوان النشاط البشرى ويوحد بينها فى الاتجاه

يبيح الطعام والشراب ثم يجعله باسم الله ، ويبيح النشاط الجنسى ، ولكنه يجعله كذلك باسم الله^(٢) .

(١) دراسات فى النفس الإنسانية : ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٤-٦٥ .

وبذلك يبقى المسلم متوازنًا مع الدوافع والضوابط مُهَيَّئًا لرسائله
الخيرية في الحياة ، داعيًا إلى الفضيلة متعلقًا بالقيم العليا ، فلا إفراط ولا
انحراف مادام يتمسك بقيم هذا الدين وتعاليمه .

المبحث الثاني صور من مكارم الأخلاق في الجاهلية والإسلام

- ١ - الكرم خلُق عربى أصيل
- ٢ - الشجاعة عند العرب
- ٣ - الغيرة والعفة
- ٤ - الوفاء عند العرب
- ٥ - الحرية وإباء الضئيم
- ٦ - حفظ الجوار
- ٧ - الحلم والأناة

تهيد :

كان للعادات عند العرب أثر عظيم في تنظيم حياتهم الاجتماعية ، بل كان للتقاليد سطوة تقوم مقام الدين والقانون ، ولا يستطيع الفرد أن يتخلى عنها .

فالعادات الاجتماعية متى رسخت جذورها ، وثبتت أركانها وعمقت أصولها ، اعتبرها الناس المنار الذي ينبغي أن يُهتدى به ، واعتبروا خلافها شذوذاً واستثناءً ، لأن الإقلاع عن ألف العادة عسير وشاق

لقد رسخت هذه العادات عند العرب بمرور الأزمنة ، وتشكلت لديهم قيم وأخلاق صارت تميزهم عن غيرهم « هذه الأخلاق ليست كسباً خالصاً وإنما هي وثيقة الصلة أو قائمة على ما أودع الله النفوس من فطر وسجاي وخلائق .. ومنها يصدر الخير والشر .

وهذا الإدراك جعلهم يُؤثرون ما يقى من الذُكر الحسن ، أدرك العرب صورتين للحياة : صورة الحياة المادية التي تذهب ولا تغلف وراءها غير أثر دارس ، وصورة الحياة الباقية التي تتمثل في مكارم الأخلاق ، وهي الحياة التي لا تمضى بمضى أصحابها ، وإنما تبقى بعدهم كأثر صالح يتحدث بذكرهم .

وقد بذل العرب جُهدهم بل وتنافسوا في تحقيق هذه الصورة الثانية التي لا يلحقها الفناء .. لذا طلبوا الموت من أجل الخلود بالذكر الطيب ، حتى رأيانهم يخافون المسبة والعار أكثر مما يخافون الموت «^(١) يقول عروة بن الورد :

أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة تحت صبر

(١) ملاح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية : محمد رشاد خليل ص ٦٢٤-٦٢٦

« والواقع أنه قد جاء الإسلام وفي العرب بعض المزايا الحميدة التي لا يمكن التنكر لها ، ولكن طابع الشر والظلم وفساد المعتقدات والتصورات كان يغطي على ذلك الخير فيهم ويغمره ، وكانوا بحاجة شديدة إلى من يبين لهم شر حياتهم وماذا يعملون ، فبعث الله فيهم رسوله الكريم وأمره أن ينشر وينذر ، ويتحمل في سبيل ذلك ضرباً من التعب والمجادلة والأذى .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن تلك المحاسن والمناقب أتت بها دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولما انتشرت الحنيفية في العرب نشرت بينهم هذه المكارم وأخذوها منها وبقيت بينهم بشكل أو بآخر .. وهذا ما نجده في قوله ﷺ : ^(١) « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ^(٢) .

كان المجتمع العربي يعج بخليل من هذه الأخلاق منها الصالح والطالح ، على أن القيم الرفيعة والخلال الحميدة انتشرت بين العرب في الجاهلية انتشاراً واسعاً عجت بها أشعارهم وسارت بها أخبارهم ، وكان من هذه الخلال ما اجتمعوا عليه أو كادوا وكان منها ما تحلى به الكثير منهم . فأما التي اجتمعوا عليها فأهمها ثلاث : الكرم والشجاعة والغيرة وأما التي تحلى بها الكثيرون منهم فمنها : العفة والترفع عن الدنايا ومنها : بغض اللؤم ومنها الصدق والوفاء ، والأمانة وحفظ السر .. ومنها الحلم والرزانة وغير ذلك .

على أن القوم ساد بينهم كثير من القيم الوضيعة والأخلاق الذميمة ، فكما كان منهم الأوفياء الصادقون كان منهم الغدارون واللؤماء والكذابون ، وكما كان منهم الأوفياء وكثمة السر وحفظه العهود كان منهم الخونة

(١) انظر أدب الحنيفية : رسالة ماجستير - جامعة أم القرى - حبيب بن حنش الزهراني

- ص ٣٨١-٣٨٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٣٨١/٢ ، والإمام مالك في الموطأ ص ٦٥١ ك الجامع وانظر مشكاة المصابيح ١٤١١/٣ برواية « بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

واللصوص والبخلاء ، وكما كان منهم الشجعان والفرسان كان منهم الجبناء والمخدولون .. الخ^(١) .

لقد انتشرت الأخلاق الكريمة في شعرهم انتشاراً واسعاً ، وصورتها دواوين شعرهم ، إذ تسابقوا فيها بمعتقد رسخ في أذهانهم .
وبقى العرب يتوارثونه جيلاً بعد جيل حتى بعث الله فيهم رسوله الأمين وهم على ذلك^(٢) .

وسوف أستعرض في المبحث الثاني هذا صوراً ونماذج من مكارم الأخلاق العربية كما صوّرها شِعْر القوم ثم أبين موقف الإسلام من هذه الأخلاق الحميدة وكيف شجعها وأكملها وربطها بتعاليمه السمحة وتصوراته الثابتة .

وفي المبحث الثالث أبين صوراً من العادات السيئة والأخلاق الذميمة ، تلك التي كانت في جاهلية العرب ومن ثمّ أوضح كيف شَجَب الإسلام هذه الانحرافات وكيف حَرَمَهَا ووضع لذلك الضوابط والقيود ، لينبني مجتمع الطهر والفضيلة والعفاف ، مجتمع الاستقرار والأخوة .

وخلال هذا العرض ، لا ننسى المقارنة بين نعمة الإسلام وقممه السامقة ، وبين الجاهلية العربية ، وما انحدر إليه العرب والناس في جاهليتهم المعاصرة .

(١) رسالة المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي - رسالة دكتورة جامعة أم القرى عام

١٤٠٢ هـ - محمد الشبيخ محمود صيام / ص ٣٠٨-٣٠٩ ، ٤٠٥

(٢) انظر : أدب الحنيفية ص ٣٨١ .

١ - الكرم خُلُقٌ عربي أصيل :

تميّز العرب بإكرام الضيف ، وافتخروا بهذه الخلّة على الأمم ، وتناهوا بهذه المَكْرُمَة ، وسَطَرُوا ذلك في شعرهم وآثارهم .

فما الذى دفعهم للتمسك بهذه الفضيلة ؟ وما القيم الرفيعة التى جعلتهم يتمسكون بهذه السَّجِيَّة رغم قِلَّة ذات اليد حينًا والفقر والجذب حينًا آخر ؟

بواعث الكرم عند العرب :

لم تكن خَصْلَةٌ عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من جذب وإحمال ، فكثيرًا ما يذبح الغنى إبله فى سَبَيِّ القحط يُطعمها العشيرة ، كما أنه يذبح الإبل قرير العين لضيافته الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه^(١) .

كان العرب يعيشون فى بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوّال ، وكل منهم مُعَرَّض لأن ينفد زاده ، فهو يُقرى ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن ينزل عند غيره فى يوم ، فليس فى البادية ملجأ يلجأ الفرد إليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، فهى ملاجئ تعتبر قوارب النجاة .. فإذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة عَرَّض ضيفه للخطر وعرض حياته هو إلى ذلك الخطر ، والعُرف أن الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليال فإذا انتهت المدة سقط حق الضيافة ، إلا إذا جددها المضيف وزاد عليها^(٢) .

(١) العصر الجاهلى : د. شوق ضيف ، ص ٦٨ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : د. جواد على ، ٥٧٥/٤ .

على أن العرب كانوا يكرمون الضيف لكثرتهم بحسن الأخذوة
وطيب الشاء :

فهم ذوو أريحية تُسعد نفوسهم بمساعدة محتاج وإطعام جائع
وإغاثة الملهوف .. وكان المال في نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى كسب
الحامد .

نعم إنه وسيلة هامة من وسائل السيادة

يقول حاتم الطائي :^(١) .

يقولون لي أهلك مالك فاقصد وما كنت لولا ما تقولون سيداً
والعري ينكر البخل لأنه مُزِرٌ بأخلاق الرجال ، ويتناقض مع الفطرة
السليمة التي خلق الإنسان عليها ، البخل يضع من عوالم الصفات .

يقول عمرو بن الأهتم ، وقد دعا زوجته لأن تترك اللوم عن بذل
المال ، فهو يشفق على الحسب الرفيع ، والكرام يتقون الذم ببذل القِرَى ..
ثم يتطرق إلى ضيف طرده ليلاً ويبين لنا كيف رَحَّب به وكيف كان حسن
اللقاء^(٢) :

ذريني فإن البخل يأثم هيثم	لصالح أخلاق الرجال شروق
ذريني وحطّ في هواي فإنني	على الحسب الزاكي الرفيع شفيق
ومستببح بعد الهدوء دعوته	وقد حلّه من نجم الشتاء خُفوق
فقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً	فهذا صبحُ راهنٍ وصديق
وكل كريم يتقى الذم بالقِرَى	وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها	ولكن أخلاق الرجال تضيق

(١) ديوان حاتم ، طبعة بيروت ١٩٦٣ م ، ص ٨ .

(٢) الفضليات ، رقم (٢٣) ص ١٢٥ ، ط : دار المعارف

إن الشاعر يستقبل ضيفه بالترحاب والقرى ، فهو يتقى الذم والقالة ، إنه رَحْبُ الصدر ، حيث أن البلاد لا تضيق بأهلها ولكن الشح هو الذى يصور للناس أنها تضيق بهم .

لقد أصبح الكرم طبعاً من طباع العربى ، التى شبَّ عليها ، فقد ملك عليهم النفوس ، حتى أن أحدهم لا يستطيع أن يأكل طعامه منفرداً ، فها هو حاتم الطائى يوصى زوجته إذا صنعت له الطعام أن تطلب له ضيفاً ليشاركة فيه ، إنه يخشى اتهام الناس له بالبخل لو أكل وحيداً . يقول حاتم :
أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذى البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإنى لست آكله وحدى
أخاً طارقاً أو جار بيت فإتنى أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإنى لأعبدُ الضيف مادام ثاوياً ومافى إلا تلك من شيمة العبد

أين هذا من طباع الناس اليوم ، إذ ترى بعضهم قد لا يشاركه طعامه أحد معظم أيام السنة .. ولا تجد منزله مُهيّأ لاستقبال الضيوف .

ونلاحظ هنا اهتمام العربى بحسن الأُحدوثة فى حياته وبعد مماته وهذا ما نفر منه الإسلام ، وجعل الكرم الطبيعى يقصد به وجه الله أولاً وهو الأساس .

ويرى حاجب بن حبيب الأسدى أن الحمد يُشترى بالمال :^(١)
والمعطيان ابتغاء الحمد ما لهما والحمد لا يُشترى إلا بأثمان

(١) ديوان حاتم : ص ٤٣ ط بيروت ، ونسبها المبرد إلى قيس بن عاصم المنقرى فى كتابه الكامل : ٥٢٥/٢ ، ط ١٩٣٦ م .

(٢) المفضليات : رقم (١١١) ص ٣٧١ .

ولعل أصل الكرم قد أخذه العرب عن أبيهم إبراهيم عليه السلام ، ثم انخرفت الدوافع والمظاهر مع نسيانهم الديانة السماوية وقيمها الأصيلة .. فتحول الكرم لديهم إلى نوع من الإسراف وحب السمعة .

يذكر القرآن الكريم قصة النفر الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام وهو لا يعرف أنهم من الملائكة ، وقبل أن يسألهم عن حاجتهم ، قرأهم بعجل سمين :

﴿ فَرَأَى إِلَآ أَهْلَهُ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٦٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ سورة الذاريات : ٢٦-٢٧ .

إن الديانة السماوية تأمر بذلك الكرم خالصاً لوجه الله وتنتهى عن الإسراف والمبالغة الزائدة خلافاً لما صارت إليه أحوال أهل الجاهلية من حب الشهرة والإسراف في البذل « إن بقية هذه الملة قد صُرف عن وجهه وبُعِدَ عن مقاصده ، ولم تبق فيه إلا صور باهتة انخرفت عن مقاصد الحنيفية الأصيلة »^(١) .

ولما بعث الله نبيه إلى العرب ، وكانت دعوته تأخذ بدعامة مكارم الأخلاق ونشرها بعد سلامة العقيدة ونقاء التوحيد .

« لم يُفاجأ العربى بتغيرات كثيرة في ظاهر ما أُلِفَ إلا في القليل ، لأن التغير الجديد كان مُوجَّهاً إلى روح العقيدة الذى فسد ، لا إلى ظاهرها الذىبقى كثير من آثاره وأشكاله »^(١) كالشجاعة والغيرة وحسن الجوار وما تبقى من مكارم الأخلاق .

(١) الهجاء والمجآؤون في الجاهلية : د. محمد محمد حسين رحمه الله ص ١٠ ، ١٨١ - الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - دار النهضة العربية - بيروت .

مظاهر الكرم عند العرب : (١)

كان العرب يفرحون بالضيف إذا قدم ، بل بالغوا في الحفاوة به ،
وتفننوا في إكرامه وقراه ، وتلمسوا الأسباب التي تدخل على نفسه
السرور .

ومن ذلك بسط الوجه له ومضاحكته والترحيب به ساعة قدومه
حتى يأنس وينزل وهو مطمئن .

يقول عمرو بن الأهتم : (٢)

وضاحكته من قبل عِرْفَانِي اسْمَه لِيَأْنَسَ إِنِّي لِلْكَسِيرِ رَفِيقُ
بل كانوا يقدّمون له أشهى ما يملكون ، مع إيناسهم له قالوا : « تمام
الضيافة الطلاقة عند أول وَهْلَةٍ وإطالة الحديث عند المؤاكلة » .

ولن يَتَلَهَّى العربي عن ضيفه ، حتى ولا بالزوجة والولد .

يقول عروة بن الورد : (٣)

فراشِي فراش الضيف والبيت بيته ولن يلهني عنه غزال مقنّع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجعُ
ويقول حاتم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً ومافى إلا تلك من شيمة العبد

ومن مظاهر الكرم العربى السخاء على الأرامل واليتامى والباءسين
وصلة الأرحام ، وإعطاء السائل والمحتاج .

(١) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الحوفى ص ٣١١ - ٣٢٢ ، والمعائد والقيم

في الشعر الجاهلى : ٣٠٩ - ٣٢٨ .

(٢) الأشباه والنظائر : ١٠٠/٢ .

(٣) الديوان ص ١٠١ .

ومن ذلك أيضاً مفاداة الأسرى وإكرامهم والمُنْ عليهم وكان هذا الموضوع يأخذ من أموال الكرماء نصيباً كبيراً

يقول المُسَيَّب بن عَلس :^(١)

وخير الناس قد علمت معدّ لضيف أو لجار أو لعاني

ويقول حاتم :^(٢)

إذا كان بعض المال ربّاً لأهله فإني بحمد الله مالى معبد
يفك به العانى ويؤكل طيباً ويُعطى إذا مَنَّ البخيل المصدّر

ومن مظاهر كرمهم الذى تفاخروا به : حمل ديات القتلى لإحلال
الوثام بين القبائل المتناحرة .

ومن تحمل ديات القتلى جد حسان بن ثابت - رضى الله عنه - وهو
المنذر بن حَرَام الخزرجى ، فقد احتمل دماء الأوس عقب الحرب التى
دارت بينهم وبين قومه الخزرج فى يوم سُميحة الشهير ، وكان قد أهدر دماء
قومه وحمل دماء خصمه^(٣) .

ومن تحمل ديات القتلى هَرَم بن سِنَان والحارث بن عوف ممدوحا
زهير بن أبى سُلَمى فى حرب دَاجِس والغبراء .

وكان إكرام الجار مجال فخرهم ، وخاصة إذا كان الجار غريباً .

(١) معجم الشعراء : ص ٣٠٠ . العاني : الأسير .

(٢) ديوان حاتم : ص ٣٥ (دار صادر) .

(٣) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ٢١٦/١ .

ويوم سُميحة : من الأيام الشهيرة فى القتال بين الأوس والخزرج فى الجاهلية .

يقول السَّمَوِيُّ (١):

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ
وَمَا ضَرُّنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ
وَكَانَ الْعَرَبِيُّ خَيْرَ رَفِيقٍ لِّصَاحِبِ الطَّرِيقِ ، لَا يَخْتَصُونَ أَنْفُسَهُمْ دُونَهُ
بِمَالٍ أَوْ بظَهَرٍ أَوْ بِمَاءٍ .

يقول حاتم الطَّائِي (٢):

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زَمَامِهَا لَتَشْرَبَ مَا فِي الْخَوْضِ قَبْلَ الرِّكَاثِ
فَمَا أَنَا بِالطَّائِي حَقِيقَةَ رَحْلِهَا لِأَرْكَبَهَا خَفَاءً وَأَتْرُكُ صَاحِبِي
وَقَدْ اشْتَهَرَ عَدَدٌ مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، سُمُّوا « أَزْوَادَ
الرَّكْبِ » وَهُمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ قَرِيشَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ أَزْوَادُ الرِّكْبِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا
سَافَرُوا لَمْ يَتَزَوَّدُوا مَعَهُمْ أَحَدٌ ، وَلَمْ يُسَمَّ بِذَلِكَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ ، وَهُمْ مَسَافِرُ
ابْنِ أُمَيٍّ عَمْرُو بْنُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَأَبُو أُمَيَّةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ،
وَزَرْعَةَ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ (٣) .

وَمِنْ صَدَقَ تَطْبِيقُهُمْ لِهَذَا الْخَلْقِ تَعْمِيمُ الدَّعْوَةِ إِلَى الطَّعَامِ لِيَحْضُرَهُ
كُلُّ مَنْ لَهُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، وَمِنْهَا بَغْضُهُمْ لِلطَّعَامِ إِذَا لَمْ يَشَارِكْهُمْ فِيهِ طَاعِمٌ مِنَ
الْجِيرَانِ أَوْ الضُّيْفَانِ - كَمَا مَرَّ مَعَنَا آنفًا - وَمِنْ شُؤْنِهِمُ الْعَجِيبَةِ فِي كَرَمِهِمْ ،
حُبُّهُمْ لِلْكَلاِبِ بِسَبَبِ مَا يَجْلِبُهُ نَبَاحُهَا لِلْأَضْيَافِ وَضَلَالِ الطَّرِيقِ مِنَ
الْمَسَافِرِينَ .

(١) ديوان عروة والسَّمَوِيُّ : ص ٩٠ .

(٢) ديوان حاتم : ص ٢٩ / ط بيروت .

(٣) بلوغ الأَرَبِ : الأَلُوسِي : ٩١/١ - ٩٢ .

يقول مالك بن حريم الحمذاني: (١)

وثانية: أن لا أصمتَ كلنا إذا نزل الأضياف حرصاً لنودعا
وكانوا يكونون عن كرم الرجل نجين كلبه ، لأنه ينبع بالليل فإذا ما
رأى الغريب كف لأنه اعتاد رؤية الغرباء .

ومن مظاهر كرمهم العجيبة هداية الضيوف ليلاً بالنار التي يوقدونها
لإنضاج الطعام ، أو للاستدفاء ، وكانوا يوقدونها على المرتفعات لتكون أبين
وأوضح (٢) .

يقول حاتم الطائي لغلامه في ليلة باردة الريح : أوقد النار ليرى نارك
من يمر ، وإن جاءنا ضيف فانت حر .
أوقد فإن الليل ليلٌ قَرَّ والريح ياغلام ريح صرَّ (٣)
والعرب كرماء في كل وقت ، ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجذبت
الأرض وقت الشتاء . قالت الخنساء: (٤)
وإن صخرًا لوألينا وسنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار
وقد أكثروا من الفخر بالكرم وأكثروا من المدح به إذا هبت ريح
الشمال ، لأنها لا تهب إلا في الجذب .

قالت بنت لبيد بن ربيعة العامري: (٥)

إذا هبت رياح أوى عَقِيلَ ذَكْرُنَا عند هبتها الوليدا
أَشَمَّ الأنف أبيض غَبْشَمِيًّا أعان على مروءته لبيدا

(١) الأصمعيات : ص ٦٤ .

(٢) الحياة العربية : الحوفي ، ص ٣١٦-٣١٨ ، وبلوغ الأرب : ٦/١

(٣) شعراء النصرانية : ص ١١٦ ، ط ٢ دار المشرق بيروت ، وبلوغ الأرب : ٧٨/١ .

(٤) ديوان الخنساء : ص ٥١ ، ط دار الأندلس ١٩٨١ م .

(٥) انظر بلوغ الأرب : ٢٩٢/١ الشعر والشعراء : ٢٧٦/١-٢٧٧ ، ط دار المعارف .

وكان لبید قد آلی فی الجاهلیة ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتی تسکن ، وألزم نفسه فی إسلامه بذلك . فخطب الولید بن عتبة الناس بالکوفة یوم صبا وقال :

إن أحاکم لیبدا آلی ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتی تسکن ، وهذا الیوم من آیامه فأعینوه ، وأنا أول من أعانه ، ونزل فبعث إلیه بمائة بکرة وکتب إلیه آیاتاً منها :

أرى الجزار یسحذ شفرته إذا هبت ریح أی عقیل
أشم الأنف أصد عامری طویل الباع کالسيف الصقیل
فلما أتاه الشعر قال لابنته أجیبه ، فقد رأیتنی وما أعیا بجواب
شاعر . فقالت آیاتاً منها الأبیات التي ذکرتها فی أول القصة .

أجود العرب : (١)

اشتهر کثیر من العرب بالجود والسخاء حتی ضرب بهم المثل فی ذلك . ومن هؤلاء :

حاتم الطائی :

قالوا فی المثل : أجود من حاتم ، وكان ابنه عدی قد أدرك الإسلام وأسلم .

وكان أول ما ظهر من جوده أن أباه خلّفه فی إبل له وهو غلام ، فمر علیه ثلاثة من شعراء العرب ، وهو لا یعرفهم ، فنحر لهم ثلاثة من الإبل ، ثم سأهم عن أسمائهم فعرف أنهم عبید بن الأبرص ، وبشر بن أی خازم ،

(١) انظر بلوغ الأرب : (١/٧٢-٩٢) .

والتابعة الذبياني وكانوا في طريقهم إلى النعمان بن المنذر ، عندها فَرَّقَ فيهم الإبل كلها .

ولما بلغ أباه ما فعل ، سأله : ما فعلتَ بالإبل ؟ قال : يأبُه ، طَوَّقْتُك مجد الدهر طَوَّقَ الحمامة ، وأخبره بما صنع فقال له أبوه : لا أساكنك أبداً ، قال حاتم : إذاً لا أبالي واعتزل أباه^(١) .

ولا شك أن هذا من الإسراف ومبالغات أهل الجاهلية وقد نهى الإسلام عن الإسراف وذمَّ المرففين .

ولقد أثر حاتم المحتاجين على نفسه وأولاده في سنة مجدية ، إذ ذبح فرسه إلى امرأة جاءت له ليلاً تشكو جوع أولادها ، ثم نادى في الحى ليشتوا اللحم ، بينما كان حاتم ملتفتاً بثوبه وماذاق قطعة مما ذبح ، في حين أن أطفاله كانوا قد باتوا ليلتهم تلك يتضاغون من الجوع^(٢) .

ومن جميل شعره في الكرم قوله وهو يخاطب زوجته :^(٣)

أماوى إن المال غايٍ ورائح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى	إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر
أماوى إني رُبُّ واحد أمه	أجرتُ فلا قتل عليه ولا أسرُ
وقد علم الأقسام لو أن حاتمًا	أراد ثراء المال كان له وفرُ
وما ضرَّ جارًا يابنة القوم فاعلمى	يجاورنى ألا يكون له ستر
بعينى عن جارات قومى غفلة	وفى السمع منى عن حديثهم وقرُ

(١) انظر الشعر والشعراء : ٢٤١/١ ط دار المعارف .

(٢) المرجع السابق : ٢٤٣/١ .

(٣) ديوان حاتم : ص ٥٠-٥١ ، والوَقَر : ذهاب السمع والصمم .

حقًا إنها لأبيات رائعة تصور مذهب حاتم في كرمه وأخلاقه وعفته
وغض البصر عن الجارات ، فهو عرى شهيم يفك الأسرى ويهين المال .
كان يحب مكارم الأخلاق ، كان يريد أمرًا فأدركه وهو الذكر
الحسن .

« أخرج أحمد في مسنده عن عدى بن حاتم قال : قلت ، يا رسول
الله ، إن أُنَى كان يصل الرحم ، ويفعل كذا وكذا قال : إنَّ أباك أراد أمرًا
فأدركه يعنى الذَّكَر .

وكانت سفانة ابنة حاتم ، قد أتت بها إلى رسول الله ﷺ ، فقالت :
يا محمد هلك الوالد وغاب الرَّافِد فإن رأيتَ أن تخلّى عني ولا تشمتَ بي
أحياء العرب ، فإن أُنَى سيد قومه ، كان يفك العاني ويخمي الدُّمار ..
ويطعم الطعام ويفشي السلام ، أنا ابنة حاتم طيء .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك
إسلاميًا لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم
الأخلاق » (١) .

وقال ابن الأعرابي : كان حاتم جَوَادًا يشبه جوده شعره كان أقسم بالله ،
لا يقتل واحد أمه ، وكان إذا أَهَلَ رجب عر في كل يوم عشرة من الإبل ،
وأطعم الناس واجتمعوا عليه (٢)

وكان ممن يُضرب بكرمهم المثل كعب بن مَامة الإيادي .

(١) بوارد الأصول للترمذي : ٢٢٩-٢٣٠ ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

(٢) بنوغ الأرب . (١/٧٢-٧٣) .

في جو الجهد والمشقة ، في الصحراء اللافتة حيث الصيف الحار
والعطش المهلك ، نجد جُوداً بالنفس حتى الموت .

ذلك ما كان من شأن كعب بن مامة إذ خرج في ركب منهم رجل
من النّير بن قاسط في بعض شهور الصيف ، فضلّوا الطريق وتضافوا
ماءهم : أي أن يُطرح في القُعب حصاة ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر
الحصاة ، ويشرب كل إنسان قدر ما يشرب صاحبه ، فقعدوا للشرب ،
فلما دار القُعب وانتهى إلى كعب أبصر الثمرى يحدد النظر إليه فآثره بنصيبه
من الماء ؟ وقال للساقى استق أخاك الثمرى ، فشرب الثمرى نصيب كعب
ذلك اليوم من الماء ، وفعل ذلك في اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث عندما
أرادوا الرحيل لم يكن بكعب قوة للنهوض ، ولما يئسوا منه خيلوا عليه بثوب
يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ففاض . فقال أبوه مامة يرثيه :
أو في على المنيّة كعبٌ ثم قيل له رُدْ إنك وراذ فما وردا
وفيه يقول القائل :

يجود بالنفس إذا ضنّ البحيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود^(١)

وقد أهلك كعب نفسه ، وهذا من غلو أهل الجاهلية في تصورهم
للكرم وبعض الفضائل ، والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ سورة البقرة : ١٩٥ .

وقد فضّله الجاحظ ورجّحه على حاتم الطائي في الجود ، ذلك لأن
حاتماً كان يجود بماله ، أما كعب فقد بذل النفس حتى أعْطَبَه الكرم .

(١) انظر بلوغ الأرب : ٨١/١ - ٨٢ .

وذكر أن من عادة كعب ، أنه كان إذا جاوره رجل قام له بكل ما يصلحه وغياله وحماه عمن يريد ، وإن هلك له بعير أو شاة أو عَبْد ، أخلف عليه ، وإن مات وداه وقد افتخرت به إيادو عُد من مفاخرها^(١) .

• ومن كرماء الجاهلية - وهم كثير - هَرَم بن سِنَان ، ذاك الذى كان يفرح ويتهلل عند العطاء .. كان من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم فى المعروف ، هو صاحب زهير وممدوحه ، والذى تحمل ديات القتلى بين عَبَس وذُبْيَان فى حرب داحِس والغبراء .

يقول زُهير بن ألى سُلَمى فيه :^(٢)

وأبيض قياض يده غمامة على معتفيه ما تُغْبُ فواضله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
أخو ثقة لا تُتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف الخمر نائله

ومن سارت بجوده الأمثال ، عبدالله بن جُدعان التيمي .

كان من مشاهير الأجواد بمكة ، وكانت له جَفَنَة يأكل منها الراكب وهو على ظهر البعير .

سقط فى هذه الجفنة صبي ففرق ومات . وابن جدعان هو ابن عم السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : يارسول الله إن ابن جُدعان كان يُطعم الطعام ، ويُقْرِى الضيف ، ويفعل المعروف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ قال ﷺ : إنه لم يَقُلْ يوماً ربَّ اغْفِرْ لى خطيئتى يومَ الدين .

كذا قاله السهيلي فى الروص الأثف^(٣) .

(١) الثعالبي : ثمار القلوب ص ١٢٢ ، عن جواد على ٥٧٨/٤ .

(٢) الشعر والشعراء : ص ١٥٠ .

(٣) بلوغ الأرب باختصار : ٨٩/١ .

والحديث عن أجواد العرب يطول ، وكنا قد أشرنا إلى مطاعيم
الريخ ، ومنهم كفاءة الشقي عم أي مخجن ، وليد ابن ربيعة ، كانوا إذا
هت الصبا أضعموا الناس وخصوا الصبا لأنها لا تهب إلا في جذب
ومنهم أزواد الركب وقد أشرنا إليهم فيما مضى^(١) .

هذا وإن هذه الصفة العظيمة ، تستحق الإعجاب ، إلا أن الكرم
الحق هو البذل بلا عوص ، ولا انتظار لمذح أو حسن الأحداث ، ولا خوفاً
من الذم والقالة .. وهذا ما دعا إليه الإسلام كما سنرى .

ولنا أن نتساءل الآن : هل كان كل عربي كريماً ؟ وهل ارتفع القوم
جميعاً في جاهليتهم إلى هذا المستوى الذي صوره شعرهم ؟ طبعاً لم يكونوا
جميعاً كذلك وإنما كان العرف السائد هو الكرم وحسن استقبال الضيف ،
ونادراً كان يقع الشح منهم ، ومن هنا : « يصور القرآن الكريم العرب
وفيهم آفة البخل المذمومة ويلح في ذم الطمع ، إذ ليس العرب جميعاً أجواداً
مُهينين للأموال مسرفين في ازدرائها »^(٢) .

ظاهرة البخل^(٣) :

إن شيوع الكرم في العرب ، وتقديرهم للكرم لا ينفي أن ظاهرة
البخل كانت عند بعضهم ، ولذلك فقد هجا الشعراء البخلاء ، ومن هؤلاء
ما عَبر به عروة بن الورد خصمه بالبخل واقتخر بالكرم إذ يقول^(٤) :

(١) بلوغ الأرب : (٩٤/١-٩٩) .

(٢) الخوف : الحياة العربية ص ٣٣٠ .

(٣) انظر . الحياة العربية في الشعر الجاهلي : ص ٣٢٤-٣٣٠ .

(٤) شعراء النصرانية : ص ٨٨٧ ، الطبعة الثانية .

إني امرؤ عافى إنائي شركةً وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمئت وأن ثرى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسموم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
ولذلك يهجو حاتم الطائي البخل والبخلاء إذ يقول :

ليت البخيل يراه الناس كلهم كما يراهم فلا يُقَرى إذا نزلا
إن البخيل إذا ما مات يتبعه سوء الثناء ويحوى الوارث الإيلا
وربما وصل الأمر ببعض الأشيخاء أن يطرد ضيفه ولا يخل من
ذلك .

يقول أحد بني تميم (١) :

وصاحب قلت له بُنْصَحَ قَمَ فارتحل قد ضاء ضوء الصبح
فقام يهتز اهتزاز الرمح
جوعاً وتعباً وأرقاً .

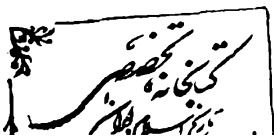
كان البخل من أشد ما يُهَجى به العري ، بعد أن ترسخت لديه القيم
الرفيعة ، روى أن الأعشى لما هجا علقمة بن علاثة بقوله (٢) :

تبيتون في المشتى ملأ بطونكم وجاراتكم غرثى بيتن خمائصا
ولما سمع علقمة بذلك رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم العنه إن كان
كاذباً ، أبحق نفعل هذا بخيرائنا ، ثم بكى وقال : ما هجاني بشيء هو أشد
على من هذا .

(١) المؤلف واختلف : ص ١٩٦ ، عن القيم والمعتقدات في الشعر الجاهل ص ٤١٢

(٢) ديوان الأعشى : ص ١٠٠ (طبعة ١٩٨٣ م) .

« عرني وخمائص : حائعات ضوامر البطون من الجوع »



هذا الذى بكى منه علقمة فى الجاهلية ، لا يتحرك له ضمير الجاهلية المعاصرة .. إذ كم من البشر يموتون فى المجاعات والأوبئة ، وأموال الأثرياء لا تجد لها مصرفاً ، بل تنفق فى سبيل الشهوات الهابطة على أن أكثر الشعر فى هذا الموضوع يتحدث عن شكاية الرجال من نسايتهم اللواتى يحاولن منعهم من البذل ، ويلمنهم على الإسراف ، فقد حاولت زوجة حاتم أن تُغِلَّ يده عن العطاء فعصاها ، لأن الكرم عادة راسخة عنده لا يستطيع أن يتخلى عنها . يقول^(١) :

وقائلةُ أَهْلَكَتْ بِالْجُودِ ما لَنَا : وَنَفْسَكَ حَتَّى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُهَا
فَقُلْتُ دَعْنِي إِنْما تَلِكْ عادَتِي لكل كريم عادة يستعيدها
ونجد الشاعر : حُطَّائِطُ بن يَغْفَرُ النهشلى يرد على زوجته التى زعمت أن جوده أهلكتهم بقوله^(٢) :

أرِني جواداً مات هزلاً لعلنى أرى ما ترين أو بخيلاً مُحَلِّداً
وها هى زوجة معاوية بن مالك العامرى تتهم زوجها بالسفه والضلال لما رأت الناس يقصدونه فقال لها : ليكن عملي ضلالاً فسأفعله دائماً لأنه عادة لى^(٣) :

قالت سمية :

قد غويتَ بأن رأيت حقاً تناوبَ مالنا ووفود
غىُّ لعمرِكَ لا أزال أعوده ما دام مالٌ عندنا موجودٌ

(١) الديوان : ص ٤٤ ط بيروت ١٩٦٣

(٢) الحماسة تحقيق العسيلان : ٣٥٧/٢

(٣) المفضليات : رقم (١٠٤) ص ٣٥٦ .

والمرأة عادة تعجب بالمال ينثر بين يديها ، وتسرع لذلك من زوجها
فتعانقه وتفديه ، وهذا ما يصوره أحيحة بن الجلاح ، عندما يردّ على
زوجته ، من أن الشهوات تتطلب بذل المال ، ولا قيمة للثراء إذا لم يُبذل في
المعروف (١) :

إذا ما جئتها قد بعث عذقاً	تعانق أو تقبل أو تفدى
أهنت المال في الشهوات حتى	أصارتني أسيفاً عبداً
فمن نال الغنى فليصطنعه	ضيعة ويجهد كل جهد

(١) الأصمعيات : رقم (٣٣) .

الإسلام والكرم

عرفنا أن الكرم خلق أصيل تجلّى عند العرب في مظاهر مختلفة ، وبدوافع متباينة ، مثل التعلق بخسن الأحداث ، وأنه وسيلة من وسائل السيادة ، إلى أن أصبح عندهم طبعاً ملازماً ملك عليهم نفوسهم ، واستهوى أفئدتهم .

ثم جاء الإسلام فأقر هذا الخلق العظيم ، وشجع على البذل والسخاء ، إلا أنه جعل إخلاص النية لرب العالمين هي الدافع لهذا الخلق ، ترتفع بمنزلة العمل الدنيوى البحت ، ليصبح عبادة مقبلة . قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾^(١)

وعاب القرآن من ينفق ماله رثاء الناس ، ونهى عن المَن والأذى قال تعالى : ﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۝٢٠ ﴾^(٢) .

فعلى قدر نقاء السريرة تكتب الحسنات - وحرارة الإخلاص إنما تنطفىء رويداً رويداً كلما هاجت في النفس نوازع الأثرة وحب الشاء

(١) سورة الإنسان : (٨-٩)

(٢) سورة البقرة : (٢٦٤)

والتطلع إلى الجاه وبُعد العيش والرغبة في العلو والافتخار ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يحب العمل النقي من الشوائب المكدره^(١) .

فالكرم صفة طيبة كانت في الجاهلية ، وارتضاها الإسلام بل حصن عليها ، ولكنها في الإسلام شيء مختلف في جوهره وإن تشابهت الصورة . فعندما كانت في الجاهلية عند كثير من الناس رياء ندد به الإسلام ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ . وأراد الإنفاق الخالص الذي يراد به وجه الله وليس للذكر الذي تتحدث به الركبان ﴿ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ .

لقد غيّرت العقيدة لدى المسلمين جوانب الحياة كلها .. لقد حصل التغير الهائل في نفوس الجيل الأول ، حتى لكأنها نفوس جديدة لا عهد لهم بها من قبل ...

وحتى الأشياء القليلة التي بقيت من حياة الجاهلية وارتضاها الإسلام ، لم تكن هي بحال تلك التي كانت في الجاهلية ، إنما أصبحت شيئاً مختلفاً تماماً في جوهره وإن تشابهت الصورة إنها شيء ولد ميلاداً جديداً في الإسلام^(٢) .

حث الإسلام على البذل ، إلا أنه نهى عن الإسراف والتبذير ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾^(٣) .

(١) انظر خلق المسلم : الشيخ محمد الغزالي ص ١١١-١١٨

(٢) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ، ص ١٦٦-١٦٧

(٣) سورة الإسراء : (٢٦-٢٧)

ومن هنا كان توزيع حاتم الطائي الإبل الثلاثمائة على الشعراء الثلاثة إسرافاً وتبذيراً ولا يعد في نظر الإسلام كرمًا وجوداً .

كما أن الإسلام نقر من الشَّحِّ وكثر الأموال ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
فقد روى البخارى في صحيحه : « ... ولا صاحب كنز لا يفعل
فيه حقّه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاتحاً فاه ، فإذا قرّ منه
سمع مَنْ يناديه : خذ كنزك الذى حَبَّأتْ ؛ فأنا عنه غنى ، فإذا رأى أنه
لا بُدَّ له منه سلك يده فى فمه فيقضئها فضمَّ الفحل »^(١) .

فهذه الأموال المستخفية فى الخزائن ، المحتبىء فيها حق المسكين
والبائس ، هى شرّ جسيم على صاحبها فى الدنيا والآخرة ، إنها أشبه بالثعابين
الكامنة فى جحورها كأنها رصيد الأذى للناس ، بل إنها تتحول إلى حيات
فعلاً قد احتدت أنيابها تطارد صاحبها لتقضئ يده التى غلبها الشح^(٢) .

إن الإسلام ينظر إلى المال على أنه وسيلة ، يقضى بها الإنسان حاجاته
الأساسية ، ولا ينبغى التعلق به ليكون غاية بحد ذاته .

يقول الرسول ﷺ : « يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك إلا ما
أكلت فافنيئ أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت »^(٣) .

فالمسلم كريم النفس يؤثر إخوانه على نفسه ، ويقدم من كسبه
الحلال الطيب إلى إخوانه الأتقياء ، وهو بصير بمواطن الكرم ودواعيه ،

(٣) سورة التوبة/آية ٣٤

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٢) خلق المسلم : الغزالي ص ٢٠٣

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم/٢٩٥٨ كتاب الزهد ، والترمذى/٢٣٤٣ ، والنسائى

٢٣٨/٦ ، والمسند ٢٤/٤ يظر شرح السنة ج ٢٥٨/١٤ .

لا يفرق أمواله تذبذباً على من لا يستحقونها ، ولا يحتفى إلا بإخوانه وأصدقائه المؤمنين الأتقياء ، ولا يرضى أن يكون بقرة حلوبة لسفلة القوم من الملحددين الطغاه اتقاء شرهم .

إن المسلم الواعى كريم ، وكرمه فى محله ، ذلك أن الكرم خلق إسلامى أصيل يجمل صاحبه ويسمى به^(١) .

وهذا ما يصوره الحديث الشريف : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ »^(٢) .

إكرام الضيف فى الإسلام

إكرام الضيف واجب شرعى ، وقد جعل الإسلام للضيافة آداباً رفيعة ، قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ »^(٣) .

ومن الآداب التى علّمنا إياها هذا الدين العظيم اللبقة وتقدير حالة صاحب المنزل المضيف ، فلا نخرجه أبداً ، قال عليه الصلاة والسلام^(٤) : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ ؟ قَالَ : يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يُقْرِبُهُ بِهِ » « يُؤْثِمُهُ : يُوَقِّعُهُ فِي الْإِثْمِ » .

(١) انظر شخصية المسلم : د. محمد على الهاشمى ، ط ١٩٨٣ م ، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ، ص ٢١٣-٢١٤

(٢) رواه أبو داود والترمذى وأحمد والحديث حسن ينظر صحيح الجامع الصغير ص

١٢٢٦ ج ٢

(٣) صحيح البخارى : كتاب الأدب ، وفتح البارى . ١٤٤١/١٠

(٤) مسلم مع الشرح : ٣١/١٢

وقد أقر الإسلام فترة الضيافة - ثلاثة أيام - وقد كانت عند عرب الجاهلية هكذا وربط إكرام الضيف بالإيمان قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه » (١)

الجود والعطاء عند سلف هذه الأمة

لقد ترجم الكرم في تعاليم هذا الدين إلى واقع عملي رفيع جوداً وبذلاً كمن لا يغشى الفقر ، كيف لا ؟ وقد هانت الدنيا في نفوسهم ، فارتفعت بهم إلى آفاق الإنسانية حضارة وعزة .

وقد تمثل هذا الجود فيمن اصطفى الله من عباده كالنبيين والصديقين .

ومن طريف ما روى من قصة ضيف إبراهيم عليه السلام أنه « لما قَرَّب إليهم العجل قالوا : إنا لا نأكل طعاماً إلا بشفته . قال إبراهيم : إنه له ثمناً . قالوا : وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره . قال : فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حَقَّ لهذا أن يتخذَه رَبُّهُ خَلِيلاً » (٢)

وأما رسول الله ﷺ ، فقد كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة ، ولذا فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ، ولا وليدة ، وترك ذِرْعَه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير » (٣) .

(١) مسلم مع الشرح : ٣٠/٢ .

(٢) انظر : فتح الباري : كتاب أحاديث الأنبياء : ٤١١/٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٠٠/١ ، والبحاري باب بدء الوحي .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان .. وكان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » (١) .

وأخرج أحمد وأبو يعلى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وهو ساهم الوجه ، فخشيت ذلك من وَجَع فقلت : يا رسول الله مالك ساهم الوجه ؟ فقال : « من أجل الدنانير السبعة التي أتينا بها أمس ، أمسينا وهي في حُصم الفراش » . وفي رواية : « أتتينا ولم نُنْفِقْها » (٢) .

وقد اقتدى الصحابة رضى الله عنهم برسول الله ﷺ في جوده وسخائه ، وكان قد رغبهم في السخاء ، فكانوا يصدرون عن طبع أصيل وسجية محبة للخير ، لقد تمثلوا كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ

قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (٣)
وقال تعالى : ﴿ لَن نَّأَلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٤) .

وقال ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل » (٥) .

وجّه رسول الله ﷺ أصحابه نحو البذل وأطعام وإطعام على من نعرف ومن لا نعرف فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن

(١) مسلم مع الشرح : ٦٨/١٥

(٢) قال الهيثمي : رجالهما رجال الصحيح (٢٣٨/١٠) .

(٣) البقرة : ٢٦٧

(٤) آل عمران : ٩٢ .

(٥) رواه مسلم : باب النهي عن البخل والشح (٢٥٨٨) .

رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أئى الإسلام خير ؟ قال : تُطْعِمُ الطعامَ وتقرأ السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » (١) .

وكان من أثر هذه التوجيهات ، ومن جود رسول الله ﷺ ، أن تسابق الصحابة فى البذل ابتغاء مرضاة الله ، نحو الوالدين والأقربين ثم الجيران ، ونحو الناس جميعاً .

أخرج أبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ، ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر رضى الله عنه « إن سبقته يوماً » (٢) ، فجئتُ بنصف مالى ، فقال رسول الله : « ما أبقيت لأهلك ؟ » قلت : أبقيتُ لهم ، قال : « ما أبقيتُ لهم ؟ قلتُ مثله .

وأنى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : « يا أبا بكر ما أبقيتُ إلى أهلك ؟ قال أبقيتُ لهم الله ورسوله . قلتُ : لا أسبقه إلى شيء أبداً » (٣) هكذا كان التسابق عند سلف هذه الأمة ، وإلى هذه الآفاق كان صحابة رسول الله يتطلعون .

أما اليوم فقد أصبح التسابق نحو زيادة التثمير فى الأموال والعقارات فالكل يلهث ويجمع ويطلب المزيد ، إلا من رحم الله ، حتى أصبحت الوسيلة غاية ، ونسى كثير من المسلمين الغاية التى خلقوا من أجلها ، وهى عمارة الأرض على أساس الخلافة الراشدة ، ومنهج النبوة .

(١) رواه البخارى : (٥٢/١ ، ٥٣) ، ومسلم : (٣٩) .

(٢) أى إن استطعت أن أسبقه فى يوم من الأيام فهو هذا .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح « منتخب الكثر » (وانظر القصة

فى حياة الصحابة : ١٥٠/٢) ٣٤٧/٤ .

نماذج من بذل الصحابة^(١) « رضى الله عنهم »

لقد ضرب الصحابة المثل الأعلى في البذل والسخاء ابتغاء وجه الله ، وكتب السيرة والتاريخ مليئة بالنماذج الفريدة وسأذكر بعض هذه النماذج ، كشواهد توضح ما نحن بصددده .

أخرج أبو نعيم في الحلية ، عن نافع قال : كان ابن عمر رضى الله عنهما إذا اشتد عجبه بشئ من ماله قرّبه لربه عز وجل .

وقال نافع : فلقد رأيتنا ذات غشية ، وراح ابن عمر على نجيب له قد أخذه بمال عظيم ، فلما أعجبه سيره أناخه مكانه ثم نزل عنه . وقال يا نافع : انزعوا زمامه ورحله ، وجلّلوه وأشعروه وأدخلوه في البُدن .

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه ، وقد تصدق أبو طلحة رضى الله عنه بعين بئرحاء ، وكانت مستقبله المسجد ، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

« قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، وذكر الآية ثم قال : وإن أحب أموالى إلى بئرحاء وإنها صدقة لله أرجو برّها

(١) انظر بحثاً مفصلاً عن بذل الصحابة في : حياة الصحابة : ١٥٦/٢ وما بعدها - الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى ، ط ٣ ، دار العلم ١٤٠٥ هـ .
(٢) الخلية : لأنى نعيم ، ٢٩٤/١ ، « والنجيب من الإبل : القوى السريع » .

وَذُخْرُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « بَيْعٌ ! ذَلِكَ مَالٌ زَابِحٌ ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ !... » (١) .

وَقَدْ جَاءَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بِفَرَسٍ لَهُ يُقَالُ لَهَا : « شَيْبَلَةٌ » ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا فَقَالَ : هِيَ صَدَقَةٌ ، فَقَبِلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا ابْنَهُ أَسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ذَلِكَ فِي وَجْهِ زَيْدٍ فَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ قَبِلَهَا مِنْكَ » (٢) .

هَكَذَا كَانَتْ التَّرْبِيَةُ النَّبَوِيَّةُ ، وَقَدْ أَثْمَرَتْ تَرْبِيَةَ دَارِ الْأَرْقَمِ فِي بَذْلِ لَا نَظِيرَ لَهُ ، بَلْ يَتَضَاعَلُ أَمَامَهُ بَذْلُ وَكْرَمُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مَعَ اخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَهْدَافِ .

صَارَ أَحَدُهُمْ لَا يَهْدِي لَهُ بَالٌ إِذَا اجْتَمَعَ لَدَيْهِ مَالٌ لَمْ يَفْرِقْهُ بَعْدَ . فَطُلْحَةُ الْفَيَاضِ اجْتَمَعَ لَدَيْهِ مَالٌ فَعَمَّهُ حَتَّى اسْتَعْرَبَتْ زَوْجَتَهُ مِنْهُ ثِقْلَهُ فَقَالَتْ لَهُ : وَمَا يَغْمُكَ مِنْهُ ؟! ادْعِ قَوْمَكَ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ ، وَكَانَ مَا قَسَمَهُ بَيْنَ قَوْمِهِ مِائَةَ أَلْفٍ (٣) .

نَمَازِجُ رَائِعَةٍ نَجَّدَهَا كُلَّمَا قَلَبْنَا صَفْحَاتِ التَّارِيخِ لِنُطْلِعَ عَلَى أَرْبَاجِ سِيرَةِ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ .

أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ أُمِّ دُرَّةَ (خَادِمَةِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ) قَالَتْ : أَتَيْتِ عَائِشَةَ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَرَّقَتْهَا وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صَائِمَةٌ : فَقُلْتُ لَهَا : أَمَا اسْتَطَعْتَ فِيمَا

(١) التَّارِيقُ وَالتَّرْهِيْبُ . ١٤٠/٢ - رَوَاهُ الشَّيْخَانُ

(٢) الدَّرُ الْمَشْهُورُ . ٥٠/٢ ، وَحَيَاةُ الصَّحَابَةِ : ١٥٨/٢

(٣) التَّارِيقُ وَالتَّرْهِيْبُ : ١٧٦/٢ ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ : ١٤٨/٩ رَجَالَهُ ثَقَاتٌ وَأَخْرَجَهُ ابْنُ

سَعْدٌ : ١٥٧/٣

أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفرطين عليه ؟ فقالت : لو كنت أذكرتني لفعلت^(١) .

لقد نسيت السيدة عائشة نفسها وهي صائمة ، تعلقاً بحب الخير والسخاء الذي كان سجية وطبيعة عندها .

ولا عجب فإن لأصحاب رسول الله أسوة بسيد المرسلين .
عن أنى هريرة عن الرسول ﷺ قال : « لو كان لي مثل أحد ذهباً ،
لسرني أن لا يمر على ثلاث وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدين »
صحيح الجامع الصغير : ٩٣٦/٢٣ .

ولا ننسى المجتمع الوليد في المدينة المنورة حيث آوى الأنصار المهاجرين ، وأكرمهم ، في جو من التآخي والإيثار لم تستطع البشرية أن تقترب من مستواه بعد ذلك التاريخ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة الحشر : ٩

« وستبقى صورة الأنصار الوضيئة في القرآن الكريم منار هداية وإشعاع للإنسانية الضاربة في تيه المطامع والأثرة والشح والإمساك ، ما أقبل ليل وأدبر نهار ، ودعى الناس للبذل والسخاء والإيثار »^(٢) .

واليوم لينظر دعاة هذا الدين إلى هذه النماذج الوضيئة من الإيثار والسخاء والتآخي ، ولينسجوا على منوالها ، أو قريباً منها ، إذا أرادوا

(١) الإصابة : ٤٦١/٤ ، وحياة الصحابة : ٢٣٤/٢

(٢) شخصية المسلم : الهاشمي ص ٢٢٢ .

للدعوتهم نجاحاً ، ولكلامهم وقعاً وتأثيراً ، وإلا فإن الشحيح بعيد عن الله والناس جميعاً . كان إنفاق السلف في العسر واليسر ، ومع الحاجة الملحة .

الإنفاق مع الحاجة :

كان المسلمون يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويذلون الشيء رغم حاجتهم إليه ، كان مجتمعهم مجتمع الإيثار والمحبة

وكان قدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ ، كان لا يسأل شيئاً فيمنعه . أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببرد فقلت : يا رسول الله جئتك أكسوك هذه ، فأخذها رسول الله ﷺ وكان محتاجاً إليها فلبسها ، فراها عليه رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه !! اكسنيها ، فقال : « نعم » ، فلما قام رسول الله ﷺ ، لامه أصحابه وقالوا : ما أحسن حين رأيت رسول الله ﷺ أخذها محتاجاً إليها ، ثم سألتها إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه !! قال : والله ما حملني على ذلك إلا رجوتُ بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ لعل أكفن فيها^(١) .

كان الإيثار أمراً واقعاً ، وإكرام الضيف رغم الحاجة أمراً عادياً قد لا يتصور في عصرنا هذا ، ولننظر إلى هذه الواقعة : عن أوى هريرة رضى الله عنه ، أن رجلاً من الأنصار بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ، فقال لامرأته : تؤمي الصبية وأطفيئ السراج وقرني للضيف ما عندك .

قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(٢) .

(١) كنز العمال : ٤٢/٤ ، وحياة الصحابة : ١٥٨/٢ - ١٥٩ .

(٢) مسلم مع الشرح : ١٣/١٤ .

كانت سيرة السلف الصالح تُرْجَمَاناً صادقاً لما يتنزل من آيات القرآن الكريم ، إذ لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

قال أبو الدَّحْدَاح رضى الله عنه : يا رسول الله ، قد أقرضتُ ربي حائطي - وحائطه فيه ست مائة نخلة -- فجاء يمشي حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه وعيالُها ، فنادى يا أمَّ الدحداح ، قالت : لَبَّيْكَ قال : اخرجي فقد أقرضته رَبِّي « (١) .

هكذا شمل البذل والسخاء الجميع حتى النساء اللواتي من طبعهن جمع المال وحب الرفاه غالباً ، ارتفعن فوق جواذب الدنيا ، فامرأة طلحة بن عبيد الله تشجعه على تفريق المال على قومه ، والسيدة عائشة لا تبقى لنفسها درهماً تشتري به إفطاراً لها ، وها هي زوجة أنى الدحداح تعين زوجها على الخير والعطاء وتخرج وعيالها من بستان ظليل فيه مئات النخيل المثمر .

ألا ما أحوَجْنَا إلى غرس هذه الفضائل في نفوس أبنائنا وبناتنا ، بل ما أحوَجْنَا إلى أن نسمو رجالاً ونساء فوق شهوات الدنيا ومطامعها ، لنعيد إلى أخلاق السلف سيرتها الناصعة .

أما الإنفاق في طريق الجهاد (٢) .

فقد ساهم فيه أصحاب رسول الله ﷺ ، وجهزوا المجاهدين بكل ما يستطيعون ، ونُتَخِرَ بعض النماذج للبيان وحسن الاقتداء .

حمل أبو بكر رضى الله عنه ما له كله حين هاجر مع رسول الله ﷺ ، وهو خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، كما أنه أعطى ماله كله +

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ، وقال الهيثمي : ٣٢٤/٩ رجالها ثقات ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

(٢) انظر تفصيلاً لذلك : حياة الصحابة : الجزء الثاني من : (ص ١٦٣ وما بعدها) .

أربعة آلاف درهم في غزوة تبوك - كما أن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كان قد جهز ثلاثة مائة بعير بأحلاسها واقتابها في جيش العُسرة وقال الرسول ﷺ : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » (١)

وفد أنفق عبد الرحمن بن عفان رضى الله عنه سبعمائة بعير بأقتابها وأحمائها في سبيل الله ، وهى غير قدمت من الشام ، وغيرها كثير كتصدقته في غزوة تبوك بمائتى أوقية من الذهب .

والتماذج كثيرة ، وكتب الحديث والسيرة مملوءة بهذا النوع من السخاء في سبيل الله

أجواد الحجاز (٢) :

إن كان لدى العرب في الجاهلية أجواد كرماء ، فقد ظهر من أهل اقرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، مَنْ أنسى ذكر كعب بن مامة وابن سعدى وحاتم الطائي .

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد : أجواد الحجاز ثلاثة كانوا في عصر واحد ، هم عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص . فمن جود عبيد الله بن عباس : أنه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطرق .

ومن جوده : أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال : يا ابن عباس ، إن لى عندك يدأ وقد احتجت إليها .. ثم قال : ما يدك عندنا ؛ قال : رأيتك واقفاً بزمرم وغلأمك يمتح لك من مائها ، والشمس قد صهرتك فظلللتك

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبيهقى والحديث استاده ضعيف كما ورد في فضائل الصحابة ج ١ / ص ٥٠٤ / للإمام أحمد بن حنبل .

(٢) انظر : بلوغ الأرب : الآلوسى ، (١/٩٤-٩٩) .

بطرف كسائي حتى شربت . قال : إني لأذكر ذلك ، وأنه يتردد بين خاطري وفكري ثم قال لِقِيمه ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال : ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا .

هكذا يأتي كرم عُبيد الله الأصيل إلا رد الجميل ، وهو خلق إسلامي نبيل ، لأن الجحود ونكران الجميل عقوق أليم ، ولعله أصبح من سمات هذا العصر .

ومن جوده أيضاً : أن الحسين بن علي رضي الله عنهما ، كان قد حُبِس عنه عطاؤه ، حتى ضاقت عليه حاله ، فوجه كتاباً لابن عمه عبيد الله بن العباس رضي الله عنهما ، فتأثر تأثراً شديداً ثم أرسل إليه نصف ما يملك من ذهب وثوب ودابة .

فقال الحسين : إنا لله .. حملت والله على ابن عمي .. معا حسبته يتسع لنا بهذا كله ، فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك في الإسلام .

وأخبار كرمه كثيرة اقتصرت منها على ما ذكرت لأن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك .

ثم ذكر صاحب العقد الفريد نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ، وغيرهما وأتى من ذلك بما يستغرب ولا عجب فإن لهم أسوة بسيد المرسلين محمد ﷺ .

وهو القائل : « ما من يوم يصبح العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعْطِ مُنْسِكاً تَلَفاً » (١) .

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري : ٢٤١/٣ ، ومسلم : ١٠١٠ .

تنفير الإسلام من ظاهرة الشح :

لقد دعا الإسلام إلى التوسط في الأمور كلها ، وخير الأمور أوسطها ، « فالجود له خدٌّ بين طرفين فمتى جاوز حدّه صار إسرافاً وتبذيراً ، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً »^(١) .

وحذّر هذا الدين من البخل لأنه يقطع الأواصر ويحبط الأعمال ، ولا يورث إلا التباغض والتحاسد .

فمن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »^(٢) .

والشح مرض والحسد شرٌّ من البخل ، وذلك أن البخل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده .. قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يكثر من الدعاء في طوافه فيقول : اللهم قنى شح نفسى ، فقال له رجل : ما أكثر ما تدعو بهذا ! فقال : إذا وقبت شح نفسى ، وقبت الشح والظلم والقطيعة ، والحسد يوجب الظلم »^(٣) .

(١) الفوائد : ابن القيم الجوزية ، ط : أولى ١٤٠٠ هـ المطبعة القيمة .

(٢) رواه مسلم : ٥ كتاب البر والصلة برقم ٢٥٧٨ .

(٣) الفتاوى : لابن تيمية ، ج ١٠/ ١٢٨-١٢٩ .

نَدَدَ الإسلام بالبخل ، وهَدَدَ البخلاء بأن ما كنزوه سيطوقونه يوم
القيامة ناراً - لقد بخلوا بالقليل ، وحسبوا أن كنزه خير لهم وهو شر فظيع
وهو بعد هذا كله ذاهبون وتاركوه وراءهم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ
مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (١) .

وقال ﷺ : « شر ما في المرء : شح هالع وجُبْن خالع » (٢) .

ظاهرة الشح في الحضارة الحديثة :

من خلال ما سبق تبين لنا أن الكرم خلق عرني أصيل وصفة طيبة من
صفات المؤمنين .. إلا أن الناس في هذا العصر ابتعدوا - إلا مَنْ رَحِمَ الله -
عن أصالة العرب ، وأخلاق السلف الصالح .. لأن الحضارة الوافدة غيرت
لدينا القيم والمفاهيم « فأصبح الإنسان في الحضارة المادية لا يهتم إلا بمصلحته
الشخصية ، فإذا هو يعاني خواء روحياً وجفافاً عاطفياً نتج عنهما شعور
عميق بالحرمان من الصداقة والأصدقاء المخلصين وما حفاوته باقتناء
الكلاب ، وإقباله على تدليلها والعناية بها إلا تعويض عما فقد من رى
العاطفة الإنسانية الذي جففته في نفسه الفلسفة المادية .. » (٣) .

لقد غابت التضحيات عن الأذهان ، وابتعد الإيثار عن النفوس سواء
بين الجيران أو الأهل والأقارب .

(١) آل عمران / ١٨٠ ، وانظر تفسيرها في ظلال القرآن : ٥٣٧/١ .

(٢) رواه أبو داود : ٣٦/٣ ، كتاب الجهاد ، رقم (٢٥١١) والامام أحمد في مسنده :

٣٠٢/٢ وهو صحيح : انظر صحيح الجامع الصغير ، م/١ ص ٦٩١ .

(٣) شخصية المسلم : الهاشمي ص ٢١٥ .

ففى بلادنا المسلمة عندما غزمتها لوثة المدينة الحديثة صار أكثر الناس يلهثون .. ولسان الحال يقول : اللهم نفسى .. نفسى ، فالأنانية طاغية ، والتبرم والضيق باديان ، حتى أصبحنا من أبرز علامات هذه الحضارة .. رغم كثرة الأموال المتدفقة ، لكنه الهَلَع من شبح الفقر ، وفوات اقتناص المبلذات إلا من رحم الله .

وما نراه فى الحفلات العامة ، والمناسبات السارة أو الحزينة فى المآتم ، ما هو إلا تبذير وإسراف لا يقصد به غالباً إلا الرياء والسمعة حيث تلقى الأطعمة فى صناديق القمامة وتنفق الآلاف بغير طائل .

أما البذل والجود من أجل الجهاد فى سبيل الله ، أو إيواء المحتاجين ، وإكرام الضيوف ، أو لإنشاء المؤسسات الخيرية فقد أصبح نادراً مع الأسف .

فما أحوَجنا إلى تطبيق هذا الخُلق العظيم ، خلق الجود والسخاء بلا سرف ولا خيلاء ، ما أحوج الجائعين فى الأكواخ الفقيرة ، والقرى المعوزة ، وآلاف الذين يموتون جوعاً فى بلاد الجفاف والأوبئة ، إلى أموال الموسرين ، تنقذهم مما هم فيه ومن اجتذاب المبشرين الذين ينشطون فى تلك الديار ، يخربون عقائد المسلمين تحت ضغط لقمة الطعام ، أو حاجة الدواء . وإن النفس الشحيحة المجذبة لن يصدر عنها خير ولو ادعت أنها من خير الدعاة والمربين .

وما أحسنها من لفظة لو انتبهنا إلى غرس هذا الخلق فى نفوس الناشئة ، فالنفس التى تعتاد البذل ستكون بإذن الله نفساً خيرة معطاء ، تهون الدنيا لديها فتشع الخير والنور على من حولها .

ولن ينجح دعاة هذا الدين في دعوتهم ، ما داموا يعيشون في قصورهم الفارهة وأثاثهم الوثير ، معيشة المترفين ، والأيدى منقبضة بينما يعيش الناس من حولهم وهم يعانون الحاجة الملحة والضعف الشديد .

فالقذوة الطيبة لدى الداعية المسلم أساسية في دعوته ، ومهمة في أخلاقيات هذا الدين .. ويبقى الانسجام بين القول والعمل منهجاً سليماً من مناهج سلف هذه الأمة إذ لا معنى للأخوة الحققة إذا لم تخرج من حيز النظرية إلى التطبيق ، وقد رأينا نموذج أخوة المهاجرين والأنصار ، ونماذج الجود الصادق لدى الرعيل الأول من سلف هذه الأمة .

لقد هاجمتنا أخلاق دخيلة منبثة عن تقاليد العرب ، وبذل الصفوة المسلمة ... ابتعدنا عن تراثنا حتى الجاهل المقبول ، وعن ترفع المؤمنين الجادين الصادقين .

ولن ينقذ هذه الأمة إلا تربية متأنية تنقل أجيالها إلى ظلال الإسلام الوارفة من سماحة وبذل وعطاء ، وشجاعة وغيرة ووفاء .

٢ - الشجاعة عند العرب

كانت الشجاعة عند العرب صنو الكرم في تعشقهم لها وافتخارهم بها - إنها إقدام في مواطن الإحجام ، وعدم المبالاة بالحياة ولا بالممات ... والعرب لم تزل رماحهم متشابكة وأعمارهم في الحروب متهاكة ، وسيوفهم متقارعة ، قد رغبوا عن الحياة ، وطيب اللذات ... كانوا يتماحون بالموت ، ويتهاجون به على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه^(١) .

قال السموأل بن عدياء^(٢) :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلُّ منا حيث كان قتيْلُ
تسيل على حد الضبات نفوسنا وليست على غير الضبات تسيلُ

لقد كانت الشجاعة مفخرة العرب .. سواء أكان غنيا أم فقيراً إذا قبيل أم وحيداً ، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع ، بعيدون عن الحامية ، يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار ولا جدران أو أبواب ، يحملون السلاح دائماً ، ويتلفتون عن كل جانب « فهم يتجافون عن الجوع ، ويتوجسون للنبات والهَيْعَات ، وينفردون في البَيْدَاء مدلين بيأسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية »^(٣) .

إن الدفاع عن القبيلة وحماية ذمارها ومحارمها كان يفرض على العرب أن يتعشقوا الشجاعة والنجدة والفروسية .

(١) بلوغ الأرب ١٠٣/١ - ١٠٤ .

(٢) ديوان السموأل : ص ٩٠ / ط دار صادر - بيروت .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٠٥ / ط الأزهرية بمصر .

وإن الصحراء ترى في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار ، « وإذا تفحصنا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ، ولدت معه وأنه شب وكبر وهي تتمشى في دمه ، كيف لا وقد رنى في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالثأر ، وبالعُدوان في كثير من الأحيان ؛ وطالما فرغ طفلاً على قعقة السلاح وصيحات المقاتلين ، وسمع الأفاصيص عن شجعان من القبيلة هموها وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع والأبطال في ميدان الوغى تتنازع ، ثم كبر فشارك في المواقع وأقنى العمر في المعارك فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً عند العرب »^(١) .

إنها طبيعة الحياة العربية ، تلك التي تتطلب القوة والشجاعة والإقدام ، وركوب المخاطر ، والتجلد للمكاره والخطوب ، وقد دعاهم إلى ذلك طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارة والعداء فهم في حرب مضطربة الأوار لا تكاد تخبو حتى يشب ضرامها ويعزز هذه الحال ما روى عن عبد الملك بن مروان أنه سأل ابن مستطاع العنبري : « أخبرني عن مالك بن مسمع قال : لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أى شيء غضب »^(٢) وقد اختار الغالب منهم سكتى البوادي على الحضر لما كان فقد العز فيه ، والجبن إنما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحسب وأين ذلك منهم ؟ ولقد كابد رسول الله ﷺ في تأليفهم واتحاد كلمتهم^(٣) فالشجاعة صفة أساسية يعتز بها العرب ، إلا أنها كانت - في مفهوم الجاهلية - تعنى الحمية ، تلك

(١) الحياة العربية و الشعر الجاهلي : الخوف ص ٣٣١ . ط ٥

(٢) (العقد الفريد لابن عبد ربه : ١٠٥/١ ، ط لجنة التأليف مترجمة والنشر بمصر .

(٣) بلوغ الأرب : ١٠٧/١

الحمية التى ندد بها الإسلام « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُحْمَةً
حِمَّةً لِّلْجَنَّةِ »^(١) أما مادعا إليه الإسلام فهو الجوهر الحقيقى للشجاعة -
الشجاعة فى الحق لا الحمية فى الباطل ، والجهد الخالص لا للسمعة والرياء^(٢)
تلك الحمية التى جعلت مائة ألف سيف تغضب لغضب رجل واحد ولا
يسألونه فى أى شئ غضب !!؟ .

« وللشجاعة حد إذا جاوزته صارت تهوراً ، متى نقصت عنه
صار جبناً وخوراً .

وحدها الإقدام فى مواضع الإقدام ، والإحجام فى مواضع الإحجام ،
كما قال معاوية لعمر بن العاص رضى الله عنهما : أعيانى أن أعرف أشجاعاً
أنت أم جبناً ، تتقدم حتى أقول من أشجع الناس ، وتحين حتى أقول من
أجبن الناس فقال :

شجاع إذا أمكنتنى فرصة فإن لم تكن لى فرصة فجبان^(٣)
مظاهر الشجاعة^(٤) .

كان للشجاعة عند العرب مظاهر متعددة ، برزت فى شعرهم .

من تلك المظاهر : الأنفة وإباء الضيم ، يقول عترة^(٥) :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل
نفور من حياة الذل تجعلها لدى الشاعر كجهنم

(١) سورة الفتح : ٢٦ .

(٢) واقعا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٦٧ .

(٣) الفوائد لابن القيم رحمه الله : ص ١٣٨ .

(٤) انظر رسالة المعتقادات والقيم ، والحياة العربية .

(٥) ديوان عترة : ص ١٢٠ ، شرح الأستاذ عبد المنعم شلى وشرح التعليقات

للتبريزى : ص ٢٣٦ .

وانظر إلى قوله في مجال الإقدام الذي لا يدنى الأجل عنده ، وإنما هو الحياة ، حياة الفتوة والمجد :

بكرت تخوفنى الختوف كأننى . أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهلٌ لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقتى حياءك - لا أبالك وأعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل
ومن شعره المشهور قوله :

أثنى على بما علمت فإننى سمح غالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمتُ فإن ظلمى باسل مرّ مذاقته كطعم العلقم
لقد نفر القوم من الظلم واستأثوا في سبيل الدفاع عن شرفهم
وعزتهم .

يقول الحصين بن الحمام المرى^(١) :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
ويعتبر من الشجاعة عند العرب : الصبر بمختلف ألوانه الصبر على
الجوع والعطش ، والصبر على قطع المفازات واقتحام الصحراوات ، والصبر
على مقارعة الفرسان في المعارك .

ولذلك ما كانت النساء لتنوح على قتيل في الحرب لأن قتله يعتبر
شرفاً ومجداً ، ولأنهنّ تعودن أن يفقدن الأعراء في الحروب .

(١) شرح الحماسة لأبي تمام : تحقيق العسيلان : ١١٤/١ رقم (٤١) .

يقول عمرو بن كلثوم^(١) :

معاذَ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن تضجَّ من القتل
فقد كان من محامد القبيلة أن يكثُر في الحروب قتلاها ، لأن هذا دليل
على أنهم ألفوا الحروب وألفتهم .

قال بشامة بن حزن النهشلي^(٢) :

إني لمن معشر أُنسى، أوائلهم . قول الكماة : ألا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا . مَنْ فارسٌ ؟ خالهم إياه يعنونا
ولا تراهم وإن جَلَّت مصيبتهم مع البكاة على مَنْ مات سيكونا

ومن مظاهر شجاعتهم : إجابة الصريح ، إذ لا يفعل ذلك إلا
الشجعان الأقوياء ، ولا يتخلف عنه إلا المبلد الجبان يقول طرفة بن
العبد^(٣) :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى غُيت فلم أكسل ولم أتبلد
وإن أذعَ للجُلَى أكن من حماها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
وكانوا يعتبرون حب المغامرة والترحال من مزايا الرجال الأشداء
الأبطال .

يقول النمر بن تولب^(٤) :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمةً إن الجلوس مع العيال قبيح
فالمال فيه تجنةٌ ومهابةٌ والفقر فيه مذلةٌ وقبح

(١) شرح الحماسة : رقم (١٦٢) - ٢٥٧/١ ، تحقيق الصيقلان .
(٢) شرح الحماسة رقم (١٤) ، ص ٧٧ ، وبعضهم ينسبها إلى المرقش الأكبر .
(٣) شرح القصائد العشر : التبريزي ، ص ٩٦ وما بعدها .
(٤) الديوان : ص ٤٩ ، وينسب البيتان أيضاً لعروة بن الورد في ديوانه ص ٤٣ .

ومن مظاهر شجاعتهم إصرارهم على الأخذ بالثأر مهما كلف الأمر ،
وقد بالغوا في ذلك كثيراً ، إلا أن هذا الأمر ما كان يمنهم من أن يكرموا
أسراهم شجاعة منهم وكرماً ، وأن يمنوا عليهم أحياناً .

وكثيراً ما يفتخر الأبطال والفرسان ببسالتهن أمام الزوجة أو الحبيبة ،
ومن هذا القبيل قول عامر بن الطفيل لزوجته :

طَلَقْتُ إِنْ لَمْ تُسَأَلِي أَيُّ فَارِسٍ حَلِيلِكَ إِذَا لَاقَى صُدَاءَ وَخْتَعْمَا
أَكْرَ عَلَيْهِمْ دَغْلَجاً وَلِبَانَهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقَعَ الرِّمَاحُ تَحْمَحِمَا^(١)

وقول عترة يخاطب ابنة عمه عبلة^(٢) :

هَلَا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
يَخْبِرُكَ مِنْ شَهِدِ الْوَقِيعَةِ أَنْتِي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وقد ضُربت الأمثال بعدد من الأبطال ، وشاع ذكر كثير منهم
كخالد بن جعفر بن كلاب ، وربيعة بن مكرم ، وعترة العبسي ، وعامر
ابن الطفيل ، وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم^(٣) .

الجبن والفرار في المعركة^(٤) :

لقد سجل الشعر الجاهلي شجاعة الشجعان ، وفي حالات أخرى
سجل اعتراف الشاعر بجبنه أو جبن حلفائه أو عشيرته ، ونشير إلى هذه
الناحية إكمالاً لصورة الشجاعة عند العرب .

(١) الحماسة : ت العسيلان برقم (٢٧) ، و النحجم : التصويت دون الصهيل -
لبان الحصان : صدره .

(٢) القصائد العشر : التبريزي - ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٣) انظر تفصيلاً لذلك : بلوغ الأرب ، ص ١١٨-١٢٢ الجزء الأول .

(٤) انظر : الحياة العربية للحواف - ص ٣٤٢ وما بعدها .

لأنه ليس كل عرني بشجاع في الضرورة ، وإنما طبيعة الحياة البشرية ، أن تتنازعها بواعث عدة وصفات شتى ولكل قاعدة شواذ .
يقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو من الشجعان المشهورين^(١) :

لحَا الله جَزْماً كلماً ذَرَّ شَارِقَ وجوه كلاب هارشت فازبَارَتْ
ظِلَلْتُ كَأَنِّي للرمَاحِ دريئةٌ أَقَاتِلُ عن أبناءِ جَرمٍ وفَرَّتْ
فلو أَن قومي أَنطقتني رماحهم نطقتُ ولكنَّ الرماحَ أَجَرَتْ
وذلك أَن جَزْماً قتلْتُ رجلاً وارتحلتُ إلى قوم الشاعر بنى زبيد ،
وتعباً الشاعر وقومه لقتال بنى الحارث خصوم جَرمٍ ثم فرت جَرمٍ وانهمزمت
زبيد ، فلام الشاعر هنا قومه ولام جرماً .

وقد صرح كثير من الشعراء بفرارهم ، وتلمسوا المعاذير لنفوسهم
ولا تهمنا هذه المعاذير ، وإنما يعيننا أنهم اعترفوا بالفرار ولم يكتموه .
قر ذات يوم أوس بن حُجر من جموع بنى عبس ، واعتذر بأنه لما
شهد الجموع خاف لأنهم شجعان ، ثم دافع عن نفسه بأن فراره اليوم لا
معة فيه لأن شجاعته مشهورة وبلاءه محمود من قبل يقول^(٢) :

أجاعة أم الحُصَيْنِ خزاية على فرارى إذا لقيت بنى عبس
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى إذ جربت منه الشجاعة بالأمس

(١) شرح الحماسة : ت العيлян ، ٩٨/١ رقم (٢٩) ، أزبَارَتْ : تهبأت للقتال -

هارشت : احترشت .

(٢) ديوان أوس : ص ١٠ .

وفى يوم بدر فر الحارث بن هشام وترك أخاه أبا جهل يلاق حتفه ،
فغيره حسان بن ثابت رضى الله عنه بقصيدة طويلة منها^(١) :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك نصر الإله به ذوى الإسلام

فأجابه الحارث بهذه المعاذير ، (وكان ذلك قبل إسلامه)^(٢) :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وشمت ربح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيّل لم تبّد
وعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصدت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم سمرّد

والأمثلة كثيرة أكتفى بهذا القدر ، لأننتقل إلى موقف الإسلام من
هذا الخلق الحميد ، خلق الشجاعة والرجولة .

الإسلام والشجاعة

الشجاعة ليست قوة البدن فقط ، فقد يكون الرجل قوى البدن
ضعيف القلب ، وإنما هى قوة القلب وثباته ، فإن القتال مداره على قوة
البدن وصنعتة للقتال ؛ وعلى قوة القلب وخبرته به ، والمحمود منهما ما كان
بعلم ومعرفة دون التهور الذى لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود
والمذموم .

(١) ديوان حسان : ص ٢١٥ ، ط دار بيروت ، الطمرة : الأنتى الوثابة من الخيل .

(٢) حماسة أنى تمام : ت العسيلان ، رقم (٣٧) ، ١٠٩/١ ، أشقر مزبد : دم أحمر

ولهذا كان القوى الشديد : هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح ، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد^(١) .

فليس الشديد بالصُّرعة إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، هذا ما جاء به الإسلام ليخفف حدة الطُّيش والنهور عند أهل الجاهلية ، وليعلمهم ضبط النفس ، وينقل هذه الطاقات الشجاعة إلى إحقاق الحق ، ورد المظالم ونشر العدل ، بل إلى مقارعة أعداء الدين إلى الجهاد فى سبيل الله ، بدلاً من ضياع القوى الجاهلية فى الغزو والثأر أو التسلط والعدوان .

فبينما كان الشاعر الجاهلى يقول^(٢) :

قليل غرار النوم أكبر همه دمُ الثَّارِ أو يلقي كميأ مسفعأ

صار المسلم يقاتل فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وجنة عرضها السماوات والأرض ، ولسان حاله يقول ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾^(٣) .

صار يقاتل لإنقاذ الضعفاء المظلومين فى الأرض ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَالُكُمْ لَا تُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ النساء : ٧٥ .

(١) كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ابن تيمية / دار المجتمع جدة .

(٢) تأبط شراً : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، ٤٩٢/٢ .

(٣) التوبة : ١١١ .

ولإعلاء كلمة الله : ﴿ وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ ﴾
البقرة : ١٩٣ .

فالشجاعة عنوان القوة ، وعليها مدار إعزاز الأمة ، ولذلك عدها
الإسلام من أكرم الخصال ، وجعل من يتصف بها الأحب إلى الله والأكرم
عنده .

قال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من
المؤمن الضعيف ... »^(١) .

إلا أن الشجاعة في الإسلام لن تكون للخيلاء والاعتداء بالقوة ولا
للرياء ، وإنما جعلت مفضلة إذا أظهرت حقاً أو طمست باطلاً أمر الله
بطمسه وإخفائه^(٢) إن كتاب الله يذكر القوة العاملة الفاضلة ، ويمجدها
ويحمل على الضعف والعجز .. .

وينبغي أن نتذكر أن قوة الإيمان هي أفضل أنواع القوى لأنها هي
التي تؤدي إلى مجموعة من الفضائل كالإخلاص وصدق الجهاد وصفاء
النية ..

ويذكرنا القرآن في مواطن منه بأن قوة البغي والطغيان سيكون
مصيرها الوبال والخسران ، وبذلك يقول تعالى في سورة التوبة :
كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ التوبة : ٦٩ .

(١) صحيح مسلم : كتاب الفدر ٢٠٥٢/٤٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء
الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) انظر : رسالة المعتقدات والقيم ، ص ٨٢٣ ، ٧٧٨ .

وفي سورة الروم : « أَوَلَمْ نَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظِلَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » سورة الروم : ٩ .

فالطريق إلى القوة يكون بالاستمداد من عون الله وقوته وإن من وسائل تحقيق القوة الحسية والروحية الابتعاد عن الرذائل والفواحش والإعتصام بالفضائل واجتناب ما يوهن حس الإنسان أو نفسه من مسكر أو مخدر وما يضعف كيانه من ترف وإسراف ^(١) .

هذا هو الفرق بين قوة الجاهلية وبطشها في كل عصر وبين القوة الهادفة المشروعة ؛ والتي ترتبط بإحقاق الحق ، وإشاعة العدل والخير ، قوة منضبطة بمقاييس الشرع الخفيف ، لا خاضعة لنزوة طارئة ، أو طيش أحمق .

وقد ظهرت نماذج نادرة من شجاعة المسلمين :

إذ كانوا عند أوامر ربهم ، وعند حسن ظن نبيهم ﷺ فرفعوا لهذا الدين رايته ، وكانوا في صبرهم وشجاعتهم مضرب الأمثال .

ولا غرابة فقدوتهم المصطفى ﷺ ، إذ كان أشجع الشجعان ، أخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله

(١) موسوعة أخلاق القرآن : ٢٥٦/٢-٢٥٨ ، الدكتور أحمد الشرباصي - دار انرائد

العرى بيروت ، ١٤٠١ هـ .

راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأنى طلحة رضى الله عنه عُرَى ،
وفى عنقه السيف وهو يقول : لم تُراعوا لم تراعوا « (١) » .

ويوم حنين عندما انكشف المسلمون كان ﷺ على بغلته البيضاء ،
وابن عمه أبو سفيان بن الحارث أخذ بزمامها وهو يقول : أنا النبی لا
كذب ، أنا ابن عبد المطلب قال البراء بن عازب رضى الله عنه : ولقد كنا
إذا حمى البأس نتقى برسول الله ﷺ وإن الشجاع الذى يحاذى به (٢) .

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد هانت الدنيا لديهم ، وتمنّوا
الشهادة ، فلما دنا المشركون فى بدر من المسلمين قال ﷺ : « قوموا إلى
جنة عرضها السماوات والأرض ، قال عُمر بن الحَمَام الأنصارى رضى الله
عنه : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم ..
وكان بيده تمرات يأكل منهن ثم قال : لَئِنْ أَنَا حَيِّيتُ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا
حَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قُتل - رحمه
الله - « (٣) » .

وقد أخرج البخارى عن خالد بن الوليد - رضى الله عنه - قوله :
لقد دُقُّ فى يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدي إلا صفيحة يمانية
« سيف عريض » (٤) .

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد عَرَضَ نفسه للخطر عند الهجرة بينما
كانت قريش تطارد رسول الله ﷺ ، وحين دفاعه عن رسول الله فى
المسجد الحرام حتى أغمى عليه وهو يُضرب ويُعذب .

(١) مسلم مع الشرح للنووى : ٦٧/١٥ .

(٢) حياة الصحابة : ٦١٠/٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه ، و رواه مسلم أيضاً فى صحيحه ،
وانظر حياة الصحابة : ٤١٦/١ .

(٤) انظر الاستيعاب : ٤٠٨/١ أخرجه ابن أبى شيبة .

وانظر إلى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أراد الهجرة وقد طاف بالبيت سبعاً وأتى جلق أشراف قريش ليقول : شأهت الوجوه ، من أراد أن تشكله أمه ويؤثم ولده ونرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد^(١) .

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد كان من أشجع أصحاب رسول الله - وكلهم شجاع - بارز عمرو بن ودّ وكان أشهر الفرسان ولم يجرؤ أحد أن يخرج إلى مبارزته .. فقتله رضى الله عنه .. وكان شاباً صغيراً ، ثم قد مزحّب اليهودى فى خير مبارزة وكان من أشهر الفرسان وكان من شجعان الصحابة المعدودين : طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وحمزة عم رسول الله وغيرهم كثير ... وقد ساهموا فى نشر الدعوة الإسلامية فى ربوع الجزيرة وأنحاء العالم خلال فترة وجيزة^(٢) لقد تخرج على منهج الإسلام قادة عظام خاضوا معارك فاصلة فى تاريخ العالم ، فخالد بن الوليد بطل اليرموك ، وسعد بطل القادسية ، وأبو عبيدة قائد الفتوح فى الشام .. أخضعوا دولتى كسرى وقىصر ، من أجل إعلاء كلمة : لا إله إلا الله ، خفاقة ، ومن بعدها ينتشر العدل والمساواة .

ومن شاء المزيد فليراجع كتب الفتوحات الإسلامية إذ سيجد نماذج فريدة قلما يوجد لها نظير إلا فى ظل هذا الدين الخالد .

واليوم : ما أحوجنا إلى الشجاعة الصادقة الجادة أفراداً وحكومات لنرفع ما ران على أمتنا من كابوس المحتلين فى أرجاء العالم الإسلامى . ولنحرر النفوس من الذل الذى أحكمت قبضته بالكلمة الصادقة الجريئة ، وبذل المهج رخيصة فى سبيل الله .

(١) انظر : منتخب كثر العمال : ٣٨٧/٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام .

(٢) انظر حياة الصحابة : الجزء الأول فقه تفصيل .

ما أحوجنا إلى أن نرى أجيال الإسلام على العزة والمنعة وإباء الضيم ..
وعند ذلك نتخلص من الميوعة والترهل والتعلق بسفاسف الأمور .

إن الهزيمة النفسية والعسكرية لدى أمتنا في هذا القرن تستدعى
عودة - جادة إلى تربية أجيال هذه الأمة على الرجولة والشجاعة ، بلا تهور
ولا طيش ، ولن ينقذ هذه الأمة مما ران عليها من ذل وتشريد وهلع إلا
الاعتماد على الله تعالى ، ثم بالتفكير الجاد في تغيير واقعنا المرير ، والعيش على
التقشف وحياة الجهاد والبذل والعطاء .

الجرأة في تبيان الحق :

ومن الشجاعة الجرأة في قول الحق ، والصدع به ، لإزالة المظالم
ودحضها .

وقد رَبَّى الإسلام المؤمنين على هذا الخلق ، فكانت منهم ومن
علمائهم المواقف الرائعة ، إذ أصبح هؤلاء العلماء ملاذ الأمة عند
الشدائد .. ولسانها المعبر عن تطلعاتها .

وإن إهمال هذا الواجب لمحبط بالأمة وسبب في غضب الله تعالى .

يقول جل من قائل : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ يَبِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (١) .
بل إن العالم الرباني الذي ينصح الإمام الجائر ويردعه عن ظلمه ،
مكانته مكانة الشهيد إن قُتل .

قال ﷺ : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى أمام
ظالم فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

(١) الأعراف : (آية ١٦٥) .

(٢) رواه الحاكم بسند صحيح .

وقد فهمَ الحكام الصالحون من سلف هذه الأمة هذا الحق وآمنوا به ، فسمحوا للقيام به . بل نجد منهم من يطلب بنفسه من الأمة أن تحاسبه على عمله إن أخطأ

انظروا إلى خليفة رسول الله ﷺ ، أنى بكر الصديق إذ يقول عندما يبيع بالخلافة : « .. إن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأت فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم » .

هذا وإن محاسبة الحكام بالإنكار على أفعالهم المخالفة للشرع لا تعنى الإساءة إلى أشخاصهم ، لأن كل إنسان بعد رسول الله ﷺ معرض للخطأ .. وأنسعيد من وعظ فاعتظ .

وفي سيرة علمائنا صفحات مضيئة في نصيح الأئمة نذكر منها بعض النماذج لتكون نبراساً لعلماء هذه الأمة ورجالاتها ليتضح الحق ، وتسود بضانة الخير من العلماء والصالحين .

وذلك ما فعله عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما يبيع بالخلافة إذ دعا ثلاثة من العلماء الصالحين وهم : (محمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، وسالم بن عبد الله) وجعلهم مستشاريه ، وأشاروا عليه بتقوى الله ، وبما يصلح حاله وحال الرعية^(١) .

ومن المواقف الجريئة ما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع قازان ملك التتار .

وردت الأنباء في أواخر سنة ٦٩٨ هـ بزحف قازان ملك التتر على رأس جيشه نحو حلب .. وكان قد نزع أعيان دمشق إلى مصر حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد ، ولكن شيخ الإسلام بقى صامداً

(١) انظر كتاب : الإسلام بين العلماء والحكام، عبد العزيز البدرى ، منشورات المكتبة العلمية - المدينة المنورة ١٩٨٠ م .

مع عامة الناس ، واجتمع مع من بقى من الأعيان واتفق معهم على تولى الأمور ، وأن يذهب على رأس وفد من الشام لمقابلة قازان ، وقابله في بلدة النبك ودارت بينهما مناقشة عنيفة ، وكلم الشيخ الملك كلاماً قوياً .

ومما قاله لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما غزوا بلاد المسلمين بعد أن عاهدونا ، وأنت عاهدت ففدرت ، وقلتَ فما وفيت^(١) .

وجرت بين الشيخ وبين الملك أمور صدع فيها ابن تيمية بالحق ولم يخشَ إلا الله عز وجل ، وأفرج عن الأسرى بسبب هذا الموقف .

ثم قرب قازان إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية فقليل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهيتهم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟

ولما علم قازان بحال ابن تيمية ، احترامه وطلب منه الدعاء^(٢) .

بمثل هذه المواقف كانت تنجو الأمة من محنها ، وهى جرأة عجيبة ، وإيمان عميق لا يهاب صاحبه إلا الله .

لقد أنقذ ابن تيمية رحمه الله بخسن تديره وثبات جنانه أهل الشام من أزمة شديدة وضياح وفرع غريبين ، ويكثر فى تاريخ هذه الأمة الأبطال المتجردون لله وكان لسلطان العلماء فى زمانه ، جولات وجولات مع سلاطين عصره .

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير : ٧١٨/١٤ .

(٢) انظر مختصر منهاج السنة للذهبي : ص ٢٣٢

كان العز بن عبد السلام قد تولى خطابة جامع دمشق من قبل الملك الصالح إسماعيل في ربيع سنة (٦٣٧ هـ) . ثم عُزل من هذا المنصب بعد عام إثر خطبة ألقاها الشيخ من منبر ذلك المسجد يوم الجمعة ، إذ حاسب فيها الملك على خيائته الشهيرة مع الصليبيين .

يذكر المؤرخون أن الملك إسماعيل خاف من نجم الدين ابن أيوب حاكم مصر ، فتحالف مع الأفرنج الصليبيين ، ليساعده على نجم الدين - وسلم إليهم لقاء هذه المساعدة بعض القلاع والمواقع المهمة ، وأذن للفرنجية في دخول دمشق وشراء السلاح .. كان موضوع الخطبة حول هذه الخيانة ، ثم قطع من الخطبة الدعاء للملك .

وكان إسماعيل غائباً عن دمشق فأخبر بذلك فعزل الشيخ ومنعه من الفتوى ، وأمر بسجنه ثم أفرج عنه .

ثم ارتحل العز بن عبد السلام إلى مصر ، ويذكر السبكي في طبقاته ، أن الشيخ طلع إلى السلطان ، في يوم عيد ، وهو : القلعة في القاهرة ، وشاهد العسكر مصطفىين بين يديه ، ثم التفت إلى السلطان وهو في سلطان وأبهة حكمه وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيع الخمر ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال الشيخ : نعم . الحانة الفلانية ، تباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات : فقال : يا شيخنا ، هذا من أيام أنى . فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة وقد أمر السلطان بإقفال الحانة على الفور^(١) .

هكذا أمر الشيخ بالمعروف فأزال المنكر ، ونصح الملك في دمشق وشهر بسياسته ، ولو نفى من موطنه .

(١) طبقات السبكي .

أما مواقف المنذر بن سعيد ، فلا تَقَلَّ عن المواقف السابقة جرأة وشجاعة وإخلاصاً .

لما بنى الخليفة عبد الرحمن الناصر عمارة الزهراء وقصورها وأنفق على بنائها وزخرفتها ما أنفق .. حتى شغله هذا الأمر عن شهود صلاة الجمعة إحدى المرات وكان المنذر يتولى خطبة الجمعة والقضاء آنذاك ورأى أن ينصح الخليفة ، ويخاسبه على ملأ من الناس وابتدأ خطبته بقوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .. ﴾ (١) .

ومن ثم ذم الإسراف بكلام جزل قوى ، وعلم الخليفة أنه المقصود ، فبكى وندم على تفريطه ، إلا أنه لم يطب نفساً من شدة ما سمع ، فأقسم ألا يصلى خلف الشيخ فى صلاة الجمعة ، وصار يصليها وراء خطيب جامع قرطبة .

تلك هى عقوبة الخليفة الناصر ، إعفاء نفسه من الصلاة خلف الشيخ فى صلاة الجمعة .

وعندما نصحه ولده « الحكم » بعزل الشيخ منذر بن سعيد ، زجره قائلاً : « أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد ؟ » . هكذا كان الأئمة ، وهكذا يكون العلماء ، فى ديار المسلمين .

ولما أنهى الخليفة بناء الزهراء وقبتها (وكانت من عجائب الدنيا) وجلس هو وأقاربه ووزرائه على الديباج وسألهم : رأيتم أم سمعتم ملكاً كان قبلى صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين .

(١) سورة الشعراء : الآيات (١٢٨-١٣١) .

ولما دخل الشيخ وأعاد الخليفة عليه المقالة السابقة قال المنذر ودموعه تنحدر على لحيته : « والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ .. مع ما أتك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فاقشعر الخليفة من قوله وقال له : انظر ما تقول .. فقال : نعم أليس الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾

فوجم الخليفة ونكس رأسه ، وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ثم أقبل على المنذر وقال له : جزاك الله خيراً وعن الدين خيراً ، فالذى قلت هو الحق ، ثم قام من مجلسه ، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها^(١) .

بهذا الموقف تراجع الخليفة عن الإسراف ، فما أحوَجنا إلى علماء صادقين ، وولاة منصفين ، في عصر اختلطت فيه الأمور والمعايير .

(١) انظر : الإسلام بين العلماء والحكام ص ٧٤ ، ٩٣ .

(٥) الزخرف : ٣٣ .

٣ - الغيرة والعفة

كان العرب في الجاهلية يعدون المرأة ذروة شرفهم ، وعنوان عرضهم ، ولذلك فقد تفتنوا في حمايتها واحفاظة عليها ثم الدفاع عنها زوجة وابنة ، أمأ وأختاً ، قريبة وجارة ، حتى يظل شرفهم سليماً من الدنس ، وعرضهم بعيداً من أن يمس .

ولم يكن شيء يثير القوم كالاغتداء على نسائهم أو المساس بهن ، ولذلك كانوا يتجشمون في سبيل الدفاع عنهم كل صعب ولا يضنون بأى غال .

كانت الغيرة على الأعراض تولد مع القوم ، فكأنهم أرفعوها فعلاً مع لبان الأمهات (١) .

وفي بيئة كهذه قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف ، كان لابد للرجال والنساء من العفة والتعفف ، لأن العدوان على العرض يجز الويلات والحروب ، فلا بد من الغيرة على العرض حتى لا يمس أو يخذش .

« لقد كان العرب أغير من غيرهم (٢) : لأنهم كانوا أشد الناس حاجة إلى حفظ الأنساب .. حيث أن ثوران الغضب حماية لإكرام الحرم .. ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، وضعت الصيانة في نسائها ، وقد وصل العرب في الغيرة أن جاوزوا الحد ، حتى أنهم كانوا يعدون بناتهم مخافة لحوق العار بهم من أجلهن وأول قبيلة وأدت من العرب

(١) المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : ص ٣٥٠ .

(٢) انظر بلوغ الأرب : الألوسى ، ١/١٤٠-١٤٣ .

ربيعة ، وذلك أنهم أُغِيرَ عليهم وُثِّبَتْ بنت لأُمير لهم ، فاستردها بعد الصلح ، وَخَيْرَتْ رضى منها بين أبيها ، وَمَنْ هى عنده ، فاختارت مَنْ هى عنده ، فغضب والدها ، وَسَنَّ لقومه الوأد ففعلوه - غيرة منهم وشاع الوأد فى العرب بعد ذلك .

ومن نخوة العرب وغيرتهم ، أنهم إذا اضطروا للحديث عن نسائهم ، كَتَبُوا عَنْهُمْ بِالْبَيْضِ ، وقد جاء القرآن الكريم بذلك فقال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ .

وقال امرؤ القيس : « وبيضة خدر لا يُرام خباؤها .. » ويكونون عن المرأة بالنَّخْلَةِ :

ألا يا نخلة بذات عرق عليك ورحمة الله السلام
ويكونون عنها أيضاً : بالسَّرْحَةِ والشَّاةِ ، والعرب تجعل المهابة شاة لأنها عندهم صائنة الطباء ، ولذلك يسمونها بالنَّعْجَةِ . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً ﴾ سورة : ص الآية ٢٣ .

ومن نخوة العرب وغيرتهم ، أنه كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال ، ثم العضاريط^(١) والرَّعَاء ؛ ثم النساء إذا صدرت كل الفرق المتقدمة ، حيث يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمناً ممن يزعجهن ، فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل ، وإلى ذلك أشارت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب بقولها :

ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم^(٢)

(١) العضاريط : جمع عضروط وهو الخادم على طعام بطنه والأجير .

(٢) يقال ترمل وارتمل : إذا تلطخ بالدم وجعلت النساء متلطخات بدم الحيض تفضيعاً

للأمر ، بلوغ الأرب : ص ١٤٣ .

وكان للمغيرة عند العرب مظاهر كثيرة منها^(١) :

أ - حُبهم لعِفَّة النساء عامة ونسائهم خاصة ، ومنها حُبهم لحِيائهن وتسترهن ووفائهن ووقارهن . ففى مدح عفتن يقول سويد بن أوى كاهل اليشكرى^(٢) :

تُسمعُ الحداث قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يُسمع
فهى تجود على جلسائها بخديث حسن ، ولا أمل لهم فى غير هذا الحديث .

وقد أشاد الشعراء بعِفَّة الحبيبات وتمنعن ووفائهن قال علقمة بن عبدة^(٣) :

منعمة ما يُستطاعُ كلامها على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حين يثوب
ومن أجمل ما قيل فى خفر النساء وعفتن قول الشنفرى الأزدى فى غزله^(٤) :

لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
أميمة لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى أب قررة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت

(١) انظر : الحياة العربية للحوق : ص ٣٦٢-٣٦٦ ، والمعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى : ص ٣٦٥، ٣٥٠ .

(٢) المفضليات : رقم (٤٠) ص ١٩٢

(٣) المفضليات رقم ١١٩ ص ٣٩١ .

(٤) المفضليات : رقم (٢٠) ص ١٠٩ ، والنشاما أخبرت به عن الرجل بن حسن

أويسى ، الحليل : الزوج ، والشاعر يعتبر من الصعاليك الفتاك .

ب - وكان من مظاهر الغيرة عندهم : ستر النساء ومنعهن من الظهور أمام الرجال .

يقول الأفوه الأودي مشيراً إلى أن أعداءهم لا يتمكنون من رؤية نسائهم ، في حين أن نساء عدوهم تسبى :

نقاتل أقوماً فنسبى نساءهم ولم يرَ ذو عزٍّ لنسوتنا جِجلاً^(١)

ج - وكانوا يتواصلون بالدفاع عنهم : يقول عمرو بن معد يكرب^(٢) :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعاً
بل وصل الأمر ببعضهم أن يوصى زوجته بألا تزوج بعد مماته : قال
أحد بني يشكر^(٣) :

أخبرى بالذى تريدن بعدى والذى تضمرين يا أم عقبه
تحفظيني من بعد موتى لما قد كان منى من حسن خلق وصحة
أم تريدن ذا جمال ومال وأنا فى التراب فى سحق غربة

ء - على أنهم كانوا يفخرون بغض البصر عن الجارات ، ويعتبرون ذلك من العفة والغيرة على الأعراض .

إن كشف الستر بجراح النظرات وهتك الأعراض بخائنة الأعين
وفضح الأسرار باستراق السمع لا يترقع عنه إلا كل عفيف .

(١) الأغاني : طبعة دار الثقافة ، ١٦٥/١ .

(٢) ديوانه : ص ٤٧ .

(٣) ذيل الأمالي والنوادر ص ٢٠١ .

وقول عنترة^(١) :

ما استمتُّ أنثى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها
أغشى فتاة الحى عند حليلها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغضَّ طَرْفى ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

فالشاعر لن يراود أنثى عن نفسها طلباً للحرام ، وإنما يتزوجها بعد دفع مهرها لوليها ، وهو قد يزور الفتاة واصلاً لرحمها مادام زوجها موجوداً ، فإذا ما غزا لن يتردد عليها محافظة عليها وصيانة لعرسها وعرضه .

هذه بعض مظاهر الغيرة عند العرب ، وأمرها يطول لأن الغيرة كانت من أهم سجايهم ، وكانت تقوم بسببها الحروب ومن أمثلة ذلك ، ما قامت لأجله حرب الفجار الأولى عندما تحرشَ فتيان من قريش وكِنانة بامرأة من قَيْسِ عَيْلان في سوق عُكاظ .

وإنها لأخلاق كريمة ، بعث نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام ليلمحها ويقوم ما انحرف منها ، وهى سجايا رفيعة يعجز كثير من الناس في جاهلية اليوم ، أن يحافظوا على أمثالها .

وكان من أخلاق العرب أيضاً العفة في المغام وفي الأموال والمطاعم .
يقول الحادرة^(٢) :

إنا نعف فلا تُريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المطمع
يقول عنترة :

يخبرك من شهد الواقعة أنسى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

(١) الديوان : ص ١٨٥ ، شرح الأستاذ عبد المنعم شلبي .

(٢) ديوانه : ص ٥١ تحقيق د. ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت ١٩٧٣ م .

وكانوا يعتبرون الترفع عن الدنيا من العفة . يقول الأصم الكلبى^(١) :

أصم عن الخنا إن قيل يوماً وفي غير الخنا ألفى سمياً
وقبله قول حاتم الطائي^(٢) :

وما ضرَّ جاراً يا ابنة القوم فاعلمي يجاورني ألا يكون له سترُ
بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقرُ

(١) معجم الشعراء : ص ٢٥٨ للمرزباني ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ م .

(٢) ديوان حاتم : ص ٥١ ، دار صادر وبيروت .

الغيرة والعفة في نظر الإسلام

كان هذا الخلق من الأخلاق الحميدة في الجاهلية ، وقد حمده الإسلام فيهم ، وشجع المسلمين على الغيرة ذلك أنها إذا تمكنت من النفوس في إحدى المجتمعات كان كالطود الشاوخ حمية ودفاعاً عن الأعراض ، أما إذا فترت تلك الغيرة في النفوس فسيصبح المجتمع هشاً ضعيفاً أمام الحوادث .. .

والمؤمن الحق غيور بطبعه ، عفيف بسجيته ، مراعياً أحكام دينه .. وذلك ما كان من غيرة سعد بن عباد رضي الله عنه عن المغيرة رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري في صحيحه أن سعد بن عباد رضي الله عنه قال بين يدي رسول الله ﷺ كلاماً دل على غيرته الشديدة ، فقال النبي ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني »^(١) إن هذه الغيرة على المحارم والأعراض تنبثق من غيرة رب العباد ، وتمثل في خاتم المرسلين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ

الأعراف : ٣٣ .

ويقول ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرّم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن »^(٢) .

(١) صحيح البخاري : كتاب النكاح - باب الغيرة - وانظر : فتح الباري :

٣١٩/٩ .

(٢) رواه الشيخان : (واللفظ لمسلم) ، كتاب النكاح و البخاري وفتح الباري

٣١٩/٩ ، وصحيح مسلم : ك التوبة : ٢١١٤/٤ .

مظاهر الغيرة في الإسلام

١ - من هذه المظاهر : أن الله فرض على المسلمات ستر مفاتهنّ وعدم إبداء زينتهن لغير المحارم . .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ^(١) ويقول جل من قائل : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ » سورة الأحزاب : ٣٣ .

٢ - ومن غيرة الإسلام أيضاً أنه حرّم الدخول على النساء لغير المحارم ، كما حرم الخلوة بهن .

قال ﷺ : « إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أرأيت الحمى ؟ قال : الحمى الموت » ^(٢) والحمى : أخو الزوج وما أشبهه من أقاربه .

إن الإسلام اتخذ كل وسيلة لمنع الفتنة ، يقول رسول الله ﷺ وهو على منبره : « لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان » ^(٣) .

(١) سورة النور : ٣١ .

(٢) مسلم بشرح النووي : ١٥٣/١٤ .

(٣) مسلم بشرح النووي : ١٥٥/١٤ .

٣ - ومن مظاهر هذه الغيرة : الحياء ، وقد حثَّ عليه رسول الله ، قال ﷺ : « الحياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ »^(١) وقد كمل خلق الحياء في سيرته ﷺ ، يقول أبو سعيد الخدري : « كان النبيُّ أشدَّ حيَاءً من العدرَاء في خدرها »^(٢) والحياء من الإيمان ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال الرسول ﷺ : « دَعُهُ فَإِنَّ الحياءَ من الإيمان »^(٣) وعن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير »^(٤)

هذا الحياء الذي يصون العفاف ، ونَحْتَقُّ به سلف هذه الأمة رجالاً ونساء ، تحاول الجاهلية المعاصرة أن تنتزعه من نفوس الفتيات .

ذُكر في كتاب وافعنا المعاصر : « بينما تابعت الصحافة قضية الفتاة الجامعية وهي تشق طريقها الصاعد الذي تدوس فيه كل المقدسات كي تصل إلى النور ! لقد أوصت هذه الصحف الفتاة الجامعية بقولها :

حذار أن تعصّي بصرك ! فغض البصر معناه عدم الثقة بالنفس ، وهو من مخلفات القرون الوسطى المظلمة فتغض الفتاة هناك بصرها ! أما أنت يا حامية الراية فارفعي رأسك عالياً ، لتبتي أنك مساوية للرجل في كل شيء ... شيئا ينبغي أن تحرر منها الفتاة الجامعية : عض البصر ... والحياء »^(٥) .

(١) أخرجه مسلم : ٧/٢ - نووى)

(٢) البخارى : ٥٦٦/٦ مع الفتح ، ومسلم بشرح النووي : ٧٨/١٥ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) وإخرائطى في مكارم الأخلاق ص ٤٩ والضرابى في الصغير (١٣/١-١٤) من حديث أس رضى الله عنه وإسناده حسن إن شاء الله وانظر (رسالة الحياء : سليم الهلالى ص ٢٤)

(٤) أخرجه البخارى : ٥٢١/١٠ - الفتح ، (ومسلم : ٧-٦/٢ نووى) .

(٥) وافعنا المعاصر الأستاذ محمد قطب ص ٢٨٨

٤ - ومن مظاهر الغيرة والعفة : غَضُّ البصر قال تعالى : ﴿ قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ .. ﴾ (١)

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية :

« إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تُهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين . فعمليات الاستشارة المستمرة تنتهى إلى سَعار شهوانى لا ينطفىء ، ولا يرتوى ، فالنظرة الخائنة ، والحركة المثيرة والزينة المتبرجة ، والجسم العارى .. كلها لا تصنع شيئاً إلا تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون . ! »

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دور هذه الاستشارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليماً .. » (٢) .

وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة فى الاطلاع على المحاسن والمفاتن ، كما أنَّ فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية .. (٣) .

واهتمت الأحاديث الشريفة بالتحذير من نظرة العين التى يراد بها السوء . قال ﷺ مُحَذِّراً من كل وسيلة محرمة : « زنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطى ، والنفس تَمْنَى وتشتهى والفرجُ يُصَدَّق ذلك أو يُكذَّب » (٤) .

(١) سورة النور : ٣٠ .

(٢) فى ظلال القرآن : (٤/٢٥١٠-٢٥١١)

(٣) فى ظلال القرآن : (٢٥/٢)

(٤) رواه البخارى ، كتاب الاستئذان ، وانظر فتح البارى : ٢٦/١٩

وقال الشاعر محذراً من أثر النظرات المسمومة :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر

وقد دعا الإسلام إلى محاربة النفس من أجل عفتها حتى تقاوم الشهوات عموماً ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فالصورة الحلوة التي تتطلبها للمجاهدة هي أن يقيم الإنسان المؤمن من إرادته وعزيمته ومراقبته على نفسه ما يصدّه عن الحُنا والأذى ، وما يربطه على الدوام بالتقى والهدى ، وما يجعله يقاوم الشهوات والأهواء ، دون أن يحرم ما أحل الله (٢) . والمجاهدة تبعث على الاطمئنان والراحة والإيمان . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركها مخافتى أبدلتها إيماناً يجدد حلالوته في قلبه » (٣) والغيرة لها حد ، إذا جاوزته صارت تهمة وظناً سيئاً بالبريء ، وإذا قصرت عنه كانت تغافلاً ومبادئ ديانة (٤) .

(١) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٢) أخلاق القرآن : الشرباصى ، ١٧٣/٣ ، ١٧٨ .

(٣) رواه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة وقال : صحيح الأسناد . وقال الحافظ (المنذرى) أخرجه من رواية عبد الرحمن اسحق الواسطى وهو واه . ينظر الترغيب والترهيب ج٣/ص ٣٤ .

(٤) الفوائد : ابن القيم الجوزية ، ص ٣٨

فعن جابر بن عتيك أن نبي الله ﷺ قال : « من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة .. » (١)

العفة : وتعتبر من أهم مظاهر الغيرة الحقيقية ، وهي لا تقتصر على المحارم خاصة ، ولكنها تشمل جميع المحارم إذ تغار عليها ونعف عنها .
ولذلك كان من مظاهر العفة عند المسلمين غض الأبصار كما كانت كذلك عند عدد من أهل الجاهلية .

ولذلك فرض الإسلام أدب الاستئذان على الزائرين قال تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ النور : ٢٧ وهو أدب جديد على العرب قبل الرسالة
ويقول ﷺ : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حلّ خم أن يفقهوا عينه » (٢) .

على أن العفة التي دعا إليها الإسلام لا تقتصر على الأمور الجنسية ، فقد تجاوزها إلى عفة اللسان ، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق : ١٨ .

وحرم بذاءة اللسان . قال ﷺ : « فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق » (٣) .

(١) مشكاة المصابيح : ٩٩١/٢م (رقم ٣٣١٩)

(٢) أخرجه الإمام مسلم : (١٣٨/١٤) - نووى

(٣) فتح الباري : كتاب الاستئذان ، والفتح : ٢٦/١١

ودعا إلى عفة في المطعم ، فالمسلم لا يأكل إلا حلالاً ، ولا يأكل إلا من عمل يده إذ يترفع عن المسألة : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن بى الله داود كان يأكل من عمل يده » (١) .

الغيرة في حضارة القرن العشرين :

الغيرة من أخلاق العرب ، وشيم المسلمين النبيلة ، وبديهيات ديننا الحنيف ، إلا أن هذه السجايأ بدأت تضمحل في ديار المسلمين مع الأسف ، مع هجمة الغزو الفكرى ، وأخلاق الحضارة الوافدة .

ابتعدت مجتمعاتنا - إلا من رحم الله - عن الواقع النظيف الطاهر وانحدرت إلى سفح هابط مريب .

لقد أصبح الاختلاط عادياً بين الأسر - التقدمية - حيث الأحاديث المشتركة والموائد المختلطة ، والملابس العارية الفاضحة .

أصبح أمراً لا يستغرب ، أن يتأبط المسلم المتحرر (من أخلاق دينه) ذراع زوجته العارى ، بملابسها المكشوفة ويتجول فى الأسواق ، شأن أهل الديانة فى حضارة الغرب المنحل أو الشيوعى الملحد .

ولو نظرنا إلى الشواطىء فى كثير من بلاد المسلمين حيث الأجساد العارية ، وكتل اللحم البشرى الرخيصة ! لها لنا ما توصلنا إليه بعد مجتمع الطهر والعفة والحياء . حتى المدارس والجامعات ، معاهد العلم والتوجيه أصبحت مختلطة بين المراهقين والمراهقات من رواد العلم .. فى كثير من بلاد المسلمين .

(١) صحيح البخارى : كتاب البيوع ، والفتح : ٣٠٣/٤ . وانظر : العفة فى المعتقدات والقيم ص ٧٨٩ وما بعدها .

ناهيك عن مخيمات الترويح الصيفية فقد أصبحت مختلطة حيث ينام الشبان والشابات ، في الفتوة ومنظمات الشبيبة في العديد من ديار المسلمين ، التي غزتها الأنظمة اليسارية أو الباطنية وصارت الدعوة علنية إلى هذا المجون الهابط ، في الصحف والمجلات .

كتب إحسان عبد القدوس في إحدى توجيهاته التي كان يثبها في مجلة روزاليوسف : « إنتى أطالب كل فتاة ، أن تأخذ صديقها في يدها وتذهب إلى أبيها وتقله له : هذا صديقى »^(١) .

إن الغيرة ماتت في النفوس ، حتى يأتى أمثال هذا ليوجه نصائحه إلى بنات المسلمين .

وما يزال الانحدار شديداً نحو السفح الهابط ، وما نراه في المطارات من مظاهر العري ، وأساليب الاستقبال والمعانقة - ولو كانوا من ذوى القرى - بين الرجال والنساء علناً أمام الناس ، ليجعل الخليم حيران .. وقد يترحم على غيرة العرب في جاهلتيهم فما بالك بستر الإسلام وواقعه الطاهر النظيف ؟! أما في حالة الحروب فحدث ولا حرج ، عن انتهاك الأعراض ، حتى بين بلدان العرب والمسلمين خلال حروبهم الطائفية أو الإقليمية .

قد يظن بعض المخدوعين بحضارة الغرب أو الشرق أن ما يقومون به هو من قبيل التقدمية والتحضر ، ولكن هذا لا يعتبر تقدماً بل هو تخلف وهمجية .

« فحين تكون القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ، هي السائدة في المجتمع كما يريد لها ميزان الله ، فإن هذا المجتمع يعتبر متقدماً متحضراً .. أو بالاصطلاح الإسلامى يكون مجتمعاً ربانياً مسلماً .. »

(١) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ص ١٩٤

ذلك أن القيم والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة ولا مائعة ،
ولا متغيرة ...

والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق الحيوانية لا يمكن أن تكون
مجتمعات متحضرة مهما بلغت من التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى !.
إن المجتمعات الجاهلية الحديثة ، ينحسر فيها المفهوم الأخلاقى بحيث
تتخلّى عن كل ماله علاقة بالتمييز الإنسانى عن الحيوان .

ففى هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية ، ولا
حتى العلاقات الجنسية الشاذة رذيلة أخلاقية .

فالمفهوم الأخلاقى ينحصر فى المعاملات الشخصية أو الاقتصادية
والسياسية أحياناً وفى حدود مصلحة الدولة ! ..

فمثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة من وجهة النظر
الإنسانية .. وهى كذلك غير إسلامية لأن خط الإسلام هو خط تحرير
الإنسان من شهواته وتنمية خصائصه الإنسانية وتغلبها على نزعاته
الحيوانية ^(١)

فإلى كل غيور على دينه وعرضه ، أسوق هذه المفاهيم على أنه لا بد
من تربية جادة مستقيمة ، تعتمد على قيم هذا الدين وتصوراته وأخلاقه ،
بعد أن ابتعدنا عنها ، تحت ضعف الوازع الدينى ، أو ضغط التصورات
الفاسدة والعادات الوافدة .

(١) فى ظلال القرآن : ١٢٥٨/٣

٤ - الوفاء عند العرب

كان الوفاء من الأخلاق الأصيلة عند العرب ، فالرجل منهم قد ينطق بالكلمة فتصبح عليه عهداً لا بد أن يفي به وإلا عرّض شرفه للتجريح

وكان الغدر معرة يتجافون عنه ، وإذا ما غدر أحدهم رفعوا له اللواء بسوق عنكاظ ليشهروا به وفي ذلك يقول الحادرة « قطبة بن محص »^(١) :

أسمي وينحك هل سمعت بغدرة رُفِعَ اللّواء لنا بها في مجمع
إنا نعرف فلا تريب حليفنا ونكف شح نفوسنا في المظمع

فهم لم يغدروا وإنهم لن يأتوا ما يشكك حبيبتهم منه

وقد كانوا أوفياء في نصر الحلفاء ، والدّبّ عن الخيران

وقد كان هذا الخلق متعدد الأشكال والألوان ، فوفاء لمن يجاورون ، ووفاء لمن يعاهدون ، ووفاء لمن يحبون ووفاء لمن يصنع معهم معروفاً^(٢)

وخير مثال على رعاية العرب لأماناتهم ، ووفائهم ما فعله عبد الله بن جُدعان ، لما هاجت الحرب بين كنانة وهوازن^(٣) إذ جاء حرب بن أمية إليه وقال له : احتبس قبلك سلاح هوازن . فقال عبد الله : أبالغدر تأمرني يا حرب !! والله لو أعلم أنه لا يبقى منها إلا سيف وقد ضربت به ، ولا رح إلا وطعنت به ، ما أمسكت منها شيئاً

(١) المفضليات . ص ٤٥ رقم (٨) .

(٢) انظر هذا الموضوع في : الحياة العربية النحوي (٣٥٨-٣٦٠) والمعتقدات والقيم في

الشعر الجاهلي : (ص ٣٧٠-٣٧٤)

(٣) حرب الفجار

وبسبب وفاء ابن جدعان ، كانت العرب إذا قدمت عكاظاً دفعت أسلحتها إلى عبد الله حتى يفرغوا من أسواقهم وحجّهم ثم يردها عليهم إذا طعنوا من مكة إلى مضارب قومهم^(١) .

ومن وفاء القوم المشهور : موقف السموأل عندما ضحّى بولده يقتل أمام عينيه ، على ألا يسلم سلاح امرئ القيس لخصومه ومن قوله في ذلك^(٢) :

وَقَيْتُ بِأَدْرَعِ الْكَنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا خَانَ أَقْوَامَ وَفَيْتُ
وَقَالُوا : إِنَّهُ كَنْزٌ رَغِيبٌ فَلَا وَاللَّهِ أَغْدِرُ مَا مَشَيْتُ

ومن أنواع الوفاء : وفاء العربى لأهل عصبته ، فليس له أن يخالفهم مهما كانت درجة الخلاف معهم ، لأنه واحد وهم جماعة ، فما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه سيؤثر حتماً في جماعته ، وقد عاب الناس الغادر وعيروه به فإذا شتموا شخصاً قالوا له : يَا غُدْرُ^(٣) .

وقد عُدَّ الوفاء محمداً وواجباً ، عليهم أن يؤكدوه برهن قد يكون ثميناً مثل أبناء سادات القبائل ، يقدمونهم رهينة لدى الملوك ضماناً لهم في مقابل وفائهم بما تعهدوا به للملك ، وقد يكون شيئاً لا قيمة له من الوجهة المادية كرهن قوس أو سهم .. أو الوفاء بسبب استجارة إنسان بقر .. الخ .

وما كانت أخلاقهم هذه نظرية صورية ، وإنما كانت واقعاً ضربت به الأمثال .

(١) انظر الأغاني : ٦٦/٢٢ ، طبعة دار الثقافة ، هـ .

(٢) ديوان عروة والسموأل : ص ٨٠ .

(٣) جواد على : ٤٠٢/٤

ومن القصص الشهيرة في الوفاء : قصة الطائي الذي وفى للنعمان وعاد معرضاً نفسه للقتل^(١)

كان النعمان بن المنذر قد ألجأته الأمطار إلى منزل هذا الرجل في البادية وهو لا يعرفه ، وأكرمه دون سابق معرفة .

و عندما خرج النعمان قال لمضيفه : يا أخا طيء اطلب ثوابك : أنا النعمان .

وأصاب الطائي نكبة وبلاء وساءت حاله بعد ذلك . فذهب إلى النعمان إلا أنه وافق يوم يؤسه ، وكان لا بد من قتله كما جرت عادة النعمان . ثم سأله الملك حاجته من الدنيا .. فطلب أن يؤجله عاماً ليوصى لأهله ويهيئ حاله .. وكان للنعمان يومان في السنة ، يوم يؤس ويوم نعيم قال النعمان : فأقم لي كفيلاً بموافاتك ... نظر الطائي حوله وإذا برجل من قبيلة كلب يثب إليه ، يقال له : قراد ابن أجدع .. وقال للنعمان : أبيت اللعن هو عليّ .. ورجع الطائي لأهله ، ولما حال الحول ، وبقي من الأجل يوم قال النعمان لقراد : ما أراك إلا هالكاً غداً فقال قراد :

فإن يك صدر هذا اليوم وليّ فإن غداً لناظره قريب

وفي صباح اليوم الثاني ، ركب النعمان في خيله ورجله متسلحاً ، كما كان يفعل حتى أتى الغرين^(٢) ومعه قراد وأمر بقتله .. فقال له وزراؤه ليس لك ذلك حتى يستوفى يومه .

(١) انظر : بلوغ الأرب : ١٣٠/١ ، وأمثال لبيداني : ٩٧/١

(٢) الغريان : بناءً على طوليان يقال هما قبراً مالك وعقيل ندمي النعمان قتلها في حالة سكر فندم وصار يقتل من يأتيه في ذكرى يوم يؤسه هذا ويطلق بدمه ، (بغري) القبرين (بلوغ الأرب) .

وبينما كان قراد مجرداً قائماً في إزار والسياف إلى جنبه ، أقبلت امرأته وهي تقول :

أيا عينُ بكى لي قراد بن أجدعا رهيناً لقتل لا رهيناً مودَّعا
أنته المنايا بغتة دون قومه فأمسى أسيراً حاضراً البيت أضرعاً

وبينما هم كذلك إذ أقبل الطائي وقد شق على النعمان مجيئة فقال له :
ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال الوفاء .

فقال النعمان : والله لا أكون ألأم الثلاثة ، وعفا عن قراد وعن
الطائي وقال : والله ما أدرى أيهما أوفى وأكرم وأمر بهدم الغرين وأنشد
الطائي :

إني امرؤُ فني الوفاء سجية وجزاء كل مكارم بذالى
ولقد دعتني للخلاف ضلالتى فأبيت غير تمجدى وفعالى

إنها قصص فريدة ، تبعث على الدهشة والإعجاب .

ومن ضرب بوفائه المثل : عمير بن سلمى الحنفى .

كان قد استجار به رجل من بنى عامر بن كلاب ، وكانت معه امرأة
جميلة ، فرآها أخو عمير « قرين بن سلمى » وصار يتحدث إليها ، فنهاها
زوجها بعد أن علم فانتهت .. ولما رأى قرين ذلك وثب على زوجها وقتله ،
وعمير غائب فأتى أخو المقتول قبر سلمى وعَازَ به .

ولما قدم عمير أخذ أخاه وأتى إلا قتله ، أو أن يعفو أخو المقتول ،
فأتى أخذ الدية ولو ضوعفت ، فأخذ عندئذ عمير أخاه وقتله لغدره وفاءً
لجاره^(١) .

(١) المحرر ص ٣٥٢ لابن حبيب ، وجواد على ، ٤٠٦/ .

كان الجاهلي إذا قال كلمة وفي بها ، مهما كَلَّفَتْهُ من غناء ولو أدت إلى قتله أو قتل قريب عزيز عليه .

على أن ذلك لم يَنسَف به عامة العرب آنذاك ، وإنما كان الغدر منتشرأ ، وعدم الوفاء بالعهود معروفاً ، يقول امرؤ القيس مثلاً في انتشار الغدر^(١) بين بعض القوم :

إذا قات هذا صاحبٌ قد رضىته وقرت به العينان بدلتُ آخرأ
كذلك جدى ما أصحاب صائباً من الناس إلا خائنى ونغيرأ
ويقول أوس بن حُجْر^(٢) :

وإني رأيت الناس إلا أقلهم خفاف العهود يكتثرون التثقال
حتى أن بعضهم كان يعد الغدر شجاعة ويعد الذين لا يغدرون من الجبناء . قال النجاشي يهجو بنى العجلان^(٣) :

قبيلةٌ لا يغدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل
هذا عن الوفاء في الجاهلية ، فماذا عنه في الإسلام ؟ ذلك ما سوف تجلوه الصفحات القادمة ...

(١) الديوان ص ٦٩ وانظر ظاهرة الغدر ص ١٠٩ المعتقدات والقيم .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢٠٨/١ .

(٣) العمدة لابن رشيق ٥٢/١ .

الوفاء في الإسلام

إن الوفاء الذي كان في الجاهلية يتمثل في حفظ الجوار ، والبعد عن نقص الأحلاف ، أو خيانة الأمانة تحول في الإسلام إلى حفظ العهود ، وأداء الأمانات سواء كانت للصدیق أم للعدو ، وذلك استجابة لأوامر الله جل وعلا ، وتأسياً بسيرة المصطفى ﷺ

وقد نحدث كتاب الله جل وعلا عن الوفاء في مواطن كثيرة ، وامتدح الأوفياء إذ يقول جل من قائل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. ﴾

لا أحد أوفى بعهده من الله ، فهو القادر المتمكن من الوفاء ، وجعل القرآن فضيلة الوفاء من صفات الأنبياء عليهم صلوات الله فقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ النجم : ٣٧ وذلك أن إبراهيم عليه السلام بذل غاية جهده في كل ما طُوبى به من ربه بذل ماله في طاعة الله ، وقدم ولده إسماعيل قرباناً لله حتى فداه الله .. وقاوم الشرك والوثنية واحتمل ابتلاء الإحراق بالنار في سبيل الله ، إلى غير ذلك من ألوان الوفاء .

وأشار القرآن إلى وفاء إسماعيل عليه السلام في قوله : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ «مریم : الآية ٥٤» كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام مشهوراً بهذه الصفة وحسبنا أنه وعَدَ بالصبر على الذبح وقال لأبيه : ﴿ افْعَلْ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴾ ولقد وفى بعهده وصدق في وعده وكان من المخلصين ^(١)

(١) انظر أخلاق القرآن الشريفة ، ١٩٤/٢ وما بعدها

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة من الوفاء في أقواله وأفعاله .

ومن أمثلة وفائه ﷺ ، موقفه يوم الفتح من عثمان بن طلحة حاجب الكعبة أيام الجاهلية . قال ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة رحمه الله : « ثم جلس رسول الله ﷺ فقام إليه على بن أبى طالب ، ومِفْتَاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ .

فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بُرٍّ ووفاء » (١) .

نعم إن البر والوفاء من أخلاقه عليه الصلاة والسلام ومن أخلاق رسل الله ، ثم من صفات المؤمنين الصادقين .

بل إن رسول الله ﷺ ، اعتبر أن الإخلاف بالوعد ، من أسوأ الصفات ومن صفات المنافقين ، ففي الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حَدَّثَ كَذِباً ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أُوْتِمِنَ خان » (٢) .

لقد علّمنا الإسلام أن نكون أو فِياء حتى في ساعات العُسرة ، ومع الأعداء

« وفي صلح الحديبية عندما جاء أبو بَصِير هارباً من مكة وتبعه رجلان من قومه يطلبان رَدَّه إليهم ، أبى النبي ﷺ إلا أن ينفذ شروط الصلح مع المشركين ، رغم تألم أبى بصير من أن رَدَّه إلى المشركين قد يفتنه

(١) زاد المعاد : ٢/٢٩٥ تحقيق محمد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة

١٩٥٢ م .

(٢) مسلم مع الشرح ٤٦/٢ .

في دينه إلا أن رسول الله ﷺ قال له : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت من العهد ، ولا يصلح في ديننا العذر ، وإن الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً »^(١)

النفس تتطلع إلى الفرج والمخرج ، ومحال أن يتحقق ذلك إلا بالوفاء حتى مع العدو : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ .. » « سورة الأنفال : آية ٥٨ »

وقد حقق الله تعالى ظن رسوله وجاء الفرج بعد قليل ، إذ وُجد هؤلاء المستضعفين الفرج والمخرج .

وقصة أبي جندل في الحديبية ، عندما جاء بجرحه هارباً بدينه ، يُرد إلى قومه بسبب العهد الذي اتفق عليه ، رفضاً لأي غدر مهما عظمت التضحيات^(٢) .

واحتدى أصحاب رسول الله ﷺ بأخلاق رسول الله ، ومن روائع هذا الوفاء : قصة الصحابي الجليل أنس بن النضر رضي الله عنه في غزوة أحد فيما رواه البخاري رحمه الله . روى أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس ابن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !!

فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعترض إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها من دون أحد !!^(٣) قال أنس : فوجدنا به

(١) انظر السيرة النبوية : (ابن هشام ٢/ص ٣٢٣) .

(٢) المصدر السابق ، والرحيق المختوم للشيخ عبد الرحمن المباركفوري ص ٣٨٥ -

طبعة مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ

(٣) بنظر الإصابة ج ١ ص ٨٦

بضعاً وثمانين ، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخوته بشامة فيه أو بيناته .

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ سورة الأحزاب : ٢٣

هكذا يكون الوفاء ببذل النفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود

هذا وإن الوفاء بالعهد يشمل الوفاء بمختلف أنواع العهود بين الناس ، سواء أكان عهداً مادياً أم معنوياً ، ولكن أعلى العهود وأجدرها بالرعاية والعناية هو عهد الله جل جلاله ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴿

ولعل أجمع الآيات القرآنية لأنواع الوفاء قوله جل وعلا : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ سورة : المائدة ١

ولذلك قال السيد رشيد رضا : إن أساس العقود الثابت في الإسلام هو هذه الجملة البليغة المختصرة المفيدة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ لأنها تفيد أنه يجب على كل مسلم أن يفي بما عقده وارتبط به ، فكل قول أو فعل يعده الناس عقداً فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام (١)

والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ولا تقوم إنسانية

(١) عن أخلاق القرآن : الشرباصي ٢٠٨/٢

وقد شدد الإسلام في هذه المسألة ، فلم يتسامح فيها أبداً لأنها قاعدة الثقة التي ينمط بدونها عقد الجماعة ويتهدم^(١) قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾^(٢)

الإسلام يحارب الغدر والخيانة .

وإذا كان القرآن والسنة قد مجدا فضيلة الوفاء كل هذا التمجيد ، فإنهما قد حملا حملة رادعة على الخيانة والغدر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ « الأنفال : ٥٨ » وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ « الحج : ٣٨ » وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ « الأنفال : ٢٧ »

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدرأ من أمير عامة »^(٣) فالوفاء من صفات الكرام الأحرار والغدر من صفات اللثام الفجار ، فلينظر كل امرئ أين يكون .

وإن الوفاء أيا كان ، واجب شرعى مع جميع من نتعامل معهم : الأصدقاء والأعداء ، مع الزوجة والولد ، مع الصديق والقريب مع الجيران وعامة الناس .. إذ يجب على المسلم أن يكون نموذجا صادقا مع هؤلاء في أخلاقه ووفائه

ومن أولى الناس بالوفاء من تربطنا بهم صلات مودة ومعايشة كالأهل والإخوة ، وأهل الفضل علينا من أصحاب الحقوق والمشايخ والمربين .

(١) في ظلال القرآن : ٢١٩١/٤

(٢) سورة النحل ٩١

(٣) رواه مسلم : ينظر مشكاة المصابيح ٣٧٢٧ هـ

كما أن الإسلام حرم اتخاذ المصلحة سبباً في نقض العهد ، ولو مع الأعداء

« وما يسمى الآن بمصلحة الدولة ، ونقض العهد لهذا السبب أمر لا يقره الإسلام ، بل ويجزم بالوفاء بالعهود ... وعلى هذا الأساس قام بناء الجماء ، الإسلامية ، وبناء الدولة الإسلامية .

لقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهودهم ، ومن صدقهم في وعودهم .. ومن إخلاصهم في إيمانهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم ..

لقد نرك القرآن والسنة في نفوس المسلمين أثراً قوياً وطابعاً عاماً ، هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز .. »^(١)

ومن روائع الوفاء بالعهود ما جرى لأهل حمص مع الصحابي الجليل أنى عبيد بن الجراح (رضى الله عنه) وجيشه « فلما جمع هرقل صاحب الروم جموعه للمسلمين ردوا على أهل حمص من الروم ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم .

فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والعُشْم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم »^(٢) وقد حصل مثل هذا مع عدد من مدن الشام وكان لهذا الخلق الرفيع الأثر الطيب في فتح أبواب حمص للمسلمين عندما عادوا من اليرموك منتصرين .

(١) الضلال : ٢١٩١/٤ - ٢١٩٢

(٢) انظر القصة في فتوح البلدان للبلاذري ، والخراج لأنى يوسف رحمه الله الخراج

ص ١٣٨ ط ١٣٩٩ هـ لبنان بيروت دار المعرفة ٢

قارن ذلك بإخلاف الوعود عند الإنجليز وأشباههم من الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، إذ غدروا بالشريف حسين بن علي وإلى مكة آنذاك ، ونفذوا مكيدتهم ضد المسلمين مع اليهود والفرنسيين كما هو معروف .

إن الوفاء بالعهود يرتبط في العقيدة عند المسلمين .

ولا يتقيد بعرض زائل أو منفعة عاجلة مهما عظمت . « وحين كان المسلمون يتعاملون مع الصليبيين خلال الحروب الصليبية ، كانوا يأبون نقض المواثيق حتى حين نحصرهم الضرورة ، وتكون المنفعة في نقض هذه المواثيق .. حينئذ كانوا يضربون مثلاً للأخلاق المستمدة من منهج الله ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَأَنذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ » الأنفال : ٥٨ .

وحينما كان الصليبيون ينفضون الميثاق الذي صربوه للمسلمين ويأخذونهم على حين غفلة ، ويقتلون منهم الألوف من الرجال والأطفال والنساء قتلاً وحشياً .. ويدخلون عليهم المسجد وهم لاجئون إليه بلا سلاح وعُدَّة ويقتلونهم في داخل بيت الله ، حتى تغوص أرجل الخيل الهاجمة في الدماء ..

ثم تترد الجولة للمسلمين فينتصرون على هؤلاء الصليبيين ذاتهم ، فيعاملونهم على نفس المستوى الإنساني الذي كانوا يعاملونهم به من قبل . كانوا يضربون مثلاً آخر لأخلاق المسلمين الحقيقية القائمة على ركيزة إنسانية لأنها تستوحى منهج الله وتعيش على هداه . ولكن أوروبا الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله لم ترتفع إلى هذا المستوى قط في تاريخها كله .. « (١) » .

(١) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ، (١٦٠-١٦١) .

ولقد طغت مفاهيم أوروبا الجاهلية هذه على علاقات العالم ، فأصبح الغدر عرفاً دولياً والحياة لباقه عالمية

وفي العلاقات الفردية : أصبح الوفاء مطلباً نادراً مع الأسف ، يَنُتُّ من ضياعه كثير من الذين غَضَّتْهم الغدر ومن أقرب الناس إليهم .

بات العقوق منتشرًا فلا يفي الابن بواجبه المفروض عليه شرعاً ووفاء لوألديه . وانصرف لشهواته الدنيئة ونحولت كثير من المعاملات التجارية إلى الغش والاحتيال والغدر والخيانة ، إذ تكاد لا تأمن على مالك أين تضعه ، ولا كيف تسترده إن تورطت يوماً ما . وهاجم الغدر المؤسسات التربوية ، إذ أصبح هو السائد في مؤسسات كان يتوقع لها أن تكون منبع الفضيلة والخير .

وغفَّ الطلاب أساتذتهم ، وتنكَّر كثير من طلاب العلم لشيوخهم ، وقد ضربوا بمُثل الإسلام العليا غُرُض الحائِظ ، ووجَّهوا للوفاء أسهماً حادة دامية . وبات الجار لا يأمن من بوائق جيرانه ، بينما كان الوفاء وحسن الجوار ، ديدن المسلمين حتى مع أهل الذمَّة .

إن أخلاق العرب الأصيلة ، قد انهارت .. وأخلاق الإسلام البديهة كادت أن تندثر والأمل كبير في دعاة الإسلام عسى أن يعيدوها إلى رونقها .. وفي شباب هذا الدين حتى ينتهوا من جديد إلى أهمية الجانب الأخلاقي في مسيرتهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً

٥ - الحرية وإياء الضيم

إذا كان العربي قد عاش في بيئة مجدية ، قليلة الضرع نادرة الزرع ، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادى بأعظم الغنى وأكثره امتناعاً وإسعاداً ، ذلك هو الحرية والإياء ،.. لقد استمتع بخير ما يستمتع به المتحضرين ، لأنه عاش في الصحراء حرّاً كالهواء ، طليقاً كالطير ، أياً كالأسد ، قوى القلب كالصخر ، منبسط النفس كالنبطحاء»^(١)

وكانت الحرية من طبيعة العرب منذ أقدم العصور ، فقد روى ديو دورس الصقلي أن الأنباط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية «بطراً» ، كانوا يمتنعون من بدس القمح وررع الأشجار المثمرة . وبناء البيوت ، لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعاً ، والأعراب لذلك لم يستدعهم أحد وهم الدين لم يعطوا الفرس الجزية ، وقد أعطاهم أهل فينيقية وفلسطين كما ذكر هيرودونس»^(٢) .

وذكر ديو دورس أن الآشوريين والفرس وغيرهم عجزوا عن احتلال جزيرة العرب مع قوة هذه الدول لعدة أسباب منها أن العرب كانوا يحرصون على إخفاء معالم الآبار عن الغرباء حتى لا يعلموا مواقعها ، فيقتحموا بلادهم»^(٣)

(١) الحياة العربية في الشعر الجاهلي د. الخواري ص ٣٥٢

(٢) حضارة العرب - جوستاف لوبون ص ٩٣ ترجمة عادل زعيتير ، ط ٢

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ، ٤١٤/٢

وقد وصفهم ديودورس الصقلي : بأنهم يعشقون الحرية ، فيلتحفون السماء ، وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء ، فلا يستطيع العدو المغامر أن يجد له فيها مأوى ، إنهم لا يزرعون حباً ولا يغرسون شجراً .. ولا يبنون بيوتاً .. ومن يخالف العرف يقتل وهم يعتقدون بالإرادة الحرة وبالحرية .

وهو يشارك في ذلك رأى هيرودوتس الذى أشاد بحب العرب للحرية وحفاظهم عليها ، ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستدلالهم ، فالحرية عند العرب من أهم الصفات التى يتصف بها العرب فى نظر الكتبة اليونان واللاتين «^(١) .

لقد عشق العرب الحرية ، وتغنوا بها فى بطولاتهم ، والويل لمن يريد أن يقف فى طريق هذه الحرية يقول لامانس : « ومبلغ حب العربى لحرية مبلغاً عظيماً كبيراً ، حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش فى قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حرية ، ولكن العربى من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم يؤدى واجبات الضيافة والمخالفة فى الحروب كما يؤدى واجبات الصداقة مخلصاً فى أدائها بحسب ما رسمه العرف .. »^(٢) .

« إن العربى شجاع لا يتهيب الموت ، والحياة الجديرة بالحفاظ فى نظره إنما هى حياة البطولة والفتوة والقوة فلماذا يقبل العبودية ؟ إن الناس تستعبدهم الشهوات والمطامع والبقيا على الحياة ولكن العربى بعيد عن ذلك كله

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ٢٦٢/١

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ٢٦٥/١

كل عرى معتز بنفسه يأنف أن يخضع لغيره فلا يدين لحاكم أو رئيس إلا إذا كان من القبيلة نفسها ، وهم يخضعون لشايتهم خضوع عصبية وائتلاف ، لاخضوع تملك وسلطان

ثم لماذا يخضع العرى لغيره ، وليس له مأوى يلزمه فلا يريم عنه ؟! وحياته متنقلة ؟ استعاض عن المدن بظهور الإبل والخيول ، واستبدل بالقوانين العصبية والنصرة والشجاعة^(١) .

والشعر العرى زاخر بهذه المعاني :

يقول جابر بن جنى : إنهم يسالمون الملوك إذا سالموهم وعدلوا ، ولكنهم يقتلونهم إذا جاروا ، وليس قتل الملوك لديهم حراماً ولا محالاً ، ويعتبرون أنفسهم أنداداً للملوك

نعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرم وكائن أزرنا الموت من ذى نحية إذا ما ازدرانا أو أسف لمأثم^(٢)

ومن صيحات الإباء وطلب العزة ورفض الظلم ، مقتل عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم ، عندما بغى الأول وتملكه الزهو وأراد لأمه هند أن تستخدم والدته الشاعر كوصيفة فصاحت ليل : وأذلاه ! يالتغلب ! ولما سمعها ولدها ثار الدم في وجهه ، وقام إلى سيف للملك (ابن هند) معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، وقتله به ، ونادى بنى تغلب ، فأنهبوا جميع ما فى الرواق ، وساقوا نجايبه وساروا نحو الجزيرة . وفى ذلك يقول عمرو بن كلثوم^(٣) :

(١) الحياة العربية : الحوقى ص ٣٥٥

(٢) شعراء النصرانية : ٢٩٠ .

(٣) الشعر والشعراء : ٢٣٥/١ ، والمعلقة بشرح التبريزى . ص ٢٧٢

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأموك مَقْتُونينا
فإن فناننا با عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً أيينا أن نقر الذل فينا
لقد رفض العرب الظلم بإباء مع الأقارب والأباعد

مع الأصدقاء والأعداء ، وأين هم من ذلك الآن ؟! يقول طرفة بن العبد مهرداً متوعداً بعاقبة الظلم ^(١) :

ما ننظرون ببال وِرْدَة فيكم صَعُر البنون ورهط وردة غُيِب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره : حتى تظّل له الدماء تُصَبُّ
والظلم فرّق بين حبي وائل بكر نساقيها المنايا تغلب
والصدق بألفه الكريم المرتجى والكذب بألفه الدني الأخيب

لقد رفض أعمامه أن يقسموا ماله ، ويعطوه نصيبه ونصيب أمه وردة ، بعدما توفى والده ، وكان طرفة صغير السن .

والظلم عاقبته وخيمة ، مهما تحير الظالم .. وذلك ما دعا بني أسد أن يشبوا على ملكهم حُجْر والد امرئ القيس ، وأن يقتلوه ..

فقد كان يأخذ منهم شيئاً معلوماً ، ولما رفضوا أن يدفعوا للملك سار إليهم وقتل سرواتهم بالعصا ، وسموا عبيد العصا ، وأسر طائفة منهم ، فيهم عبيد بن الأبرص ، فقام بين يديه وقال :

يا عين ما فابكى بنى أسد هم أهل الندامة
أهل القباب الحمر وآل نعم المؤبّل والمدامة
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

(١) الشعر والشعراء . ١٨٧/١

فرحمهم الملك وعفا عنهم ، وردهم إلى بلادهم حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة .. ركب بنو أسد كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم الضحى حتى انتهوا إلى حجر فوجدوه نائماً فذبوه وشدوا على هجائه واستاقوها^(١) . لقد رفضت بنو أسد الظلم فقتلت ملكها لتغسل عار الأسر والقتل والعبودية

ويرفض عنترة الظلم ، ويسطر إباءه شعراً تتناقله الركبان :

أثنى على بما علمت فإثنى سهل مخالفتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم^(٢)

فالعرف لا يرضى بالضم وهو القائل : إن الضم لا يصلح به إلا اثنان :
الحمار والوند

قال المتلمس الضبعي^(٣)

إن اخوان حمار الأهل يعرفه والخر بنكره والرسلة الأجْد
ولا يقيم على خسف يُراد به إلا الأذلان غير الحى والوند
هذا على الخسف معقول برُمته وذا يشج فلا ييكي له أحد

فالهوان لا يرضى به إلا الحمار ، والدليل الذى لا يهتم بإذلاله أحد .

كان العرب يحبون العدل والحق ، ويغضون الظلم والجور

قال عامر بن الطفيل :

ألم نعلمى أنى إذا الإنف فادى : إلى الجود لا أنقاد والإلف جائر

(١) الشعر والشعراء لابن فنية ١٠٥/١

(٢) شرح المعلقات المتبريزى : ص ٢٣١-٢٣٦

(٣) الحماسة للبحتري : ص ١٩ « الرسالة : الناقة السهلة السير - الأجْد : الناقة القوية »

ومما قاله دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ في وصاياه : « لا تُحضروا ناديكه
السفيه ، ولا تلجوا بالباطل فيلج بكم »

ويعتبر حلف الفضول من المظاهر الواضحة لحب العرب للعدل

إلا أن عرب الجاهلية بالغوا في طلب الحرية حتى خرجوا عن حدود
المعقول « لأنهم فهموها حرية مطلقة من القيود ، وكان لهذا الفهم آثار سيئة
إلى جانب آثاره الحسنة ، فلم يكد العرب يخضعون للقانون العام ، الذي
ينظم العلاقات الدينية والاجتماعية والسياسية إلا ليفلتوا منه - وقد رفضوا
أن يخضعوا لسلطان أئى بكر الصديق رضى الله عنه حسب تصورهم
وامتنعوا من دفع الزكاة مُدَّعين أنها إتاوة »^(١)

إلا أن الحرية تحوّلت لدى العربى في الجاهلية إلى أنانية شديدة ،
وفردية مطلقة ، حالت دون تعاون الأفراد مع بعضهم ، ومنعت من
مساعدة القبائل بعضها بعضاً ، مع وجود خطر أجنبى داهم ، وحالت دون
تكون المجتمعات الكبرى وهى الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية
على القبائل . حتى أن هذا أثر في أشكال الحكومات التى تكونت في
الأماكن الخصبة من المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها
مصالح متشابهة ، فإذا ما شعرت بزوال مصلحتها انفصلت عن هذا الاتحاد ،
وقد جابهت الحكومات العربية في الجاهلية والإسلام متاعب كثيرة من هذه
الروح القبلية العنيفة ومن الفردية المتطرفة ... »^(٢) .

على أن العربى لم يكن دائماً ممن يقفون عند حدود من العدل
والإنصاف في العصر الجاهلى ، بل كثيراً ما كان بعضهم يميل إلى الظلم

(١) الحياة العربية : الحوفى ص ٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) جواد على : ٤٠٨/٤-٤٠٩ .

والقسوة والغلظة مع كل من يستطيعون الاعتداء عليه ، وكل من يقدر
على استباحة حماه واستضعافه^(١) !

يقول عامر بن الطفيل مصوراً مظالم الجاهلية^(٢) :

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بغيف الريح نهداً وختعما
ويقول :

قتلنا منهم مائةً بشيخ وصفدناهم عصياً قياماً
ولا ننسى الحكمة الجاهلية التى يمثلها قول زهير :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

هذه هى الحرية التى كان يفهمها العربى ، ارتقى بها الإسلام إلى عزة
المؤمن وإبائه الضيم داخل تعليمات الشرع الحنيف مع رفض الظلم أياً كان
نوعه ، كما سنرى فى الفقرة القادمة .

(١) المعتقدات والقيم : ص ٤٣٢

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ١١٧ ، ١١٢

استعلاء الإيمان ومحاربة الظلم في الإسلام

إن الحرية التي تعلّق بها العربى تعلقاً شديداً ، ربما خرجت به عن حد الاعتدال ، طيظلم القوى الضعيف ، فتقطع الأرحام وتنتهك الحرمات ولذلك جعل الإسلام للحرية حدوداً وضوابط ، فإن حريتك تنتهى طالما سببت الضرر للآخرين ، ضمن القاعدة الشرعية : « لا ضرر ولا ضرار » .

ذلك لأن مصالح الناس مرتبطة ، ومشكلات المجتمعات متشابكة معقدة ، وهذا ما أشار إليه حديث رسول الله ﷺ فيما رواه النعمان بن بشير رضى الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « مثلُ الواقع في حدود الله والمداهن فيها ، كمثل قوم ركبوا في السفينة ، فاستهموا عليها ، فركب قوم غلّوها وركب قوم سُفلها ، وكانوا إذا استقوا آذأوهم وأصابوهم بالماء ، فقالوا : إنكم قد آذيتُمونا مما تمرون علينا ، فأعطوا رجلاً فأساً فنقب عندهم نقباً ، قالوا : ما هذا الذي تصنعون ؟ قالوا : تأذيتُم بنا ، فننقب عندنا نقباً نستقى منه ، فإن تركوهم هلكوا وأهلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجّوا » (١) .

فالحرية الشخصية غير المنضبطة ستهلك الناس ، وتغرق السفينة بأهلها جميعاً ، ولذلك لا يصح أن تُترك الحرية للناس حسب الهوى والشهوات .. ولا يصح بحال أن ترفع صوت المذيع عالياً ولو كنت في بيتك ، لتقلق راحة الجيران ، ففهم الشيخ والطفل والمريض ... ولا يجوز أن تقف

(١) أخرجه الإمام أحمد : ٢٦٨/٤ ، ٢٧٠ ، والترمذى (٢١٧٤) في الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو حديث صحيح انظر : شرح السنة : ٣٤٢/٤ .

بسيارتك ليحدثك صاحبك في سيارته وتعيقان المارة وحركة المرور ..
باسم الحرية الشخصية

ولا يجوز للمرأة أن نستهر ونخرج بملابس صفيقة شفافة كاسية عارية
باسم حريتها الشخصية ، فتفسد الشبان وتؤذى الأخلاق ..

ولا يصح أن يعبر رجال الفن الرخيص عن نزواتهم في الصورة
والكلمة - باسم الحرية الشخصية - ليتهكوا حرمت الدين والفضيلة

والأمثلة كثيرة في واقعنا المعاصر على التجاوزات غير المنضبطة ،
واستخدام مفهوم الحرية استخداماً جائراً منحرفاً

هذا وإن الإسلام قد شجع المسلمين على إبداء الرأي بحرية
وشجاعة ، جعلت من الغرب قادة لايهابون الموت بهذا الدين ، شجعاناً
ضمن آفاق هذه الرسالة ولم لا ؟ وهذا أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه
يقول : « إن الرجل ليعجبنى إذا سيم خطة خسف أن يقول لا بملء فيه » .
فهو لا يكتفى بالاستماع إلى الرأي المخالف وإنما يعلن الإعجاب
بالمظلوم الذى يصدع بظلمه .

ومن هنا كان الأعرأى يقول لأمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، ما
يريد قوله معارضاً مخالفاً دون أن يخشى في الله لومة لائم .. فأين هذا من
التسلط بالرأى عند الكثير من أولياء الأمور في هذا العصر ؟!

استعلاء الإيمان :

لقد رى المسلم على إباء الضيم فهو لا يهاب إلا الله ، ولا يخضع جبهته
إلا لخالفه وَلَمْ يَخَافْ والأعمار بيد ربه ؟ وَلَمْ يَتَرَلَفْ والأرزاق مُقَدَّرَةٌ ؟!
إن الإيمان إذا تَمَكَّن من نفس المسلم استعلى به .

« إن الإيمان يمثل حالة الاستعلاء التى يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن لإزاء كل شئ وكل وضع .. وكل أحد .. »

الاستعلاء الذى لا يتهاوى أمام القوة الباغية ، ولا أعراف المجتمع ولا التشريع الباطل ، ولا الوضع المقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان «

« إن المؤمن هو الأعلى سنداً ومصدراً ، فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة فى الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير ؟ » « والمؤمن ينظر إلى الباطل المنتفش وإلى الجموع المخدوعة فلا يهن ولا يحزن ولا ينقص إصراره على الحق الذى معه ولا تضعف رغبته كذلك فى هداية الضالين والمخدوعين »^(١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران : ١٣٩

استعلاء الإيمان هذا هو الذى صَنَعَ الأعاجيب .. استعلاء الإيمان هذا هو الذى جعل المغيرة بن شُعْبَةَ - رضى الله عنه - يقف أمام جيروت الفُرس فى معسكر رُسْتَم قائد الفرس المشهور ، بعزة المؤمن وإزدراء الجاهلية .. يجلس على سرير رستم ووسادته ولما نهروه قال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم ..

إننا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً ، .. وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، وأنا لم آتكم ولكن دعوتمنى .. واليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون .

(١) معالم فى الطريق : فصل استعلاء الإيمان .

وهذا الموقف العزيز من هذا الأعرابى الذى يجابه القوة العاتية آنذاك ،
إنما صنعه الإسلام العظيم .. ليصبح الداعية الملهم الذى يلقي دهاقنه فارس
مبادئ المساواة والعدل والأدب

ويشبه هذا الموقف : موقف ربى بن عامر مع رستم أيضاً حيث بلغ
دعوة الإسلام بكل جرأة ، عندما سأله ما جاء بكم ؟! قال : « الله ابتعثنا
لنخرج مَنْ شاء مِنْ عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ،
ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »^(١) .

وكان رسل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قد جابهوا كسرى
(يزدجرد) بعزة المؤمنين يُبَيِّنُونَ له دعوة الإسلام فإن قبلها وإلا فالقتال
بينهم^(٢) .

الإسلام يحرم الظلم :

ويرى المسلم على رفضه ، وبحافظ على حقوقه ..
قال تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » غافر : ١٨
فمصيرهم فى الآخرة مفزع ، وعقابهم فى الدنيا لا بد أن قال ﷺ : « ليس
ذَنْبٌ أسرع عقوبةً من البَغْيِ وقَطِيعَةِ الرَّجْمِ »^(٣) .
فالباغى يصرع فى الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوماً فى الآخرة .

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٩٦/٣ وما بعدها

(٢) من هؤلاء : النعمان بن مقرن والمغيرة بن زرارة الأسيدى وذلك قبل القادسية
(انظر المصدر السابق) .

(٣) رواه الترمذى وقال عنه : حديث صحيح ، والمسنَد للإمام أحمد : ٣٦/٥ .

ويُقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام^(١) .

وحذّر الرسول ﷺ من دعوة المظلوم .

عن معاذ رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « اتَّقِ دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »^(٢)

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِرٍّ مِنَ الْأَرْضِ طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ »^(٣)

وقال ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة »^(٤) وأعلن سبحانه وتعالى في الحديث القدسي حرمة الظلم : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا »^(٥)

واهتماماً من الإسلام بدفع الظلم أباح التشهير بالظالمين قال تعالى :
« لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا »

« النساء : ١٤٨ »

فالإسلام يحمى سمعة الناس ما لم يظلموا ، فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظلمه ، وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء ...

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن نيمية : ص ٤٨

(٢) متفق عليه : البخارى ٢٨٣/٣ ، ٢٨٥ ، ومسلم (١٩) .

(٣) متفق عليه : ٨٦/٥ ، ومسلم ١٦١٢٣ (عبد الباقى)

(٤) صحيح البخارى : كتاب المظالم ١٩٩/٣ من كتاب طبقات الشعب

(٥) صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والأدب ، باب نعيم الظلم : ١٣٢/١٦ -

بشرح النووى - ط دار إحياء التراث العربى .

وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه ، على العدل الذى لا يطبق معه الظلم ، وحرصه على الأخلاق الذى لا يطبق معها خدشاً للحياء النفسى والاجتماعى^(١) .

وقد صَوَّر القرآن مصير الظالمين تصويراً حياً . قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ سورة نوح : ٢٤ .

وقال : ﴿ مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ نوح : ٢٥ .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً والظالمون كانوا بغاة طغاة ، فهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياؤهم ويتساءلون فى انكسار : ﴿ هل إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ ﴾^(٢) .

﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾^(٣) وَتَرَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ
« الشورى : ٤٤-٤٥ » .

والظلم محرم فى جميع صورته وأشكاله ، فظلم الزوجة محرم كظلم الغريب وكذلك الظلم بين الإخوة وظلم الأبناء وعدم العدل بينهم ، وظلم رب العمل لعماله واقتطاع أجورهم ولذلك كان ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند :

وعاقبة الظلم وخيمة فى الحياة الدنيا ، فكمن من أناس تجبروا وظلموا فأذلمهم الله فى الحياة الدنيا .

(١) فى ظلال القرآن : ٧٩٦/٢ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٣٧١٦/٦ ، ٣١٦٨/٥ .

إن العدل مطلب عظيم ، لابد من أن نرى الأجيال على تحقيقه ، لأن الظلم صارخ في حياتنا المعاصرة بين الأفراد وعلى نطاق المجتمعات الدولية .
والصدع بكلمة الحق واجب شرعى في حدود درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالعربى شجاع يأبى الضيم ، والمسلم أبى شجاع بتعالى بإيمانه ، ولا بد من عودة هذا الخلق النبيل إلى واقع حياتنا المعاصرة ، فقد كثرت المظالم في هذه الأمة ، فأذها أعداؤها من كل حذب وصوب .

لقد طمع فينا أراذل الشعوب ، وهانت نفوس هذه الأمة مع الأسف ، وكأننا لسنا أحفاد خالد وسعد وأبى عبيدة ، وأبى بكر وعمر وأصحابهما .. بل أين الإباء عند أحفاد العرب ، أين الشَّمَم وعزة النفس؟ لقد تكالبت علينا الأمم ، ولا رادّ لذلك إلا فضل الله ورحمته وعودة من المسلمين إلى عزة دينهم ، وجهاد شرعى صادق ، وليس ذلك على أبناء هذا الدين ببعيد .

٦ - حُسْنُ الْجَوَارِ خُلُقٌ عَرَبِيٌّ أَصِيلٌ

جاء في القاموس المحيط : الجوار أن تعطى الرجل ذمّة فيكون بها جارك فتجيره والجار أيضاً الحليف^(١) .

ويقال للذى يستجير بك : جار ، والجار هو الذى أجرته من أن يظلمه ظالم ، وجارك : المستجير بك ، والمجير هو الذى يمنحك ويجيرك ، وأجاره : انقذه من شيء يقع عليه^(٢) .

ولقد قدّس العربى هذا العُرف - الجوار - تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به العربى أن يكون ملاذاً لكل خائف وملجأ لكل طريد ، لأن فى ذلك اعترافاً بقوته ومروءته وكرمه .

وهى فضائل يعتز بها كل عربى ، ويفخر بأن تُنسب إليه ، سواء أكان هذا التزليل بالجوار قد التجأ بسبب خُلْع قبيلته له ، أو بغير هذا السبب^(٣) .

والغاية من الجوار : هو طلب الحماية ، والمحافظة على النفس والأهل والمال ، ولا يجير إنسان آخر إلا إذا أحس أن فى إمكانه أداء أمانة الجوار ، وإلا عرض نفسه وقبيلته للأذى والسُّبّة والعار .

(١) (٢،١) القاموس المحيط : مادة الجور ولسان العرب : ١٥٤/٤ كلمة جور .

(٢) (٣) الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ص ٩٣ ، ٩٤ .

وقد استفاد من حق الجوار الغرباء والمسافرون والمحتاجون وأمثالهم ،
فقد آمنوا على راحتهم ورزقهم ، وهم في محيط صعب ، كما آمنوا على حياتهم
حتى أن المجير قد يغفر لجاره ما قد يبدو من سوء بسبب حكم الجوار .
قال مجير لجاره : « لولا أنك جار لقتلناك » .

وكان من وسائل إكرام العرب في الجاهلية لجارهم - غير حمايته
وإعرازه - رعاية حقه والتغاضي عن عيبه ، وحفظ جواره ، والوفاء
بعهده^(١) .

وفي ذلك يقول المثقب العبدى^(٢) :

أكرمُ الجار وأرعى حقه إن عرفان الفتى الحق كرم
وفي التغاضي عن عيبه وحفظ جواره . يقول قيس بن عاصم^(٣) :
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فُطِنُ
وكانت بعض القبائل إذا أجازت تعطى حليفها براءة بأنه جارها ،
فتدفع إليها سهماً مكتوباً عليه فلان جار فلان ، كما كان يفعل بنو غنم بن
عوف من الخزرج في المدينة المنورة . حيث كان يقال للرجل إذا استجار
بيئرب : قوئل في هذا الجبل ثم قد أمنت ، فإذا فعل أحد ذلك وجب على
أهل يئرب قبول جواره والدفاع عنه ، وكان قوئل رجلاً من الخزرج اسمه
(غنم بن عوف بن عمرو) سمي به لأنه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو
بيئرب يقول له : « قوئل في هذا الجبل وقد أمنت » . وقيل سمي بذلك

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ، ٣٦٢/٤ وبعدها .

(٢) انظر : المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي ص ٣٢٥ .

(٣) ديوانه : ص ٢٢٩ شرح الديوان ديوان للمرزوقي : ١٥٨٤/٤ لجنة التأليف

والترجمة والنشر (١٩٦٧ م) .

لأنهم كانوا يعطون المستجير سهماً ويقولون له : قوّل حيث شئت ، أى
سير به حيث شئت^(١) .

وقد أعزوا الحليف المجاور حتى أن قريشاً كانت تترفع عن تزويج بناتها
من غيرها إلا إذا كانوا من حلفائها ، وبلغ من مكانة الحليف أنه كان يُعَدُّ من
العشيرة ، ولذا كان المجير يرثه فى ماله ، وتقادوا فى حماية الجار إلى حد
زعموا حمايته من الموت ، وذلك أنه إذا مات دفع حاميه ومجيره دينه إلى
أهله ، وقد رضى عامر بن الطفيل أن يجير الأعشى من الموت^(٢) .

وقد بالغ العرب فى التنويه بحمايتهم للجار واللاجئ حتى قالوا : إن
مدلج بن سويد الطائى خلا يوماً فى خيمته فإذا هو بقوم من طيء ومعهم
أوعيتهم فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه .
فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحدكم إلا قتلته . إنكم
رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه ! فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه
الشمس وطار فقال : شأنكم الآن فقد تحول عن جوارى . فقالوا : أحمى
من يجير الجراد .

ويقال : إن المجير كان حارثه بن مرّ الطائى وفيه يقول شاعر طيء^(٣) :

ومنا ابن مرّ أبو حنبل أجار من الناس رجلاً الجراد

ومن دخل دار أحدهم والتجأ إلى فئائه عدوا فعله حرمة وجواراً
وذماراً ، بل إن تعلن ذلك بالوحشيات والهوام ، حتى أنهم كانوا يسمون
بذلك : مجير الجراد ، ومجير الغزال ، ونحو ذلك . وفى الأمثال : [أحمى من
مجير الجراد] ، وأحمى من مجير الظعن ، وهو ربيعة بن مكدم الكنانى الذى

(١) الحوفى : الحياة العربية ، ص ٢٨٥ ، وجواد على : ٣٦٢/٤ .

(٢) انظر : الحياة العربية للحوفى : ص ٢٩٠ .

(٣) أمثال الميدانى : ٢٠٢/١ المطبعة البهية بمصر .

حمى الظعن حياً وميتاً ، إذا وقف فرسه على عَقَبَةٍ (رابية) ، واتكأ على رمح
ودمه ينزف (خلال القتال) والقوم بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه ، حتى
نجت الظعن بسبب ذلك^(١) ومن حرمة الجوار عند العرب في الجاهلية أن من
دخل حَرَم البيت بمكة صار في جواره آمناً مطمئناً ، وعلى قريش الذب
عنه^(٢) وقد يستجير إنسان بقبر فيصير في جواره وفي حرمة ذلك القبر وعلى
أصحاب ذلك القبر الذب عن هذا الجوار والدفاع عنه .

ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر عامر بن الطفيل ، كان قومه من
بنى عامر ، قد وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه إذا اجتازها
اللاجئ ، ودخل الحرم المحيط بالقبر صار آمناً على نفسه وماله ، وقد منعوا
دخول حيوان إليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحب هذا
القبر^(٣) .

وكان الاعتداء على الجار مثيراً لحفيظتهم ، كأنه اعتداء عليهم ،
وكثيراً ما نشبت الحروب بسبب الاعتداء على الجار كما حصل في حرب
سُمير وهو من أيام العرب بين الأوس والخزرج (وقد تحدثنا عنه في أيام
العرب) . ولذلك قالوا : فلان منيع الجار حامى الذُّمار . فالجوار خلق عرى
أصيل ، ذو دوافع طيبة ، إلا أنهم انحرفوا به عن غاياته النبيلة كما نرى في
هذه القصص الآنف الذكر وكان لابد من إعادة الأمور إلى نصابها ، وإلى
ترسيخ معاني حسن الجوار بلا جَوْر ولا شَطَط وهذا ما جاء به الإسلام كما
سنرى في الفقرة القادمة) .

(١) انظر بلوغ الأرب : الآلوسى ١٤٤/١-١٤٥ .

(٢، ٣) جواد على : ٣٦٢/٤-٣٦٣ .

لقد تاه الشعراء يفتخرون بأنهم ممتنعو الجار ، كرماء يعطون العطاء
الجزيل ، وهذا عوف بن عطية بن الخرع من تميم الرباب يفتخر^(١) :
أحیی الخلیل وأعطى الجزیل حياء وأفعل فيه اليسارا
وأمنع جاری من المجحفات والجار ممتنع حيث صارا
وقال عبد الله بن جنح النكري يفتخر بعزة قومه ، وأن جارهم عزيز
الجانب^(٢) :

من معشر يأبى الهوان أخوهم شم الأنوف ججاج سادات
عزوا وعز بعزهم من جاورا وهم الذرى وغلاصم الهامات
وقد اشتهر بحسن الجوار ومنعته كثير من سادات القبائل حتى أن
الخلعاء كانوا ينزلون بجوارهم ، فيجدون الأمن والحماية . ومن هؤلاء
السادة الزبير بن عبد المطلب بمكة^(٣) .
وكان البراض الكنانى قد نزل على حرب بن أمية ، فحالفه وأحسن
جواره^(٤) .

ولجأ مطرود بن كعب الخزاعي إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد
مناف ببجناية كانت منه فحماء وأحسن إليه^(٥) .
وكان من العار أن يهان الحليف المجاور ، والمستجير بأحد البيوت ،
وإن لم يكن فيه إلا امرأة أو طفل ، فيجد الحماية والأمان .

(١) الفضليات : رقم (١٢٤) .

(٢) الأصمعيات : رقم (٣٠) ، والغلاصم : ج غلصمة وأصلها رأس الحلقوم وتستعمل
بمعنى الشرف - الذرى : الأعلى - هامات : رؤوس - ججاجع : سادة كرماء .

(٣) الشعر والشعراء ابن قتيبة .

(٤) الأغاني : ٧٥/١٩ ، طبعة بولاق

(٥) معجم الشعراء : المرزبانى ٣٧٥ ، طبعة ١٣٥٤ هـ .

وقد استفاد المسلمون في العهد المكي من هذا العرف ، حيث عاش الرسول ﷺ في حماية عن أى طالب ، ودخل مكة بعد رجوعه من الطائف بحماية المطعم بن عدي .

وقصد بعض المسلمين أرض الحبشة ونزلوا مطمئنين بجوار النجاشي ملكها . وعاش الصديق رضي الله عنه فترة في جوار ابن الدغنة ، ولما حاولت قريش منعه من الصلاة في مسجد بيته على قارعة الطريق ، عن طريق ابن الدغنة ردّ عليه جواره وقال : « أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله » .

واشتهر في العرب مجيراث من النساء :

وقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت وقبل جوارها أجارت فكية بنت قتادة - خالة طرفة بن العبد - السُّلَيْك بن السُّلَيْكَة ، وحمته من بكر بن وائل ، فمدحها السليك مشيدا بعملها وحمايتها في قوله (١) :

لعمرُ أبيك والأبناء تسمى لنعم أخت بنى عوارا
عنيت بها فكية حين قامت لنصل السيف وانتزعوا الخمارا
من الخفريات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا

وحمّت زينة بنت جذل الطعان دريد بن الصمة اعترافاً بفضله لأنه كان قد أعطى رحمه ، ربيعة بن مكدّم يوم حمى الظعينة ، فألقت على دريد نوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي . فحبسه القوم وقالوا : ينبغي ألا نكفر نعمته ، ثم أطلقوا سراحه وكسّته ربيعة وجهازته ولحق بقومه (٢) .

(١) المحبر : ٤٣٣

(٢) انظر المرأة من الشعر الجاهلي : نساء مجيراث ص ٥٣٥ .

وقد أقر الإسلام هذا العرف ، قال ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم » (١) لذلك قال لأُم هانئ : « قَدْ أُجِرْنَا مَنْ أُجِرَتْ » (٢) .

وكان العرف في الجاهلية أن على الجار واجبات لمن أجاروه كأن يحترم هذا الجوار ، ولا يسيء إلى من أجاروه لا في أشخاصهم ولا في سمعتهم .

حقوق الجار في الإسلام

عرفنا أن الغرباء والمسافرين قد استفادوا من هذا العرف عند العرب ، ونزل المجاورون والحلفاء قرب الأحياء ومضارب الخيام ، ليجدوا الأمن والطمأنينة في بيئة ليس فيها حكومة ولا قوانين محددة إلا هذه الأعراف القبلية ، والأخلاق المرعية .

وعرفنا أن العرب في الجاهلية ، قد بالغوا في هذا العرف حتى شملت حماية الجار الجراد والغزال وكذلك الخلعاء والفتاك .

وجاء الإسلام بأنواره ، فاحترم حقوق الجار ، ثم أوصى بالجيران عموماً ، وأرسى قواعد الحياة الاجتماعية في جو تسوده الأخوة والتراحم والتعاطف ، بين الجيران من المسلمين بل والناس جميعاً .. اعتبرهم الإسلام كالجسد الواحد في تعاطفهم ومشاركتهم الوجدانية .

(١) الحديث صحيح : « انظر صحيح سنن النسائي رقم ٤٤١٣ » .

(٤) متفق عليه ينظر مشكاة المصابيح ٣٩٧٧ .

قال ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(١) .

وحث القرآن على رعاية حقوق الجار ، فحذر من الشرك وعقوق الوالدين ، وذكر معها التحذير من إيذاء الجيران قال تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ النساء : ٣٦ . وجعل الإسلام أنه (من سعادة المرء الجار الصالح والمركب الهنيء والمسكن الواسع)^(٢) .

وقد جعل هذا الدين الإحسان إلى الجار من علامات الإيمان « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »^(٣) .

وقد بلغت عناية رسول الله ﷺ بشعور الجيران أن قال لصاحبه أُمِّي ذَرَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ »^(٤) .

وذلك حتى لا يتأذى المحتاجون والأطفال من هؤلاء الجيران . هكذا بلغت العناية بمشاعر الجيران ، بل إن الرسول ﷺ ، يرسى قواعد العدل

(١) رواه البخاري في صحيحه .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٤٠٧/٣ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٣/٨ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه الإمام مسلم (بشرح النووي) : ١٨/٢ .

(٤) رواه مسلم (في البر ١٤٣) .

الإلهي عندما يقول : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »^(١) .

ذلك هو التكافل الحق الذي يرى الإسلام عليه أتباعه ، بحيث يؤسس المجتمع القوى المتعاطف ، مما عجزت عن تحقيق مثل هذه العدالة الأنظمة الحديثة غربياً وشرقياً وما تزال تتخبط في دياجير الظلمة والخيرة .

التحذير من الإساءة إلى الجيران :

حفاظاً من الإسلام على ستر العورات ، وحفظ أسرار الجيران وأعراضهم يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة مَنْ لا يأمنُ جارُه بَوَائِقِه »^(٢)

وجار السوء إنسان حبط عمله ، ولا إيمان له كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف ... ذلك أن الثمرة الطبيعية لهذا الإيمان الخلق الحسن والبعد عن الأذى .

قيل لرسول الله ﷺ : « إنَّ امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ، ولكنها تؤذى جيرانها . فقال : هي في النار »^(٣) .

إذ لا قيمة لهذا القيام ، وذاك الصيام ، مع تعدد الأذى للجيران !
وقالوا : « وفلانة تصلّي المكتوبة ، وتصدّقُ بأنوار ، ولا تؤذى أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « هي في الجنة »^(٤) .

(١) رواه الطبراني والبيهقي عن أنس والحديث صحيح (ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٢

ص ٩٦٧

(٢) مسلم مع الشرح : ١٧/٢ ، « والبوائق : الفوائق والشُرور » .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، « والأنوار : جمع نور وهي قطعة من اللبن

الجامد المستحجر » .

وماذا نقول عن واقعنا المرير في هذا العصر ؟ إن كثيراً من الناس يتلذذون بإيذاء جيرانهم ، حتى بعض الطيبين قد لا يتورعون عن الأذى بشكل أو بآخر .

إن للجار في الإسلام حرمة مصونة ، لم تعرفها قوانين الأخلاق ولا شرائع البشر ، بل إن تلك القوانين والشرائع الوضعية لتستمرى العبث بحرمة الجار وعرضه ، وغالباً ما يكون العبث بعرض الجار أسهل تناولاً .. وما شاعت فينا تلك الأغاني المائعة التي تصف جار الشباك وغيره إلا حينما زایلتنا أخلاق الفتوة والإيمان ، وغشيتنا غواش من ليل التقليد ، وموجات الغزو الفكري والحضارى ، فبات الفتى الأرعن يتغنى بجارته ويتغزل بها في حين لم يُعرف هذا عَنَّا في جاهليتنا بَلَّةً إسلامنا .

فعترة الجاهلى كان يقول :

وأغض طرفى ما بدت لى جارنى حتى يوارى جارنى مأواها
وفي الإسلام يعتبر الزنا في زوجة الجار من الكبائر « أن يزانى الرجل حليلة جاره »^(١) .

وفي الشفق المرصوفة قلّما يتعرف الجار على جاره حتى في المواسم والأعياد .

لقد غزتنا أخلاق الغرب المتسبب المتفكك ، فأصوات المذياع ناهيك عن التلفاز تكاد تصم الآذان وتثورك الناس الليالى الطوال ..

وماذا يصنع المسلم التقى إذا ابتلى بجيران سوء ؟! أينصح ويعترض ؟ والقوانين الوضعية والأعراف الجاهلية لا تبيح له ذلك بحجة التدخل في

(١) انظر : شخصية المسلم : د. محمد على الهاشمي ، طبعة ١٩٨٣ م (ص ١٧٨-١٧٩)
« الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية » .

شؤون الناس ، ومنع حرمتهم الشخصية ، ولو كانوا يرتكبون الفواحش والموبقات . نسأل الله السلامة والنجاة في العُربة الثانية .

وإذا كانت حضارة الإسلام ، وهديه الرحيم ، لا ترضى أن يتأذى المسلم بريح قدر جاره المثير لشهوة الطعام ، فإن حضارة الغرب المادية تتلف قناطير الغذاء وتلقيها في البحر محافظة على مستوى سعره العالمى ، في حين أن الملايين من البشر يعانون الجوع والفقر والجفاف في كثير من دول أفريقيا وآسيا.. ويهددون بالموت جوعاً ، تحت ضغط أنانية الأثرياء وجشعهم في حضارة القرن العشرين الزائفة .. وفي هدى الإسلام أن الإحسان يشمل الجيران المسلمين وغير المسلمين .

روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، ذُبحَتْ له شاة فسأل غلامه : « أهديت لجارنا اليهودى ؟ أهديت لجارنا اليهودى ؟ فأبى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه » (١) .

ومن هنا كان أهل الكتاب يعيشون في جوار المسلمين آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومعتقداتهم ينعمون بحسن الجوار .

ولقد سأل بعضهم رسول الله ﷺ : ما حق الجار على فقال : « إن استقرضك أقرضته وإن استعانك أعنته ، وإن مرض عذته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن افتقر عذت عليه ، وإذا أصابه خير هنيته ، وإذا أصابه مصيبة عزيته وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا يُستطال عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قذرك إلا أن تغرف له منها . وإن

(١) الحديث صحيح ، متفق عليه ينظر صحيح الجامع الصغير ج٢ ص ٩٨٤ .

اشتريت فاكهة فأهد له وإن لم تفعل فأدخلها سيراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده» (١) .

فهل عرفت المجتمعات البشرية جاراً أفضل من هذا الجار المسلم ؟ وهل تستطيع حضارات الشرق أو الغرب أن تصل إلى ما وصلت إليه الحضارة الربانية عند المسلمين ؟ إلا أن المأساة تكمن في بعد المسلمين اليوم عن هذا المنبع الصافي الرقراق ، منيع التطبيق الواقعي لتعاليم الإسلام إن الذي ينقصنا اليوم : هو العودة إلى فهم عقيدة السلف مع تطبيق هذا الفهم في الواقع العملي للحياة وألا يكون هنالك انفصام نكد بين النظرية والتطبيق بين العبادة ومقتضياتها السلوكية في التهذيب .. ألا ما أحوجنا إلى التربية الصادقة ضمن هذه المفاهيم فلا نجرفنا الأخلاق النفعية أخلاق الأمم الوافدة .. حتى أصبح كثير من أبنائنا يتعد عن روح هذا الدين بل عن أخلاق العرب الأصيلة .

وماذا نقول عن سوء الجوار بين أقطار العرب والمسلمين ؟ صار الضعيف لا يأمن على ممتلكاته وأعراضه ، وحرمت جاره العربى المسلم بل ربما أصبح العدو البعيد والحاقد المريب من أهم وسائل الأمن والاستقرار المزعومين . ليخلص المسلمين من سوء الجوار والشر المرتقب والعدوان الغاشم ، ألا ما أحوجنا من جديد - إلى أصالة حسن الجوار عند العرب ، وشفافية هذا الخلق عند المسلمين ، كما علمهم هذا الدين الخفيف .

(١) رواه الطبراني من حديث بئر بن حكيم عن أبيه عن جده والخرائطي في مكارم الأخلاق والحديث أسانيداه وأهية لكن اختلاف محارجها يشعر بأن للحديث أصلاً (ينظر عون الباري المجلد السادس ص ١٤٣) .

٧ - الحِلْم عند العرب

أعجب العرب بهذا الخلق ، واشتهر به بعضهم ، ومُدح لذلك أصحابه ، ولا عراة في ذلك ، حيث الطيش وسرعة الانفعال والاستسلام للثورة والهيجان .

« والحلم لا يتم إلا بإمساك الجوارح كلها ، اليد عن البطش واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر... وَمَنْ دَقَّقَ النظر في شعر العرب وخطبهم ، ووقف على لغتهم تبين لديه ما ذكرنا .

هنالك كلمة كانت تقال عندهم في مواطن الغضب والتشاجر ، فإذا سمعها أحدهم ، كَفَّ عما كان بصدده من التشفى وأخذ الانتقام وهي : « إذا ملكتْ فأَسْجِجْ » . يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب ..

والحلم عند العربى في غير موطنه يعتبر ذلاً ، والصبر على ما لا يُحمد زلة » .

« كان الحلم في نظرهم فضيلة ، ولو خالف السائد من أخلاقهم ولذلك كثر في شعرهم ومناسباتهم مدح الحلماء »^(١) .

مدح أحد شعرائهم « خلف بن خليفة » قوماً من العرب بالحلم ، وإن حدث ما يثيرهم ، وإذا ثاروا كانت ثورتهم عارمة يقول^(٢) :

(٢٠١) بلوغ الأرب : (١/٩٩-١٠١) ، وانظر الحلم : في الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، د. الحوف ص ٣٤٩ .

عليهم وقار الحلم حتى كأنما وليدهم من أجل هيته كهل
 إذا استجهلوا لم يغزب الحلم عنهم وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل
 وعندما رثى المهلهل أخاه كلياً ، وصفه بالحلم والعفو عند
 المقدرة^(١) :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
 وتمنع أن يمسه لسان مخافة من يجير ولا يجار

ومن فخرهم ما ذكره مالك بن حريم الهذلي^(٢) :

ومنا رئيس يستضاء بحلمه سناء وحلماً فيه فاجتمعاً معا
 وكانوا يفخرون بالحلم مقروناً بالشجاعة ، وعندما يرثى كعب بن
 سعد الغنوي أخاه ، يفخر بأنه كان شجاعاً حليماً^(٣) :

أخى ما أخى لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيو
 هو العسل الماذى حلماً ونائلاً وليث إذا يلقي العدو غضوب
 لقد كان أما حلمه فمروخ علينا وأما جهله فعزيب
 حلیم إذا ما سورة الجهل أطلقت حبي الشيب للنفس اللجوج غلوب

ورغم حميتهم فقد كانوا يحلمون على القريب والصديق ، لأن الحلم
 عليهما لا يعد في نظرهم مذلة .

ولمن بن أوس قصيدة رائعة تصور حلمه مع صديقه ، وقد أملت
 عليه عاطفة حارة صادقة يقول فيها^(٤) :

(١) شعراء النصرانية : ص ١٦٣

(٢) الأصمعيات : ص ٦٦

(٣) الأصمعيات رقم (٢٥) ، ورع : جيان - الماذى : العسل الأبيض اللين - عزيب :

بعيد ، سورة . حدة - حى : ج حيو - اللجوج : المتجادية .

(٤) شرح الحماسة : ٥٦٣/١ تحقيق العسيلان .

لعمرك ما أدري وإني لأوجل
أحارب من حاربت من ذى عداوة
وإن سؤنتى يوماً صفحت إلى غد
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى
وفى الناس إن دثت حبالك واصل
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
على أينا تغدو المنية أول
وأحبس ما لى إن غرمت فأعقل
ليعقب يوماً منك آخر مقبل
يمينك فانظر أى كف تبدل
وفى الأرض عن دار القلى متحول
على طرف الهجران إن كان يعقل

دعوة حارة صادقة وجهها الشاعر إلى صديقه ، وقد زينها التعقل
والدعوة الودودة إلى الإنصاف .

وقد ورد فى شعر العرب ما يشير إلى ترفع بعضهم عن السفهاء ،
وإجلال العرب للحلماء والسادة الزعماء الذين تميزوا بهذا الخلق .

فمن مظاهر الترفع عن الضغائن والأحقاد قول عنترة^(١) :

لا يحمل الحقد منْ تعلو به الرتبُ ولا ينال العلا منْ طبعه الغضبُ
وقوله كذلك^(٢) :

إنى امرؤ سمح الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها
وقد كثر مدح الشعراء لأهل الحلم من السادة الذين تميزوا به وأجلوهم .

انظر إلى قول كعب بن سعد الغنوى^(٣) :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيبُ
إذا ما تراآه الرجال تحفظوا فلم تنطق العوراء وهو قريب

(١) ديوان عنترة : تحقيق عبد المنعم شلى ، المكتبة التجارية بالقاهرة ص ٩٨ .

(٢) ديوان عنترة : ص ٨٦

(٣) نقد الشعر : ص ١١٦

على أن هذا الخلق العظيم ، من رحابة الصدر ، والترفع المهيب ، كان ينظر إليه العرب نظرة إكبار وإجلال ، لأنه صعبٌ على نفوسهم ، ويغلب على حياتهم العامة الحروب والثرارات ، بل والحمافة والطيش .

وتذكر كتب الأخبار روايات في حلم بعض السادة كانت مضرب الأمثال ، ومن هؤلاء ، الأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم المنقري .

روى أن قيس بن عاصم المنقري ، وهو ممن يُضرب به المثل في الحلم ، كان يحدث أصحابه يوماً وهو مُخْتَبٍ إذ جاءوا بابن له قتل ، وابن عم له كتيف . فقالوا : إن هذا قتل ابنك ، فلم يقطع حديثه ولا تَقْضَ حَبَوِّه ، حتى إذا فرغ من الحديث ، التفت إليهم وقال : أين ابني فلان ؟ فجاءه فقال : يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القاتل فأعطها مائة ناقلة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول^(١) :

إني امرؤ لا يعترى خلقي دنسٌ يفنده ولا أفنُ
من منقرٍ في بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصنُ
لا يفطنون لعب جارهم وهم لحفظ جواره فطنُ

وكان الأحنف بن قيس موصوفاً بالحلم ، ومن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدرأً له يطبخها . فقال الرجل : قدر ككف القرد ، لا مستعيرها يُعار ولا من يأتيها يتدسم ، فقبل ذلك للأحنف فقال : لو شاء لقال أحسن من هذا .

(١) بلوغ الأرب : ١٠٢/١ ، وجمع الأمثال للميداني : ٢٠١/١ .

وللأحنف أقوال في الحلم منها : إن الناس يرون الحلم ذلاً ، وكان يقول : رب غيظ قد جرعته مخافة ما هو أشد منه ، ومن أقواله : اقبلوا عذر مَنْ اعتذر إليكم ، أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف والعداوة بعد الود ، واعلموا أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم^(١) .

الطَّيْشُ وسرعة الانفعال

على أن العربى - خلافاً لما مرَّ من حلم بعضهم - سريع الانفعال عصبى المزاج تثيره كلمة وتهيجه إشارة أو حركة فإذا ظن أن شرفه قد مُسَّ غضب غضبة الأسد ، واستسلم لثورته دون أن يفكر في العواقب .

فالتَّيْشُ في الحقيقة خلق شائع في البادية حيث لا حكومة تردع ولا قوانين تمنع ، وحيث يعتقد كل فرد في نفسه السمو السيادة والقوة وعِزَّة المجد ، ويتوقع أن تنصره قبيلته وعشيرته^(٢) .

فطبيعة البدوى لا تعرف القصد في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ثم يوزع ما يغنمه على سواه^(٣) .

إنها الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا إذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام القوة . ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وإن من المذلة خضوعه لحكم أحد

(١) انظر بلوغ الأرب . ١٠٢/١ - ١٠٣

(٢) الحياة العربية في الشعر الجاهلى : د. أحمد الخوى ص ٣٤٦

(٣) الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف ص ٧١

ولاسيما إذا كان من يحكمه من أناس دون أهله ومن عشيرة دون
عشيرته^(١) .

والشعر الجاهلي غزير المادة في تصوير هذه النزعة ، وقد عرضنا جزءاً
منه خلال الحديث عن حروبهم وأيامهم وتأثرهم وفخرهم وها نحن نعرض
نماذج أخرى توضح المقصود .

يقول سعد بن ناشب المازني يفتخر بنفسه ، مصوراً نفسية العربي في
الجاهلية^(٢) :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً
وأى دلالة على الجهل والطيش أقوى من أبيات عمرو بن كلثوم التي
يصور فيها قومه^(٣) :

لنا الدنيا ومن أُمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبداً ظالمينا
إنهم يبطشون عن قدرة ، ولو لم يسهم أذى واعتداء فهم يبدأون
ولو لم يلحق بهم ظلم .

وها هو قريظ بن أنيف يشكو من قومه ويتهم بضعفهم لأنهم تخلوا
عن نصرته ، ثم يمدح بني مازن الذين نصره مسرعين إلى الشر ، وأنهم
ينصرون أخاهم دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحق النصرة^(٤) :

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ٢٨٥/٤

(٢) الحماسة : ٦٩/١ • تحقيق العسيلان •

(٣) شرح المعلقات للتبريزي : معلقة عمرو بن كلثوم

(٤) حماسة أبي تمام : (تحقيق العسيلان : ٥٨/١) .

قوم إذا الشر أبدى ناجديه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحداناً
لا يسألون أحاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
ويتهكم بقومه ويعتبر أن صفحهم عن المسيء ضعفاً ومذلة :
لكن قومي وإن كانوا ذوى حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
وهكذا يضيع حلم الحليم وسط طوفان الطيش في الجاهلية ، إذ كانوا
يعتبرون أن الضعيف مركب ذلول كقول النابغة الذبياني :
تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتحمى مريض المستأسد الحامي

الحِلم والأناة من أخلاق المؤمنين

الحلم من الأخلاق الحميدة التي اتصف به بعض أهل الجاهلية وحث
عليه الإسلام ، فدعا إلى العفو والصفح ؛ وحث على كظم الغيظ
والتواضع ، ونفر من التكبر والغلظة .

قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(١) .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ لأشج
عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما الله الحِلم والأناة » ^(٢) .

وكان رسول الله ﷺ أحلم الناس يصفح ويعفو وهو سيد ولد
آدم .. ويدعو إلى الصفح والعفو ..

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الطفيل بن
عمرو الدوسي - رضي الله عنه - إلى النبي ﷺ فقال : إن دوساً قد

(١) الأعراف ١٩٩٠

(٢) رواه مسلم : ١٧ ، ٢٥ ، ١٨ • الأناة : الثبوت وترك العجلة •

عَصَتْ وَأَبَتْ ، فَاذْعُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فاستقبل القبلة فقال : « اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم اللهم اهد دوساً وائتِ بهم ، اللهم اهد دوساً وائتِ بهم » (١) .

ومن جميل حلمه ﷺ ، قصته مع الأعرابي الذي ساعده في أداء الديّة ثم قال له : أحسنتُ إليك ؟ قال الأعرابي : لا ولا أجملتُ . فعضب بعض المسلمين وهمّوا أن يقوموا إليه ، فأشار إليهم رسول الله أن كفّوا . ثم دعا الأعرابي إلى منزله وزاده وقال له : « أحسنتُ إليك ؟ » قال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .. ثم سأله أمام الصحابة فأعاد الأعرابي « فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً » (٢) .

وهكذا كان قلب الداعية العظيم محمد ﷺ .. هكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الدنيا ؟ بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سماحة ندية ووسّعهم حلمه ، وبرّه وعطفه ووُدّة الكريم . وهذا ما شهد به القرآن الكريم وخطّه الله في هذا الكتاب لتكون هذه الأخلاق روح كل داعية وعدته مع الناس : ﴿ ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣) .

كظم الغيظ : ولا يستطيع الإنسان أن يكون حليماً إلا إذا كظم غيظه ، ولذلك حثنا الإسلام على كظم الغيظ . قال تعالى : ﴿ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٤

(١) حديث متفق على صحته ، البخارى ٧٧/٦ ومسلم ٢٥٢٤ ينظر شرح السنة

١٥٠/٥

(١) انظر حياة الصحابة : ٥٤٤/٢

(٣) طريق الدعوة في ظلال القرآن : ١/ ص ١٩١ ، جمع وإعداد أحمد فائز طبع مؤسسة

الرسالة ١٤٠٥ هـ

فكظم الغيظ يحتاج من الإنسان إلى إرادة صلبة وعزيمة قوية ، وشخصية تتحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها فلا يستبد بها الغضب ولا يسيطر عليها اهوى الجراح فيدفعها إلى الانتقام والتشفى ، أو إلى ارتكاب ما لا يحسن بالرجل الحكيم الوقور .

قال ﷺ . ما نعدون الصُّرْعَةَ فيكم ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصُّرْعَةَ هو الذى يملك نفسه عند الغضب « (١) » .

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى الرفق في الأمور كلها عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » (٢) .

وعنها (رضى الله عنها) أيضاً أن النبي ﷺ قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » (٣) .

ومن لوازم الأناة والحلم التواضع وخفض الجناح : وذلك من صفات المؤمنين الأتقياء ، قال تعالى : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » الشعراء : ٢١٥ .

وكان ﷺ مثلاً يُحتذى في لين المعاملة وخفض الجناح ، كان يلقي بأذنه إلى من يحدثه ، فلا ينصرف عنه حتى يتم المتحدث ما يريد من حديث وإن طال ، وكان إذا صافحه أحد لم ينزع يده من يد مصافحه حتى يكون المصافح هو الذى ينزع ، وكان لا يقطع على أحد حديثه .. وكان ﷺ ييسر رداءه لضيفه حتى يجلس عليه (٤) .

(١) رواه مسلم : كتاب البر ، وأبو داود والنسائي ومسنند الإمام أحمد ٢٨٢/١

(٢) متفق عليه في البخارى : ٣٧٥/١٠ ، ومسلم : ٢١٦٥

(٣) رواه مسلم : ٢٥٩٤

(٤) انظر : أخلاق القرآن للشرباصى (٣٦-٣٢/٣)

هذه هي أخلاق النبوة ، وهكذا تكون أساليب الدعوة فليست الدعوة جفاء وقسوة كما يظنها بعض الناس ، وإنما حلم ولين في التعامل ، وذوق رفيع في الحديث مع وضوح في التصور وثبات على الحق .

« على أن يكون ذلك في المعاملات الشخصية وأساليب الدعوة لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية ، فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح ولكن في الأخذ والعطاء والصحة والجوار »^(١) .

والمؤمن متواضع لين مع إخوانه المؤمنين ، وكان ﷺ يرفض أن يتميز عن أصحابه ، ويساعد في مهنة أهله ويخفف نعله ويخيط ثوبه ، ويجلس على الأرض ويحلب الشاة ، ويجب دعوة المملوك على خبز الشعير^(٢) .

أخرج الشيخان قوله ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُسْتَظْعَف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ »^(٣) .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا تحقرن أحداً من المسلمين فإن حقير المسلمين عند الله كبير » .

وقال الأحنف بن قيس : « عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين » .

(١) طريق الدعوة : ١/١٩٢ ، أحمد فائر .

(٢) انظر : حياة الصحابة ، باب تواضع النبي صلى الله عليه وسلم ٥٦٠/٥٥٥/٢ .

(٣) أخرجه الشيخان ، وانظر فتح الباري : ٤٨٩/٩ ، « العتل : الشديد الجاف -

الفظ : الغليظ من الناس « لسان : عتل » والجواط على المبالغة : المتكبر الجاف أيضاً « اللسان : جوط » .

« وللتواضع حَدٌّ إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة ، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر »^(١)

وكان التواضع من أخلاق الصحابة وسلف هذه الأمة^(٢) . ومن راجع كتب السيرة وجد جمال التواضع يزين كبار الصحابة ومن سار على نهجهم من التابعين وسلف هذه الأمة ... ولا غرابة فقد تخرجوا من مدرسة النبوة الطاهرة ، واقتدوا بسيد ولد آدم ﷺ .

كان عمر رضى الله عنه قد خرج في يوم حار واضعاً رداءه على رأسه فمر بغلام على حمار فقال : يا غلام أحملنى معك ، فوثب الغلام عن الحمار وقال : اركب يا أمير المؤمنين ، قال : لا اركب وأزكب أنا خلفك ؛ تريد تحملنى على المكان الوطىء وتركب أنت على الموضع الخشن ، فركب خلف الغلام ودخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه^(٣) .

وأخرج أبو نعيم عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين^(٤) .

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان رجلاً تاجراً ، وكان يغدو كل يوم على السوق فيبيع ويتاع ، وكانت له قطعة غنم نروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وربما دُعيت له ، وكان يخلب للحمى أغنامهم .

(١) الفوائد : لابن القيم ص ١٣٩

(٢) انظر تفصيل ذلك : حياة الصحابة (٢/٥٦٢-٥٧٠) .

(٣) منتخب كنز العمال ٤٠/٤١٧ ، وحياة الصحابة ٢/٥٦٢ .

(٤) الحلية : أبو نعيم ٦٠/١

فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحمى : الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه فكان يحلب لهم^(١) .

هكذا كانت أخلاق الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وقد كانوا حكام الدنيا فى أيامهم ، وما كان المنصب ليغير من أخلاقهم شيئاً ، بل زادهم نواضعاً : فأين منهم الحكام فى عصرنا هذا وهم يسيرون ضمن الجموع الغفيرة والمظاهر العجيبة .

أخرج البخارى أن علياً - رضى الله عنه - اشترى تمرأ بدرهم فحمله فى ملحفته فقال له رجل : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل^(٢) . هذه نماذج من التواضع فى صدر الإسلام ، بعد أن كان عرب الجاهلية يتميزون بالأنفة والكبر ، والفخر والمنافرة وقد جعل الله العقاب من نوع العمل قال ﷺ : « يحشر المتكبرون أمثال الذرّ يوم القيامة فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان »^(٣) .

وجاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : « أتقبلون صبيانكم ، فما نقبلهم . فقال ﷺ : « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة »^(٤) .

والقرآن يجب المتناول بضعفه وضآلته وعجزه فى الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء : ٣٧ .

(١) طبقات ابن سعد ، عن حياة الصحابة : ٥٦٤/٢ .

(٢) البخارى فى الأدب المفرد ، وابن عساكر فى المنتخب ٥٦/٥ .

(٣) رواه الترمذى ٢٤٩٤ وسنده حسن وقال الترمذى حسن صحيح « ينظر شرح

السنة ١٣/١٦٧ .

(٤) رواه الشيخان وأحمد والبيهقى/صحيح الجامع الصغير ج١ ص٤٩٧ .

وقد نَدَّدَتْ السنة الكريمة بحال المتكبرين وجابهت الجاهلية المتغطسة ، وأعادت الإنسان إلى وضعه الطبيعي في هذه الحياة .

قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب وعائل مستكبر »^(١) « والعائل : الفقير » .

وصورت السنة النبوية حالة المتكبرين وأنهم لن يدخلوا الجنة .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر »^(٢) فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »^(٣) وأخيراً: فمما نستفيدة من هذا الموضوع : القدوة الطيبة في الحلم والتواضع والأناة ، وهذه قمم عالية تشدنا إليها ، وتجذبنا نحوها . « فيجب على الداعية خاصة أن توفر فيه الطبيعة الخيرة الرحيمة .. المعدة لأن تتجمع عليها القلوب ، وتتألف حولها النفوس ، يجب أن يكون رحيماً بمن معه ، ليناً معهم ولو كان فظاً غليظ القلب ما تأتلف حوله القلوب ، ولا تتجمع حوله المشاعر .

فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم .. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء يحمل همومهم ، ولا يعينهم

(١) رواه مسلم : ١٠٧ • ترتيب فؤاد عبد الباقي • .

(٢) مسلم بشرح النووي : ٨٩/٢ .

(٣) رواه مسلم : ٩١ — ترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي • ، • بطل الحق : دفعه

ورده على قائله ، غمط الناس : احتقارهم • .

بهمّة ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء»^(١) فلينظر العاملون في حقل الدعوة إلى هذه السمات وليطبقوها في واقع حياتهم إن أرادوا التأثير والسير على منهاج النبوة .

وليلتفت كل مسلم إلى حسن المعاملة ، والحلم والتواضع حتى مع أقرب الناس إليه : الزوجة والولد ، والأصدقاء وأصحاب المهنة ، وأهل الحى والبلدة ، لأن ذلك يستجلب المحبة والمودة والتعاطف .

وإنّ البشرية الحائرة المضطربة ، لتنظر إلى الدعاة أصحاب العزائم والأخلاق المستقيمة ، حتى يخففوا عنها بعض العناء والنكد ..

إن الجاهلية المعاصرة نأث عن التعامل النظيف وأسفت في أنانياتها وشهواتها ، وأخلاقها النفعية ، ولا مخلص لها مما تعانيه إلا صحة إسلامية جادة ، تسير على خطا السلف ، فتتبرأ أمامها السبيل ، وإن الأمانة ضخمة ، والطريق طويل ، وهنيئاً للصابرين الأبرار .

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : (١/١٩١) أحمد فائز .

٨ - صفات حميدة أخرى^(١)

على أن هناك بعض الصفات الحميدة عند العرب ، كانت بقايا متناثرة في تلك الصحارى المترامية الأطراف ، ولعلها من بقايا ميراث النبوة ، شوهت فيها المعالم حيناً وحرفت عن غاياتها حيناً آخر ، منذ أن بدأ النسيان والانحراف كلما ابتعدوا عن عهد إبراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام .. حتى أصبحت من جملة العادات والتقاليد ، ونسى أهلها أصلها السماوى مما جعل النفوس مهياةً بشكل أو بآخر لقبول الرسالة الجديدة ، لتقوم ما انحرف ، وترسى مقومات التوحيد والعبادة ، وتربطهما بالسلوك والأخلاق بلا عوج ولا انحراف .

وسوف أذكر بعض هذه الأخلاق الحميدة بإيجاز شديد ، حسبما يتسع لنا مجال البحث .

ومن هذه الأخلاق **الصدق** ، وهو خلق عظيم كان العرب يعتبرونه سجية اللبيب الماجد ، ويعتبرون أن الكذب من صفات الدنيء الخائب وفي ذلك يقول طرفة^(٢) :

والصدق يألفه اللبيب المرتجى والكذب يألفه الدنى الأخبى

ويعتبر زهير بن أبى سلمى أن الصدق منجاة من الشر^(٣) :

وفي الحلم إدهان وفي العفو دربة وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق

(١) انظر تفصيلاً لهذه الصفات في الشعر الجاهلى : رسالة المعتقدات والقيم ص ٣٦٨ وما

بعدها .

(٢) ديوان طرفة بن العبد : طبعة دمشق ص ١٠٨ .

(٣) ديوان زهير بن أبى سلمى : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م ص ٢٥٢

وغنى عن القول أن الصدق من أعظم أخلاق المؤمنين ، والكذب من أخلاق المنافقين ، وإنه ليقودُ إلى الفجور والنار
 قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبة : ١١٩

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(١) متفق عليه .

وقلة الخلف ثم البر باليمين كان من صفات بعض العرب .
 قال الشوكاني في فتح القدير : « وقد كانت العرب تتباح بقلّة الأيمان حتى قال قائلهم :

قليل الأيّا حافظ ليمينه وإن ندرت منه الأليّة برّت
 ومن الصفات الطيبة عندهم حفظ السر ، وحفظ اللسان عن البذاءة .

يقول قيس بن الخطيم^(٢) :

يا عمرو ليس أخو الأمانة بالذى مارابه من خطّة أفشاها
 يا عمرو إن أخا الأمانة كاتمٌ لو يستطيع بجلده أخفاها
 كان العربى يميل إلى حفظ اللسان والترفع عن بذىء القول .

(١) البخارى : ٤٢٣/١٠ ، ومسلم : ٢٦٠٧ .

(٢) الديوان : ص ١٠٥-١٠٦ .

يقول ذو الإصبع العدواني^(١) :

ولا لسانى على الأدنى بمنطقٍ بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
كان الكريم منهم بأنف أن يرد على البذاءة بمثلها ، ولكنه كان كما
وصفهم شاعرهم قيس بن علقمة الفزاري^(٢) :

إذا فلت الفحشاء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر
أما الترفع عن جليس السوء فيمثله قول عدى بن زيد^(٣) :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وهذه الميزة الطيبة من حفظ اللسان ، ونظافة القول والبعد عن
البذاءة ، ارتفع بها الإسلام إلى حد الطهر والفضيلة ، وأن الإنسان محاسب
على ما يقول قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق : ١٨
ودعا إلى القول الحسن الطيب وإلا فالصمت أولى .

عن أنى هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت »^(٤) وحذر الرسول ﷺ من
آثار الكلمة النابية ، غير المسؤولة : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ،
يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب »^(٥) . « ومعنى يتبين : يتفكر
أنها خير أم لا » .

(١) المفضلية : رقم (٣١) .

(٢) معجم الشعراء : ص ١٩٩ .

(٣) الديوان : ص ١٧٠ طبعة بغداد ١٩٦٥ م .

(٤) رواه البخارى : ٢٦٥/١١ ، ومسلم : ٤٢ ، رياض الصالحين : مراجعة شعيب

الأرنؤوط ، ط : دار المأمون للتراث ط ١٤٠٧ هـ .

(٥) البخارى : ٢٦٥/١١ ، ٢٦٦ .

فالعاقل مَنْ حفظ لسانه، وفكر وتبين ما الذى سيقول، والمؤمن يتميز بأنه يراقب الله فى قوله وفعله لأنه محاسب على كل ذلك .

وكان من صفاتهم الطيبة الحميدة : القناعة والترفع عن الحسد والمسألة مهما بلغت بهم الفاقة .

يقول الشنفرى^(١) :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد ولم أكن
بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وأغدو خميص البطن لا يستفزنى : إلى الزاد حرص أو فؤاد موكل .
وكانوا يعيشون القناعة عفة وترفعاً عن السؤال .
يقول مصرف بن الأعمى^(٢) :

ويقل ما لى ما علمت فلا أرى للدهر حين يعضنى أتخشع
والقناعة هى الغنى فى نظر الشرع الحنيف ، لأن الغنى غنى النفس وترفعها .

عن أنى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »^(٣) « والعرض هو المال » ودعا الإسلام إلى عزة النفس والبذل ، والتعفف عن المسألة . قال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليا هى المنفقة ، والسفلى هى

(١) الأشباه والنظائر للخالدين : ١٥/٢

(٢) معجم الشعراء : ٣٠٦

(٣) البخارى : ٢٣١/١١ ، ومسلم (١٠٥١) .

السائلة «^(١)» وحرّم المسألة : « ولا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مُزعة لحم »^(٢) :

وكانوا يرون أن الأمور لا تصلح بالفوضى ، ولا تهدأ بسيادة الجهال ، وإنما بالرأى الحصيف .

ولذلك يقول الأفوه الأودى^(٣) :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فإن تولت فبالأشرار تنقاد

هذه صور من مكارم الأخلاق عرفها عرب ما قبل البعثة ، وافتخروا بذكرها ، ثم جاء الإسلام ليرتفع بها في النية الطيبة ، والإخلاص لله تعالى . فسطر رجال الرعيل الأول من هذه الأمة ، أروع الأمثلة في التطبيق العملي لتعاليم الدين الجديد ، سلوكاً نظيفاً ، وواقعاً مشرقاً حياً ، ما تزال البشرية ترنو إليها .

إلا أن مكارم الأخلاق الجاهلية هذه كانت تختلط بركام هائل من مساوئ العادات والأخلاق ، وذلك في ازدواجية عجيبة ، وخليط غريب من العُثّ والسمين .. وذلك لفقدان العقيدة السماوية الضابطة ، وانحراف أهل الجاهلية عن بقايا ديانة التوحيد ، واتباعهم لضغوط الشهوات ونزعات الشر من حين لآخر .. وهذا ما سوف أفصل الحديث عنه في المبحث القادم إن شاء الله .

(١) البخارى : ٢٣٥/٣ ، مسلم : ١٠٣٣ .

(٢) البخارى : ٢٦٨/٣ ، ومسلم (١٠٤٠) وانظر « رياض الصالحين - الأرئوط » .

(٣) الشعر والشعراء : ٢٢٣/١

المبحث الثالث

صور من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة
« كما يصورها الشعر الجاهلي »

- ١ - المجون والخلاعة .
- ٢ - الخمر ومجالس الشراب .
- ٣ - القِيَان والغناء في الجاهلية .
- ٤ - الميسر .
- ٥ - أخلاق ذميمة أخرى .

تمهيد :

إنَّ مَنْ يقرأ المبحث الثاني ، دون قراءة هذا المبحث ، قد يتبادر إلى ذهنه أن العرب كانوا فى جاهليتهم أسمى ما يكون نفوساً وأرفع ما يكون أخلاقاً ..

ومن الطبيعى أن تكون الأخلاق متباينة ، فيكون فيهم العفيف والفاجر ، كما كان فيهم الشجعان والجنباء ، والكرماء والبخلاء والحلماء والجهال ..

وكنا قد تحدثنا عن بعض الأخلاق الذميمة : كالبخل والطيش والغدر والجبن ، خلال الحديث عن مكارم الأخلاق لتظهر الأمور بأضدادها .

وسوف أتناول فى هذا المبحث صوراً أساسية كانت منتشرة لدى أهل الجاهلية ، كالجئون وشرب الخمر ، والسعى وراء البغايا ومجالس القمار .. وقد كثر الحديث عنها فى الشعر الجاهلى ، بل كثر الفخر بذكرها وفعلها .

كل ذلك حتى تكتمل الصورة ، وتعود إلى الأذهان تلك الصورة المتوازنة لذلك المجتمع .

هذه الصورة هى التى أشار إليها جعفر بن أئى طالب رضى الله عنه ، عندما أجاب النجاشى ملك الحبشة على سؤاله : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ قال جعفر - رضى الله عنه - « أيها الملك كنا قومأ أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا

الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه
وصدقة وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد
نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ...

ونہانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف
المحصنات ... الخ»^(١) .

هذه بعض الأخلاق الذميمة ، يصورها الصحابي الجليل كما كانت
منتشرة بين قومه من عرب الجاهلية في الفترة التي سبقت الدعوة
الإسلامية .

على أن هذه المفاصد والشرور ، على ضخامتها وانحرافها ، تبقى دون
المستوى المتحلل الذي وصلت إليه البشرية في عصرنا الحاضر ، بل في
جاهليتها الحديثة ..

وسوف نرى بالمقارنة صدق هذه المقولة ، من خلال الحديث عن
هذه الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة ، ويأتى على رأسها ، المجون والتهتك
وكثرة البغايا ، وما يرافق ذلك من مجالس الطرب واللهو والغناء ، وشرب
للخمور ...

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٣٣٤/١ وما بعدها والرحيق المختوم :

١ - المجنون في الشعر الجاهلي

دور الإماماء في الانحراف الخلقى :

لقد كثر الشعر الذى يتحدث عن المجنون عند عدد من الشعراء ولعل كثرة الإماماء فى بلاد العرب كان له دور كبير فى انتشار هذه الظاهرة ، حيث كان بعضهن يمارس الدعارة ، وكن ينصبن رايات على أبوابهن ، لتكون علماً عليهن ودلالة ، وهن من البغايا اللاتى يقصدهن الفتيان عادة^(١) .

والدليل على أن البغايا كنّ من الإماماء ، أن اللغة تطلق البغاء على الفجور فى الإماماء خاصة ، وتطلق البغىّ على الأمة^(٢) .

وقد عبر الأعشى عن الإماماء بالبغايا فى قوله^(٣) :

والبغايا يركض أكسية الأضرىج والشرعى ذا الأذيال

وكان العرب يستمتعون بالإماء وقد يهبوهن ، وربما احترف بعضهن الغناء ، ومنهن قيان جميلات ، ويظهر ذلك من وصف الشعراء لهن .

(١) العقد الفريد : ٥٢/٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر . وانظر هذا الموضوع فى الحياة

من الشعر الجاهلى : ص ٣٦٨ - ٣٧٠ .

(٢) انظر : مادة (يعنى) فى لسان العرب . والقاموس المحيط

(٣) ديوان الأعشى : ص ١٦٦ ، ط دار بيروت ١٩٨٣ م . الإخبرى : خز أصفر أو

أحمر - الشرعى : نوع من البرود ، حرير أحمر .

يقول سلامة بن جندل^(١) :

وعندنا قينةٌ بيضاء ناعمة مثل المهاة من الحور الخرايب
ولم يكن من عادة الإماء أن يتعففن أو يتحرزن من الرجال قال
الأعشى^(٢) :

ولقد أخالسهن ما يمنعنني (وقبله) :
والبيضُ قد عنست وطل جراؤها ونشأن في قن وفي أذواد
وكان للإماء بيوت لاهية يسمر بها الفتيان .. وكانت البغايا عموماً
محقرات ، وندر أن كن من العربيات .

ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتغاضى عند جميع أهل الجاهلية ، وإنما
كانت مستهجنة عند بعضهم على الأقل .

فامرؤ القيس طرده أبوه بسبب خلاعته ، والمنافرة التي كانت بين
علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : إنك
أعور عاهر ، وأنا عفيف^(٣) .

(١) القينة : الأمة المغنية - الخرايب : ج خرعوب وهي الشابة الحسنة القوام ،
والرخصة اللينة .

(٢) الديوان : ص ٥١ هـ الجراء : الشباب من الجوارى - القن : الرق . أذواد : جماعات
من الإبل عنست : لم تتزوج .

(٣) انظر الحوق : الحياة العربية ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

نماذج من الشعر الجاهلي تصور مجون بعض الشعراء :

ورد في طبقات فحول الشعراء لابن سلام قوله^(١) : « ومنهم من كان
ينعى على نفسه ويتعهر ، منهم امرؤ القيس » حيث قال :
ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام مُحَوِّل
وقوله :

دخلتُ وقد أَلَقْتُ لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
وكان امرؤ القيس يعد من عشاق العرب والزناة^(٢) :

وكان في معلقة امرئ القيس التهتك الكثير ، حيث يذكر ابنة عمه
عنيزة ، وما كان في يوم داره جلجل ، حيث نزلت ابنة عمه (عنيزة) مع
مجموعة من النساء في الغدير ، وفاجأهن امرؤ القيس وهن غوافل ، ثم أخذ
ثيابهن ورفض إعطاءهن إياها حتى يخرجن متجردات عاريات ، وعقر هن
بعد ذلك ناقته ، وحملته عنيزة على غارب بغيرها وفي ذلك يقول في
معلقته^(٣) :

ويوم دخلت الخِدر خدر عنيزة فقالت : لك الوليات إنك مُرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بغيرى يا امرأ القيس فانزل

(١) طبقات فحول الشعراء . ٤١/١-٤٣ ، وفي اللسان نعى فلان ينعى بالفواحش إذا

اشتهر بتعاضبها

(٢) الشعر والشعراء : ٢٢/١ .

(٣) انظر المعلقة : في المعلقات الشعر للتبريزي (ص ٢٨-٤٠) ، والشعر والشعراء :
١٢٣/١-١٢٤ ، معاني المفردات : ه الخدر : الهودج - لك الوليات : دعاء عليه ، مرجلى :
رجل الرجل يرجل إذا صار راجلاً أى تحشى أن يعقر بغيرها فتصبح بدونه ، تمشى على رجليها .
الغبيط : الهودج بعينه ، وقيل مركب من مراكب النساء ه .

ثم يتحدث في جزء آخر من معلقته عن قصة غرامية أخرى لا تقل فجوراً عن سابقتها ، يصف فيها خدر صاحبتة وأحراشها ومنعتها ، وكيف تمكن من الوصول إليها رغم كل العوائق وقد استعدت للنوم ، وصور ما كان بينهما من حوار وكيف أطاعته ، وخرجت معه أخيراً من الحى إلى مكان ناءٍ ، وكانت تعفى آثار أقدامها بأذيال ثوبها الموشى .

كل ذلك بغزل صريح مكشوف ، ولا غرابة : « فامرؤ القيس فائد الشعراء إلى النار » .

ومن تَعَهَّرَ بشعره أيضاً الأعشى :

وقد كان مدمناً على الخمرة والقمار والزنا ، ويرى من أخباره : أنه أراد التوجه إلى الرسول ﷺ ، فردّه أبو سفيان وقال له : إنه ينهك عن خلال ويحرمها عليك وكلها بك رافق ، ولك موافق ، قال ما هن ؟ قال أبو سفيان : الزنا والقمار والربا والخمر .

فعدل الأعشى عن وجهته ، بعد أن أهدته قريش مائة من الإبل ، أخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن دعوة الإسلام ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيظه وقتله^(١) .

ومن خصائص شعر الأعشى أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ في وصف صاحبتة ، ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبتوثة في معلقة امرئ القيس : فيتحدث عن مغامراته وكيف يصل إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله^(٢) :

(١) انظر الشعر والشعراء : ١٥٧/١ ، ط دار المعارف ، والأغانى ١٢٥/٩ .

(٢) ديوان الأعشى : ص ١٥٠ .

فظللت أروعها وظل يخطبها حتى دنوت إذا الظلام دناها
فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حمة قلبها وضاحها
حفظ النهار وبات عنها غافلاً فخلت لصاحب لذة وحلاها

فها هو يخالس الزوج ويخاتله حتى يظفر ببيغته كما يزعم .

وطبعي أن نجد غزله مادياً صريحاً ، بسبب هود وخمره ، وقد نجد
لديه رقة في الغزل وبشدة في الوله ، وخاصة عند الوداع ، استمع إلى قوله في
فاتحة معلقته :

وَدَّعْ هُرَيْرَةٌ إِنْ الرَّكْبَ مُرْتَجِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

ثم يسهب في وصف بشرتها و شعرها وعوارضها ، ومشيتها الوانية
وحركة حليها ، بعد وصف حسي ، وغزل فيه رقة عندما يقول :

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختل
يكاد يصرعها لولا تشدها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل

إلى أن يقول بكل صراحة بل بكل وقاحة وإباحية فاضحة :

علقتُها عَرَضاً وعلقت رجلاً غيري وعلقت أخرى غيرها الرجل
فكلنا مُعَرِّمٌ يهذي بصاحبه ناءٍ ودانٍ ومحبولٌ ومحبَّلٌ

فالشاعر شقي يحب صاحبه وهي تعرض عنه وتحب رجلاً آخر ،
والرجل يعرض عنها ويحب أخرى ، وهكذا تضارب في العواطف وإسفاف
في الأدواق ، وإباحية ماجنة ، ثم يتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى
نفسها حين زارها ذات مرة فقال^(١) :

قالت هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتَ زَائِرَهَا وَيْلُ عَلَيْكَ وَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلَ

(١) انظر شرح المعلقات العشر لنثريري : ص ٣٢٩ - ٣٣٦ ، وتعليق شوقي ضيف على

بعض أبيات نعلقة ، و كتابه العصر الخامل ص ٣٦١ - ٣٦٢

هذه الصورة الماجنة قد يعتبرها بعض الكتاب المحدثين لوحة مشرقة في الأدب العربى إذ يقول : « وبعد أن ينتهى الأعشى من هذه اللوحة المشرقة يعقب عليها بصورة فكاهية لعلاقتها الغرامية ، فهو قد تعلق بها عرضاً ، وهى كذلك قد تعلقت بغيره ثم هذا الرجل تعلق بأخرى .. ، وكذلك الشاعر تعلقت به أخرى ، فأصبح الجميع فى وضع عجيب ، كل متبول وكل محب ومحبوب ولكن كلهم بلا أمل لذلك فكلهم مخبول ومخجل » (١) .

أما طرفة بن العبد : فله فلسفة ماجنة أخرى ، تلخص بأن الحياة لا قيمة لها ، وأنه لا يهتم بالحياة ولا الممات لولا ملذاته وتدور حياته حول ملذات ثلاث : امرأة وفروسية وخمرة .
يقول فى معلقته (٢) :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى	وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربه	كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محباً	كسيد الغضا ذى السورة المعمد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب	ببهكنة تحت الطراف المعمد

هذه هى حياة طرفة ، خمرة يسبق بها العاذلات ، وفرس أصيل كالذئب الكاسر يكر به على الأعداء ، وفتاة خفيفة الروح مليحة حلوة يلهو معها فى يوم غائم مطير .

وهذه هى القيم التى كان يؤمن بها الجاهلى ، إذ ليس لديه إيمان ببعث أو حساب ، حتى يدخر له شيئاً من صالح الأعمال .

(١) ملاح من دور الإسلام فى بناء العمارة العربية : محمد رشاد خليل ص ٤٤٨ .

(٢) معلقة طرفة : ص ١٠٤ بشرح التبريزى ، والشعراء الستة ص ٤٠٢ .

وأخبار المرقشين^(١) : الأكبر والأصغر تشير إلى هذه العلاقات المحرمة المأجنة ، ويعتبر الشاعران من عشاق العرب المشهورين أما الأول : فقد كانت له ابنة عم « أسماء » ، زوّجها أبوها رجلاً من مراد ، في غياب المرقش ، ولما رجع أخبر بذلك فخرج يريدّها ، ثم مرض في بعض الطريق ، فتركه صاحبه في غار وقد أكلت السباع أنفه فقال^(٢) :

مَنْ مَبْلُغُ الْفَتَيَانِ أَنْ مَرْقِشاً أَضْحَى عَلَى الْأَصْحَابِ عِبْثاً مُثْقَلاً
ذَهَبَ السَّبَاعُ بِأَنْفِهِ فَتَرَكْنَاهُ يَنْهَسُنْ مِنْهُ فِي الْقَفَارِ مَجْدَلاً

أما المرقش الأصغر^(٣) : فمن أخباره ، أنه كانت له صاحبة اسمها (فاطمة بنت المنذر) ، وكانت لها خادمة تجمع بينهما ، يقال لها هند بنت عجلان ، وكان للمرقش ابن عم يقال له : جناب ، لا يؤثر عليه أحداً ، ولا يكتمه شيئاً من أمره ، فألح عليه أن يخلفه ليلة عند صاحبتة ، فاستجاب له ، وعلمه كيف يصنع إذا دخل عليها .. إلا أنها أنكرته وقالت : لعن الله سرّاً عند المعيدى وأخرجته ، ولما علم المرقش بذلك عضّ على إبهامه فقطعها أسفاً ، وهام على وجهه حياءً^(٤) .

ومن ذلك قوله :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا خِلَا أَنْ رَوْعَهُ إِذَا ذَكَرْتَ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِماً
وَأَلَى جَنَابٍ حَلْفَةً فَأَطَعْتَهُ فَنَفْسُكَ وَلَ اللَّوْمُ إِنْ كُنْتَ نَادِماً
أَلَمْ تَرِ أَنْ الْمَرْءَ يَجْذُمُ كَفَّهُ وَيَجْشَمُ مِنْ لَوْمِ الصَّدِيقِ الْجَاشِماً
تشير هذه القصة إلى بوادر الإباحية في العصر الجاهلي .

(١) انظر أخبارهما في : الشعر والشعراء ، ٢١٠/١ - ٢١٤

(٢) المفضلية رقم (٤٥) ، والشعر والشعراء . ٢١٠/١

(٣) هو أخو المرقش الأكبر ، ويقال : ابن أخيه

(٤) انظر القصة في الشعر والشعراء : ٢١٤/١ - ٢١٥ ، والمفضلية (٥٦) « ومعنى :

زَوْعُهُ : قَلْبُهُ - يَجْذُمُ : يَقْطَعُ » .

وذلك عندما يترك المرقش ابن عمه عند صاحبتة ، متجاوزاً ما عرف
عند العرب من معاني الغيرة إلا أنّ الفجور فنون في كل جاهلية .
ونعثر في الشعر الجاهلي على صفات أخرى قبيحة ، وعادات في
العلاقات المريبة .

منها المعابثة بشق الثياب ، وهي من التعايب في الغزل بشق الثياب
والبراقع عند المتحابين ، ومن شدة المغالبة على إظهار المحاسن ^(١) .
قال أبو عبيدة : « وكان من شأنهم إذا جلسوا للغزل ، أن يتعابثوا
بشق الثياب ، وشدة المعالجة على إبداء المحاسن » .

ومن ذلك يقول سحيم « عبد بنى الحسحاس » ^(٢) :

فكم قد شققنا من داء منيسر ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برذ شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس

ويعتبر ذلك من التهلك والمجانة في أخلاق الفساق وكان مشهوراً عند
أهل الجاهلية أنواع من النكاح الفاسد أبطلها الإسلام . مثل : نكاح
الاستبضاع ، ونكاح الحوامل ونكاح المقت ^(٣)

على أن الزنا رغم ذلك كله ، لم يكن مباحاً على عمومه في أهل
الجاهلية ، بل كانت الخيانة الزوجية تستوجب عقوبة صارمة قد تصل إلى
الموت عند بعض العرب .

(١) انظر المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي : محمد محمود صيام .

(٢) ديوان سحيم ص ١٥-١٦ ، تحقيق عبد العزيز المحيمن ، ط دار الكتب المصرية

١٩٥٠

(٣) ستحدث إن شاء الله عن هذه الأمور مفصلة في كتاب المرأة بين الجاهلية

والإسلام .

والزاني هو من يتصل بامرأة محصنة غريبة عنه.. وإن كان الزنا لا يعتبر نقصاً بالنسبة للرجل ، ولا يعاب عليه لأن الرجل عندهم رجل وقد كانوا يفتخرون بالزنا ويفعلونه علناً ، إذ لم يكن محرماً عندهم ، وإذا ولد مولود من الزنا وألحقه الزاني بنفسه عُدَّ ابناً شرعياً له .

والزنا الذي يُعاب عند الجاهليين ، هو زنا المرأة المحصنة من رجل غريب بغير علم زوجها . إذ يعتبر خيانة وغدراً .

أما زنا الإماء فلا يعد عيباً ، إذا كان يعلم مالکهن وبأمره وقد يلحق بالرجل الأذى من دوى المرأة المُحصنة إن زنى بها انتقاماً منه ، خدره شرفهم وإلحاقه الضرر بهم .

ولعل المجتمع لم يخل من عقلاء تأثروا ببقايا الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام .

ومن هنا ذكر بعض أهل الأخبار أن الرجم عرف جزئياً عند أهل الجاهلية وأن أول من رجم فيها « ربيع بن حذان »^(١) وكان أنكمم بن صَيْفِي حكيم العرب قد حكم بأن الولد للفراش^(٢) .

وهكذا تبدو الجاهلية للباحث المتفحص ، خليطاً من الخير والشر ، مزيجاً من الغيرة والعفاف ، وانحجون والتهتك .. وهو ممّا تتميز به الجاهلية أية جاهلية في القديم والحديث ... ومن هنا وجب على دعاة الخير ... دعاة هذا الدين أن يُنقوا أخلاق المجتمع وعاداته مما ران عليها من انحراف وتخبط ومن روااسب الجاهلية

هذه صورة مجملة عن المحجون والاستهتار في العصر الجاهلي ، وسنرى في الصفحات القادمة كيف دعا الإسلام إلى الطهر والعفاف ، وقضى على

(١) صبح الأعشى : ٤٣٥/١

(٢) انظر الزنا وعقوبته في الجاهلية : جواد علي ، ٥٦٠-٥٥٩/٥ .

دواعى الانحراف والزنا ، كيف حرّم الوسائل المؤدية إليه ، إضافة إلى العقوبة التى قرررها فى حق الزناة .

فأسس بذلك مجتمعاً ترفرف عليه راية الطهر والفضيلة حيث تسود الأسر والبيوت الطمأنينة والاستقرار والحياء .

الطُّهر والعفاف فى ظلال الإسلام

إن الجاهلية العربية لم تكن الإباحية فيها عامة ، ولا المجون شائعاً بين جميع الطبقات ، وكذلك كانت المجتمعات البشرية تجمع على استهجان الزنا أو تحريمه حتى عصرنا الحاضر ..

ولم يخالف فى ذلك إلا شذوذة فى كل مجتمع اتبعت أهواءها وشهواتها البهيمية ، وخالفت هدى الفطرة السوية .

والفطرة الإنسانية نفسها تقتضى حرمة الزنا ، إذ يتوقف عليه بقاء النوع الإنسانى ، وقيام التمدن الإنسانى يقتضى ألا تكون الحرية للرجل والمرأة فى أن يجتمعا ابتغاء اللذة وقضاء الشهوة النفسية .

ولذلك عدّت المجتمعات الزنا جريمة مستلزمة للعقوبة الشديدة ، ولكن ظل سلوك المجتمعات نحو هذه الجريمة يلين شيئاً فشيئاً على قدر ما ظلت زخارف المدنية تفسد هذه المجتمعات .

وقد فرقت المجتمعات الجاهلية بين الزنا المحض وهو الزنا بامرأة لا زوج لها ، وعقوبة هذا النوع هينة فى قوانين مصر القديمة وبابل وآشور والهند واليونان .

وتعتبر جريمة الزنا عند هؤلاء هو الزنا بزوجة الغير .. وكانت عقوبة الزنا القتل بالعصا أو بإلقاء الزانية أمام الكلاب حتى تمزقها ، وأن يضجع

الرجل على سرير محمى من الحديد وتشعل حوله النار .. الخ . وعند اليهود كان القتل للزانيين أو الرجم هو العقوبة لهما .. ثم غَيَّرُوا وبَدَّلُوا .. (١)

وبذلك يتبين لنا أن الشرائع القديمة لم تَدْعُ الناس يعيشون في إباحية شائنة ، كما هو شائع في الجاهلية المعاصرة ، حتى جاء الإسلام وهياً السبل الواقية أمام هذه الجريمة وهياً المناخ الملائم لإنشاء الأسرة الطاهرة العفيفة . « فالإسلام حين يضع الحواجز في سبيل انحرافات الجنس ، ييسر الطريق النظيف للناس ليلبّوا دوافع الفطرة على نظافة وارتفاع ، ييسر الزواج ويشجع عليه اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وروحياً ، ويجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله » (٢) .

ويحرم الاختلاط بين الجنسين : حتى في العبادة قال ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » (٣) .

ويتضح من ذلك أن المجالس المختلطة من الرجال والنساء لا تتفق بحال مع طبيعة الإسلام ، فالدين الذى لا يسمح باختلاط الجنسين للعبادة في مواضعها ، هل لأحد أن يتصور أنه يبيح الاختلاط بينهما في الكليات والمكاتب والمجالس والنوادي الساهرة ؟ (٤) .

(١) انظر تفسير سورة النور للمودودى رحمه الله: من ص ٣١-٣٧ طبعة دار الاعتصام

١٤٠٢ هـ .

(٢) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ص ٢٦٠ .

(٣) الحديث صحيح مختصر صحيح مسلم / ٢٦٩ ، صحيح أبى داود / ٦٨١ ينظر

صحيح الجامع الصغير ج ١ / ص ٦٢٦ .

(٤) تفسير سورة النور . المودودى ص ١٧٧-١٧٨

ثم سنّ الإسلام آداب الاستئذان^(١) : إذ كان من عادة العرب في الجاهلية ، أنهم كانوا يدخلون بيوت الناس قائلين : « حيّتم صباحًا ، حيّتم مساء » بدون استئذان من أهلها ، وقد تقع أنظارهم على نسائهم وهم في حالة غير جديرة بالنظر .

فحدد الإسلام القواعد والآداب في المجتمع الإسلامي : قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة النور : ٢٧-٢٨) .

وحرّم من أجل ذلك النظر إلى بيوت الناس ، وقد مرّ معنا الأحاديث التي تحرم النظر إلى محارم الناس كما حرمت الخلوة بالمرأة الأجنبية^(٢) وهكذا يسن الإسلام الآداب التي تسمو بالنفس الإنسانية ، وتبتعد بها عن مواطن الريبة والإغراء .

وكان العرف في البيت المسلم في العمارة الإسلامية يسير حسب هذه الأهداف السامية النبيلة .

يقول الأستاذ محمد قطب :^(٣)

« ولكن نظرة سريعة إلى البيت في العمارة الإسلامية والبيت في الجاهلية المعاصرة تكشف عن الفارق الهائل في المفاهيم وما يترتب عليها من أنماط السلوك .

(١) تفسير سورة النور ص ١٤٢

(٢) انظر : موضوع الغيرة والأدلة الواردة في ذلك .

(٣) واقعنا المعاصر : (١٠٦-١٠٨) .

فالبیت فی العمارة الإسلامية صيانة للآداب وللأخلاق والأعراض بقدر ما هو فی الجاهلية المعاصرة « استعراض » « وكشف » لكل ما ينبغي أن یصان .

فی البیت الإسلامی لا یطلع الزائر علی ربة البیت لأنها « حرم » مصون . من أجل ذلك یخصص له مكان فی البیت ، یتقبل فیهِ ویرحب به .. ویتناول الطعام إذا دعی إلیه ، دون أن یتظهر لأهل البیت أو یتظهروا له

ومن بدیهیات ذلك البیت أن تكون غرف النوم فی أعماقه لا فی ظاهره ، لأنها الأماكن التي یضع فیها الناس ثیابهم ، وینبغي الاستئذان قبل الدخول إلیها حتی من الأطفال وملك الیمین .

انظر فی مقابل ذلك إلی البیت فی العمارة الجاهلية المعاصرة حیث حجر النوم هی المكشوفة علی الطریق بحجة الحصول علی أكبر قدر ممكن من الشمس والهواء ! وهی حجة مفتعلة لا تستر الرغبة الداخلية فی التعری والانکشاف ، ومن البدیهی ألا یكون فیها حرم مصون ، لأنه لا صيانة فی هذه الجاهلية لشیء من المقدسات .

التحرر من سلطان الشهوة :

وقد حرر الإسلام الإنسان من كل سلطان علی الأرض حتی سلطان الشهوة ، شهوة الحیاة ، وهی السلاح الذی یتخدمه الطغاة فی استدلال البشر فلولا حرص الناس علی هذه الشهوات ما قبلوا الذل

والشهوة لا تشبع أبداً بزیادة الانکباب علیها ، ولكنها تزداد تفتحاً واستعاراً .. ولذلك عنی الإسلام عناية خاصة فی تحریر الناس منها^(١) .

(١) شبهات حول الإسلام : ص ١٦-١٧ الأستاذ محمد قطب .

يريد الإسلام الانطلاق من جواذب الأرض نحو آفاق سامقة بعيداً
عن عبودية الشهوة .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٢٧) .

يريد الله لعباده التطهير والتيسير وإرادة الخير بالجماعة المسلمة .

أما الذين يتبعون الشهوات فإنهم يريدون للمسلمين أن يميلوا ميلاً
عظيماً عن المنهج الراشد .. أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي
أو اجتماعي ، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح
من أى لون كان .

وهذا ما تريده اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم ما بقى
من الحواجز في المجتمع دون الانطلاق البيمي الذي لا عاصم منه إلا منهج
الله حين نقره العصبة المؤمنة في الأرض إن شاء الله^(١)

عقوبات وحدود :

وبعد سد جميع الذرائع أمام الغواية ، وتكوين المجتمع النظيف ،
وتربية الناس على العفة والفضيلة ، فإن الإسلام اتخذ عقوبات رادعة لجريمة
الزنا لو حصلت ، وذلك بالجلد لغير المحصن ، والرجم للمحصن ذكرراً كان
أم أنثى .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا
رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢)

(١) في ظلال القرآن : ٦٣١/٢ - ٦٣٢

(٢) سورة النور : (الآية ٢) .

لابد من الصرامة في إقامة الحد ، وعدم الرأفة في أخذ الفاعلين بجريمتها ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق في إقامته ، تراخياً في دين الله وحقه ، وإقامته في مشهد عام نخضره طائفة من المؤمنين ، ليكون أوقع وأوجع في نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

أما المحصن فقد حددت حكمه السنة النبوية إذ تم حد الرجم زمن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين -رضى الله عنهم-^(١) .

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعل المستنكرة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يخارها إنما أراد محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ..

ويعتمد كذلك على الضمانات الوقائية وعلى تطهير جو الحياة كلها من رائحة الجريمة .. فيعاقب على قذف المحصنات واتهامهن دون دليل أكيد .. بثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق . قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور : ٤)^(٢) .

هذا هو المجتمع الإسلامي ، وهذه هي معالم الطهر فيه ، فقد خلصه الإسلام من رواسب الجاهلية وانحرافات واستمر على ذلك قروناً متطاولة حتى بدأ الانحراف والانهيار في حضارة القرن العشرين .

(١) انظر قصة رجم معاذ والغامدية في صحيح مسلم مع الشرح للنووي الجزء

١٩٤/١١ ، ١٩٩ ، ٣٠١

(٢) انظر في ظلال القرآن (٤/٢٤٨٩-٢٤٩١) .

المجون والاستهتار في حضارة القرن العشرين

تتميز جاهلية هذا القرن بالفوضى الجنسية والانطلاق البهيمى بلا ضابط ، واعتبار أن هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهر من مظاهر الحرية الشخصية ، لا يقف في وجهها إلا متعنت ولا يخرج عليها إلا مترمت !

وفي المجتمعات الجاهلية تتعاون جميع الأجهزة على تخطيم الحواجز الأخلاقية ، وعلى إفساد الضوابط الفطرية في النفس الإنسانية ، وعلى تزيين الشهوات البهيمية ووضع العناوين البريئة لها ، وعلى توهين ضوابط الأسرة .. وضوابط المجتمع ورقابته .. وعلى تمجيد هذه الشهوات وتمجيد العرى العاطفى والجسدى والتعبيرى !

كل هذا من سمات الجاهلية الهابطة التى جاء الإسلام ليظهر المشاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها .

والذى يراجع أشعار امرئ القيس في جاهلية العرب يجد لها نظائر في أشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ، كما يجد لها نظائر في الآداب والفنون المعاصرة في جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضاً^(١) .

ولو قارنا الاستهتار الذى تطرق إليه طرفة بن العبد والأعشى وغيرهما من شعراء التهتك بهذا الانحدار العام في الجاهلية المعاصرة ، لكان أمر تلك الجاهلية .

(١) في ظلال القرآن : ٦٠٢/١ .

وها هى بلاد الغرب والشرق كلها قد أباحت الجنس وباركته
بإغضاء الدولة أو تشجيعها الصريح ، وإتاحة الفرص الواقعية للإشباع بعيداً
عن كل نهى أو زجر أو تخويف .

ولكن الجوعة لم تهدأ بالإشباع المطلق المتاح .. فكلم قلمًا وكلم
كتابًا .. كم قصة .. كم صورة خليعة .. كم برنامجًا إذاعيًا أو تلفزيونيًا ..
كم أغنية .. كم حفلة عارية أو شبه عارية يستهلكها الشباب من الجنسين ؟! ..
وما نتائج هذا النهم إلا القلق والجنون والانتحار ؟! وماذا أصاب
الأسرة من إطلاق الشهوة دون حدود ؟ لم تعد الأسرة راحة وسكنًا ..
ورباطًا زوجيًا^(١) .

لقد حاولت الأفلام الهابطة تلويث شرفنا المحافظ العفيف وأن تنتزع
من الفتاة المسلمة كل خلق أو تقليد حتى الحياء الذى كانت تتميز به الفتاة
المسلمة بل الشرقية حاولوا طمسها فى نفسها « لقد أقيمت فى شواطئ
الاسكندرية » ونشرتها الصحف « مسابقة بعنوان « أبو عيون جريئة »
يكون الفائز فيها هو أوقع الشبان وأقلهم حياء وأدبًا » .

وكتب أنيس منصور فى إحدى مقالاته فى أخبار اليوم أنه زار إحدى
الجامعات الألمانية ، ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجًا أزواجًا ، مستقلين
على الحشائش فى فناء الجامعة .

قال : فقلت فى نفسى ، متى أرى ذلك المنظر فى جامعة أسيوط كى
نراه عيون أهل الصعيد وتعود عليه^(٢) .

(١) جاهلية القرن العشرين : محمد قطب ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) واقعنا المعاصر : محمد قطب ، ص ٢٦٧ ، ٢٩٤ .

ثم ساهمت الأفلام الخليعة والمسلسلات الخبيثة في عالمنا الإسلامى في عرض النساء العاريات الراقصات والساحبات في البحار ومن يلاعبن الرجال باللمس والحركات المثيرة ، ويشربن معهم الخمر ، وغير ذلك من الفواحش المكشوفة التى يشاهدها الصغار والكبار ، وحسبك من شرّ سماعه ، فما بالك برؤيته ومعاينته ؟!

إن المنكرات متى كثر ورودها وتكرر في العين شهودها ذهبت عظمتها من القلوب حتى يراها الإنسان فلا يرى منها منكرات .
لقد أفسدت هذه الأفلام - ناهيك عن الفيديو - أخلاق البنين والبنات لأنها مشهد زور ومدرسة فجور^(١) .

لقد أفسد اليهود وأوربا وما هم يحاولون أن يفسدوا العالم كله .
تقول بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان ، فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس كى لا يبقى في نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همّه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه .

« وإن ماركس وفرويد ودركايم ، هؤلاء اليهود الثلاثة وغيرهم من الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .
ماركس ومعه التفسير المادى للتاريخ يقول : إن العفة الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعى البائد

(١) حماية الدين والوطن عن غزو أفلام الخلاعة والفتن : للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر ص ١٠ / ١٤ .

وفرويد يقول : إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي ، وكل قيد من دين وأخلاق أو مجتمع أو تقاليد هو قيد باطل ومدمر لطاقات الإنسان وهو كبت غير مشروع»^(١) .

ودركايم يفسد علم الاجتماع بنظرياته حيث يحطم قيود الدين والأخلاق .

ومن هنا فقد تحول وجه الأرض إلى ماخور يغفر فاه لكل فني وفتاة ؟ وإلا فمن أين كثرة الانتحار المخيف يُختطف الشباب والشابات وتزداد النسب ارتفاعاً يوماً بعد يوم^(٢) .

ومرض الأيدز ذلك الشبح المخيف الذي بدأ يُهاجم أوروبا وأمريكا « والإحصائيات كثيرة ومفزعة » هو نتيجة طبيعية للممارسة الجنسية المنحرفة ، أو الشذوذ الجنسي الساقط .

لقد سلط الله عليهم جرثومة هذا المرض المرعب الذي تتفطر له القلوب هلعاً ويؤدي بأصحابه إلى الموت مصداقاً لحديث الرسول ﷺ الذي رواه بريدة - رضى الله عنه - : « ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم قط الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر »^(٣) .

وها هي الكوارث والحروب ، والقتل والدمار يصبح ذلك كله من سمات هذا العصر .

(١) جاهلية القرن العشرين : ص ١٥٦-١٥٧ .

(٢) انظر مقالاً بعنوان : الانتحار ، مجلة البيان ، العدد الثامن ص ٩٥ إعداد ضيف الله

الضيفان .

(٣) رواه البزار : ورجاله رجال الصحيحين غير رجاء بن محمد وهو ثقة

أصبح المجنون والاستهتار بالأخلاق العامة وشيوع الفاحشة من مميزات
الجاهلية المعاصرة .

وإن الإسلام العظيم الذى تَخَلَّص البشرية من انحرافها ورذائلها فى
الجاهلية القديمة ، هو القادر على تخليصها من هذه الموبقات الجديدة
والإسفاف الشائن .

فرذائل الجاهلية هى هى ، ومقومات الجاهلية هى هى ، وإن تلوَّنت
بأشكال كثيرة ، وحالات مستحدثة .

والأمل كبير فى علماء هذه الأمة المخلصين وفى دُعائها المحتسين ، إذ
عليهم تُعَقَّدُ الآمال فى التربية العقدية الجادة ، والقدوة الطيبة والمتابعة
الحسنة .

والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

٢ - الخمر ومجالس الشراب عند أهل الجاهلية^(١)

من العادات القبيحة التي كانت تلازم أهل الجاهلية شرب الخمر ، وإنفاق الأموال على اقتنائها ، وقضاء الليالي الساهرة مع الأصحاب على احتسائها ، مع اعتبارها وسيلة من وسائل الفخر والكرم .

شيوع انتشارها :

لقد أغرم العرب بالخمرة متحضرين ومتبدين ، وافتخر الشعراء بمعاقرتها وبذل المال في سبائها .

« وفي مجتمع ضيق كانت الحياة فيه تسير على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل .. والفقر أكثر من الغنى .. في مجتمع كهذا أقبل الناس على قتل الفراغ بالبحث عن شيء ينسيهم الفقر ويبعث فيهم الأمل والطرب ، ونسيان الفراغ ثم ضياع الوقت ، إذ كانت الخمرة والقمار والنساء متع الحياة عند الشباب »^(٢) .

وقد أولع بالخمر أهل المدن كالحيرة لقربها من الفرس والروم .. وكانت فيها الحانات الكثيرة .. يسكرون فيها ويفجرون ، وكانت فيها أديرة للعبادة واحتساء الخمر ، وقد أكثر الشعراء القول في خمر الحيرة وغلمانها وأزهارها وأعيادها ، ولهم فيها ساقيات وقينات .

(١) انظر تفصيلاً لذلك : الحياة العربية من الشعر الجاهلي (٤٣٥-٤٥٤) .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/ ٦٦٤-٦٦٥ جواد على) .

قال عدى بن زيد :^(١)

ثم ثاروا إلى الصُّبُوح فقامت قينةً في يمينها إبريق
قدمته على عقار كعين الد يك صفى سلافها الراوق
مزة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق
كما أولع بالخمرة أهل الطائف لكثرة كرومها وأعناياها وكانت بها
حانات كثيرة قبل الإسلام .

ومن شعرائها أبو محجن الثقفي الذي اشتهر بالخمرة في جاهليته ،
وحده أمير المؤمنين عمر -رضى الله عنه- عدة مرات على شربها ، ثم نفاه ،
ولحق بسعد بن أبي وقاص -رضى الله عنه- ، وقد أبلى بلاء حسنا في
القادسية ، وقال له سعد -رضى الله عنه- بعدها : لا حبستك في الخمر
بعدها أبداً ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها بعد اليوم أبداً^(٢) . فنعى
الإسلام هادياً ومؤدباً .

وينسب إليه قوله :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وشغفت الخمر أهل المدينة : ففيها النخيل والزروع ، وفيها يهود ذو
صناعة وثروة وطرب ، لا يدعونه حتى وقت الخروج والمطاردة ، فبنو
النضير كانوا وهم يجلبون عن المدينة يحملون معهم الدفوف والمزامير والقيان
يعزفون خلفهم^(٣) .

(١) الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني .

(٢) الشعر والشعراء : (١/٤٢٣-٤٢٤)

(٣) الحوف : الحياة العربية ص ٤٤٥ .

وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد التعب والنصب
وكانت بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك ، وكان أصحابها من اليهود والنصارى في الغالب .. وفدوا من الخارج للتكسب وامتنهوا مهنة بيع الخمر وإسقاؤها للناس ، وعرفت الخمارة بالخانوت آنذاك^(١) .

أسباب وَلَع أهل الجاهلية بالخمّر^(٢)

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : لماذا أولعوا بها كل هذا الولع ؟ وما مظاهر ولعهم هذا ؟!

أ - ربما ليقضوا وقت فراغهم الطويل الممل ، ولتزيدهم حمية وحماسة في الحروب . وقد تبعث خيالات سارة وتبعث في القلب النشاط .

قال حسان بن ثابت - رضى الله عنه - ، وذلك في جاهليته^(٣) :
ونشربها فتركنا ملوكًا وأسداً ما ينهنهنا اللقاء
ورأى العرب أن الخمرة تبعث على الكرم . قال عمرو بن كلثوم^(٤) :
ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشة كأن الحصى فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
ترى اللّجَزَ الشّحيحَ إذا أمرت عليه لماله فيها مُهينا

(١) جواد على : ٦٦٧/٤

(٢) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، الحوقى .

(٣) ديوان حسان بن ثابت : ص ٨ ط ١٩٨٣ م دار بيروت .

(٤) المعلقة ، شرح القصائد العشر للتبريزى (٢٥٤-٢٥٥) ، اندرين : قرية بالشام قرب

حلب - مشعشة : رقيقة من العصر أو المزج ، الحصى : الورد ، اللّجَز : البخيل .

ب - وبسبب كثرة الحروب استهانوا بالحياة ، وتوقعوا الفجيعة في أنفسهم وأحبائهم ، فانكبوا على لذات الحياة ينهلون منها .

وكانوا بين غالب ومغلوب ، غالب سبي وغنم وظفر فيعب الخمر بنهم ونشوة ، ومغلوب كسر وسلب ماله وأسرت نساؤه ورجاله .. فأظلمت حياته وضاعت به الدنيا ، فيلوذ بالخمر يتناسى بها همومه .

فعترة يفخر في معمعة المعركة ، بأنه ممن يشرب الخمر وينفق عليها ماله ويصون عرضه ، وإذا أفاق من سكره لا يقصر عن كرمه كذلك . يقول في معلقته : ^(١)

لقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المُعَلِّم
فإذا شربت فإنني مستهلك مالى وعرضى وافر لم يُكَلِّم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

ج - وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ويختطف الأحباب فليستمتعوا بحياتهم القصيرة بما يملكون قبل أن يحتويهم التراب ، وقد عبر طرفة عن هذه التزعة خير تعبير في معلقته إذ يقول : ^(٢)

ومازال تشرانى الخمر ولذنى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كمت متى ما تعل بالماء تزبد
فطرفة يعد الخمرة واحدة من ثلاث لولاها لما حفل بالحياة بعد ذلك .

(١) معلقة عنترة : (ص ٢٣٢-٢٣٤) شرح القصائد العشر للتبريزى ، المشوف

المعلم : قدح صاف منقوش .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ، ص ١٠١ وما بعدها .

إنه يعيش في قلق وحيرة ، وجشع ليعبّ من الملذات ، كل ذلك لأنه لا يؤمن بيعت ولا نشور .

والغريب أن بعض الكتاب المحدثين يعتبر هذه الآيات والبيت التالي خاصة :

« فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي »
يعتبره دليلاً على أن العرب آمنوا بالحرية والمسؤولية وهم متوكلون لا متواكلون ولا عاجزون ، لأنهم قالوا : إذا كان كل شيء يجري بقضاء الله وقدره ، فلماذا الخوف من الموت ؟ وهو واقع لا محالة ؟ ولماذا الضنُّ^(١) بالمال وهو مال الله الذي يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء ؟

وما أدرى أين الإيمان بالقضاء والقدر ، وحياة طرفة تتحول إلى مجموعة من الشهوات ، بعد بأس قاتل وحياة مظلمة !؟

د - وكانت الخمرة من مفاخر القادرين على اقتنائها حيث يجمع الرجل ندماءه فيسقيهم وينحر لهم .

يقول الحادّرة :^(٢)

فسمي ما يدريك أن ربّ فتية باكرتُ لذتهم بأدكن مترع
بكرُوا عليّ بسحرة فصَبَحَتْهم من عاتق كدم الغزال مشعشع
ومعرّض تغلى المراحل تحته عجلت طيخته لرهط جُوع

كانت الخمرة من دواعي فخر العري وكرمه ، وكان تقديمها للضيوف وجمع الفتيان لشربها مفخرة أى مفخرة !

(١) انظر ملاح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة النبوية ، ص ٦٢٨ ،

د. محمد رشاد خليل

(٢) المفضليات رقم (٨) « الأدكن : الرق - عاتق : خمرة معتقة » .

قال لبيد في معلقته يخاطب حبيته : أنت لا تعلمين كثرة الليالي الطيبة التي قضيتها مع منادمة الكرام ، أبيت أحدثهم ولا تدرين كم من راية خمار فصدتها ، واشتريت الخمر منها غالية معتقة لنداماي ، وإني لأصطبغ بها قبل أن يصحو الدجاج^(١) :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيد لهُوها ومدامُها
قدبْتُ سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعزَّ مدامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفُصَّ ختامها
وقلما نجد شاعراً مرموقاً إلا وقد استهوته الخمرة ، ونادراً ما كنا نجد من يفتخر بالكرم والسيادة إلا وقد قرن بهما فخره بالخمرة وتقديمها للضيوف .

هـ - وقد يحل أحدهم لنفسه الخمر بعد تحريمها حتى يثأر لعزیز كامريء القيس الذي كان قد حرم الخمر على نفسه بعد مصرع أبيه ، ولما أوقع بيني أسد وثأر لأبيه منهم صار يحتسبها حُرّاً راضياً^(٢) :
حلَّت لي الخمر وكنت امرءاً عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل
وهكذا يحرم الجاهلي على نفسه ، ويبيح كما يشاء شأن كل جاهلية تحرم وتُحلل حسب الهوى .

(١) شرح المعلقات للتبريزي : ص ١٩٢ ، « السباء : شراء الخمر - أدكن . زق أغبر معتق - جونة : خابية مطلية بالقار ، قدحت : مزجت » .

(٢) الأصمعيات : (رقم ٤٠) ، « المستحقب : من قولهم احتقب فلان الإثم كأنه جمعه واحتقبه من خلفه - الواغل : الداخِل على القوم في شرايهم ولم يُدْع إليه » .

وصف الشعراء لمجالس الخمرة وسقاتها: (١)

وصف الشعراء مجالس الخمر وأدوات احتسائها من أباريق فضية ،
ودنان مترعة ، ممزوجة بروائح الطيب والريحان .

يقول عبيد بن الأبرص واصفاً إياها وارتفاع أثمانها (٢) :

بماء سحاب في أباريق فضة لها ثمن في البائعين ربيع

وقال الأسود بن يعفر : إن الدن كان مرفوعاً على نصائب وقد طابت

رائحته لشاربيه ، مما عليه من طيب وريحان (٣) :

سُلَاقَةُ الدَّنْ مرفوعاً نصائبه مقلّد الفغو والريحان ملثوما

وقد أولع الشعراء بوصف السقاة والكؤوس والندامي ، والغناء

المصاحب للخمرة ، ولعبدة بن الطبيب أبيات جياذ يصور فيها غدوه

مبكراً إلى الخمارين ليشرب خمرة لم يشربها أحد مثله ، صرفاً وممزوجة ،

هنالك في أماكن الطرب حيث استمع إلى قينة تغنى بشعر جميل ، فيطرب

وأصحابه لها ، فيعطونها الهبات ومن ذلك قوله : (٤)

١- والكوب ملآن طاف فوقه زبد وطابق الكبش في السفود مخلول

٢- يسعى به منصف عجلان متطّق فوق الخوان وفي الصاع التوايل

(١) انظر الحياة العربية : الحوفي (٤٤٨-٤٥١) .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص : رقم القطعة (٨) .

(٣) المفضليات رقم (١٢٥) ، الفغو : نبات طيب الرائحة - ملثوماً : عليه لثام .

(٤) المفضليات : رقم القطعة (٢٦) ص ١٤٤ .

١ - طابق الكبش : ربه أو قطعة منه - مخلول : مشكوك في السفود وهو السيخ ،

٢ - المنصف : الخادم والأنثى : منصفة - الصاع : صحفة فيها خل وأبزار مخلوط

- ٣- صرفًا مزاجًا وأحيانًا يعلننا شِعْرَ كُمُذْهَبَةِ السَّمَانِ محمول
 ٤- تذرَى حواشيهُ جيداءِ آنسةً في صوتها لسماعِ الشَّرْبِ ترتيلُ
 ٥- تغدو علينا تلهينا ونُصَفِّدُها تلقى البرودُ عليها والسرَّابيلُ^(١)

وقد نستغرب إذا عرفنا أن شعراء الجاهلية ، وصفوا السقاة الغلمان وهم يلبسون الأقراط والأحزمة ، أقراطًا من اللؤلؤ في أذن الساق ، وأصابه قد صبغت بحمرة تضرب إلى السواد والقينات الساقيات ينطقن مخفوض الحديث تهامسًا ، فيبلغن ما يرذن من إغواء بأيسر سعى وبلا مشقة ، وهذا ما يقوله الأسود بن يعفر النهشلي ، ويصوره في شعره :^(٢)
 ولقد هوث وللشباب لذادةً بسلافة مزجت بماء غوادى
 من خمر ذى نطفٍ أغنَّ منطقي وافي بها لدراهم الإسجاد
 يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصاد
 وفي وصف القينات الساقيات يقول :

والبيض تمشى كالبذور وكالدُمى ونواعم فيمشين بالأرفاد
 ينطقن معروفًا وهنّ نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد
 ينطقن مخفوض الحديث تهامسًا فبلغن ما حاولن غير تنادى
 نلاحظ في هذه القصيدة مظاهر التحلل واختلاط الجنسين واضمحًا ،
 مما تطور في الجاهلية الحديثة إلى الهيبين والخنافس حيث كادت أن تضيع

(١) المفردات : يشربونها صرفًا لطيبها أو ممزوجة بالماء لسهولة شربها . يعلننا : يلهينا غناء
 القيان - السمان : الأصباغ تزوق بها السقوف ، محمول : يحمله الناس ويرددونه لحسنه ،
 تذرَى : ترفع - جيداء : طويلة الجيد - الآنسة : المنبسطة المتحدثة ، الشرب : الشاربون .
 (٢) المفضلة رقم (٤٤) ص ٢١٨ ، سلافة : خالص الشراب وأوله - غوادى :
 السحاب ينشأ غدوة ، نطف : الأقراط - أغن : الذى يخرج صوته من خياشمه - منطوق :
 غلام عليه نطق - الإسجاد : دراهم الأكاسرة عليها صور يسجدون لها ، ذو تومتين :
 اللؤلؤتان - قنأت : اشتدت حمرتها وضربت للسواد . الفرصاد : التوت - الأرفاد : ج رفد
 وهو القدح الضخم .

معالم الفروق من الجنسين ولا غرابة في ذلك فالجاهلية هي الجاهلية في دوافعها ومظاهرها وبعدها عن الفطرة السليمة في كل مكان وزمان

وصف أثرها في النفوس: (١)

كان تصوير العرب (في شعرهم) للخمر تصويراً مادياً ، إذ وضعوا رفاقها والندامي والكؤوس ، ولم يتجهوا إلى تصوير آثارها في النفوس ، وما تثيره من خيالات وأوهام ، إلا أن قليلاً منهم صور أثر الخمر في نفسه وخلال فترات السكر وأطيافه .

ومن ذلك قول المنخل اليشكري: (٢)

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير
فاذا سكرت فإننى رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإننى رب الشوية والبـعير

وكقول حسان بن ثابت في جاهليته: (٣)

ونشرها فتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهننا اللقاء
وقول امرئ القيس: (٤)

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نقاداً وحتى نحسب الجؤن أشقرا

أى إن الشاعر كان يشرب هو وندماؤه حتى يفقدوا صوابهم ، فيحسبون الخيل صغار ضأن ، ويظنون الأبيض المسود (أو الأسود المبيض) أشقر ، لأثر السكر والخمرة .

(١) انظر جواد على : ٦٧٠/٤ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٠٥/١ . ويقصد بقوله : الصغير والكبير أى صغير ماله وكبيره

ولم يقصد إناء كبيراً أو صغيراً كما ذكر التبريزى !!

(٣) الديوان : ص ٨ .

(٤) الشعراء السنة : ص ٧٠ .

المُحَرَّمُونَ للخمر في الجاهلية^(١)

كان هنالك عدد من العقلاء ، عرفوا مفساد الخمر وتأكدوا من خبثها ، فحرموها على أنفسهم ، ومن هؤلاء : عفيف بن معديكرب إذ يقول :^(٢)

وقائلة هلمّ إلى التصامى فقلت عففتُ عما تعلمينا
وودعت القداح وقد أراى بها في الدهر مشغوفاً رهيناً
وحرمت الخمر علىّ حتى أكون بقعر ملحودٍ دفيناً
ومن حرمها أيضاً عامر بن الظرب وهو القائل :^(٣)

سأله المفتى ما ليس في يده ذهابه بعقول القوم والمال
تورث القوم أضغاناً بلا إحنٍ مزرية بالفتى ذى النجدة الحال
أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها حتى تمزق ربّ الأرض أوصالى

وقد حرمها على نفسه قيس بن عاصم سيد بنى تميم ، وكان عاقلاً حكيماً شاعراً ، إذ قد ثمل مرة وسكر سكرًا قبيحًا حتى أنه جذب ابنته ثم نهب ماله ومال الخمار ، ولما صحا أخبرته ابنته بما صنع وما قال . فآلى ألا يذوق الخمر بعد ذلك وقال :^(٤)

وجدتُ الخمر جاحضةً وفيها خصالٌ تفضح الرجل الكريم
فلا والله أشربها حياتي ولا أدعو لها أبداً نديماً
فإن الخمر تفضح شاربها وتجشمهم أبداً أمراً عظيماً

(١) انظر بلوغ الأرب : ٢٩٤/٢ - ٣٠٠ ، والحوافى الحياة العربية : ٤٥٢ - ٤٥٤

(٢) أمالي القائل : ٢٥/١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .)

(٣) اغمر لابن حبيب : ص ٢٣٩

(٤) انظر نغمه لها في الغمر ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، والأبيات في الأغاني ٨٤/١٤ دار

وقد نقل صاحب بلوغ الأرب عن ابن قتيبة في كتاب الخمرة ويسمى « كتاب الأشربة » أنه قال :

وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ حرّموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها . فقالت عائشة -رضي الله عنها- : « ما شرب أبو بكر خمرًا في جاهلية ولا إسلام » . ونقل عن عثمان بن عفان ، وعثمان بن مظعون ، والعباس بن مرداس -رضي الله عنهم- أقوالاً في تحريمهم للخمر في الجاهلية^(١) .

ومن حرمها في الجاهلية أيضاً الحنفاء ، وسادات القوم وشرفائهم بل من حكامهم وحكمائهم أيضاً مثل عبد المطلب بن هاشم ، وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وغيرهم^(٢) .

على أن النساء ما كن يشربن خمرًا ، وكان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يشتدون على النساء في شربها ، حتى ما يحفظ أن امرأة شربت ولا سكرت .

وقد سقى قوم أعرابية مسكرًا ، فلما أنكرت نفسها قالت : أشرب هذا نساؤكم ؟ قالوا : نعم . قالت : لئن كنتم صدقتم ، لا يدرى أحدكم من أبوه ؟^(٣)

وهكذا كانت الخمر شائعة إلا عند القليل ، ولا أثر لهؤلاء في مجتمع الجاهلية حيث يضيع تعقل العقلاء ونصح الحنفاء . إلى أن جاء الإسلام ووضع لها الحد الفاصل ، وحرّمها وأريقت لتحريمها شوارع المدينة المنورة بالخمور المعتقة الثمينة .

(١) بلوغ الأرب : الجزء الثاني ص ٢٩٦ .

(٢) انظر : المخبر ص ٢٣٧ ، وجواد على ٦٧٠/٤٠ ، وأدب الحنفية : حبيب الزهراني .

(٣) كتاب الأشربة لابن قتيبة : ص ٥٩ نقلًا عن الخوف ص ٤٥٤ .

الإسلام يحرم الخمر والمسكرات

إن الخمر التي كانت من مفاخر عرب الجاهلية ، ومن تقاليدهم العريقة المألوفة ؛ مع ما يرافقها من نحر الإبل وجمع الندامى على اللهو والطرب . جاء الإسلام ليلغيها .

« وأراد بحكمته أن يأخذ الجماعة المسلمة خطوة خطوة في الطريق الذي أراده لها ، ويصنعها الله على عينه للدور الذي قدره لها . وهذا الدور العظيم لا تتلاءم معه تلك المضيعة في الخمر والميسر .. »^(١)

خلص الإسلام الجماعة المسلمة من رواسب الخمرة بعد أن رسخ دعائم التوحيد والعقيدة في نفوسهم .

وقد تدرج الإسلام في تحريم الخمر ، ويحدثنا ابن كثير في تفسيره عن هذا التدرج بقوله :

« لما نزل تحريم الخمر قال عمر - رضى الله عنه - : اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (البقرة آية : ٢١٩) .

فدعى عمر فُقرئت عليه فقال : اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ « النساء آية ٤٣ »

(١) في ظلال القرآن : ١ / ٢٢٩ .

فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت آية المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ .. إلى قوله : فهل أنتم متبهون ؟ ﴾ ^(١) فلما بلغ : فهل أنتم متبهون ؟ قال عمر : انتهينا انتهينا » ^(٢) .

« فالخير يتلبس بالشر في هذه الأرض .. ولكن مدار الحل والحرمه هو غلبة الخير أو غلبة الشر .. فعندما يتعلق الأمر أو النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أى بمسألة اعتقادية فإن الإسلام يقضى فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولى .

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة أو تقليد أو بوضع اجتماعي مُعَقَّد فإن الإسلام يترث ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيء الظروف الواقعية التي نيسر التنفيذ والطاعة » .

« وبعد نزول آية البقرة ثم آية النساء شربها قوم وتركها آخرون ثم قالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة ، وتركها قوم في أوقات الصلاة فقط ، فقل من شربها .

والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكتفى ما فيها للسكر والإفاقة وفي هذا كسر لعادة الإدمان » .

(١) تفسير ابن كثير : ٢٤٢/١ طباعة دار الجليل بيروت الأولى ١٤٠٨ هـ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن إسرائيل عن أبي اسحق ... وقال

على بن المديني : هذا إسناد صالح صحيح وصححه الترمذي عن « تفسير ابن كثير ٢٤٢/١ »

ولما نزل التحريم في آية المائدة بعد وقعة أحد في سنة ثلاث لم يحتاج الأمر إلى أكثر من منادٍ في نوادي المدينة ، ألا أيها القوم إن الخمر قد حُرِّمَتْ ، حتى تُراق في شوارعها^(١) .

قال الفخر الرازي : والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد أُلْفُوا شرب الخمر ، وكان انتفاعهم بذلك كثيرًا ، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لَشَقَّ ذلك عليهم ، فلا جَرَمَ أَنْ دَرَجَهُمْ في التحريم رفقاء بهم^(٢) .

عالج المنهج الرباني هذا الأمر كله بوضع آيات من القرآن وعلى مراحل في رفق وتؤدة ، وانتهى المسلمون كافة وأريقَت زقاق الخمر بمجرد سماع الأمر ، ومَجَّ الذين في أفواههم جرعات من الخمر كانت في أفواههم - حين سمعوا - النداء ، تلك الجرعات .

لقد ملأ الإسلام فراغ ذلك الجيل باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغًا تملؤه بنشوة الخمر وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء - ملأ فراغها بالإيمان الذي يشع بها إلى الملأ الأعلى الوضيء^(٣) .

ولنستمع إلى الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - في تحريم الخمر قال أنس : « كنت ساقى القوم يوم حُرِّمَت الخمر في بيت أُمِّي طلحة ، وما شربهم إلا الفَصِيخ ، البُسْر والتمر ، فإذا منادٍ ينادي فقال : اخرج فانظر ، فخرجتُ فإذا مناديًا ينادي : ألا إن الخمر قد

(١) انظر : في ظلال القرآن : ٢٢٩/١ ، ٩٧٦/٢ .

(٢) انظر الزواجر عن اقتراف الكبائر : أحمد بن محمد الهيتمي (ط ٢) محمد محمود الحلبي وشركاه بمصر ١٣٩٠ هـ . ١٤٩/٢ .

(٣) الظلال : ٦٦٥-٦٦٧ .

حُرِّمَتْ . قال : فَجَرَتْ في سكك المدينة . فقال لى أبو طلحة : اخرج فأمرقها فهرقتها »^(١) .

بينما حاولت أمريكا أن تطارد الخمرة وشربها ، وسنت عام ١٩١٩ م قانونًا سمي « قانون الجفاف » من باب التهكم عليه ، لأنه يمنع الرى بالخمرة واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والمحاضرات والصور والسينما لبيان مفساد الخمر .

وقد أنفقت الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد عن ستين مليون دولار ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عامًا لا يقل عن « ٥٢٠ » مليون جنيه ، وقد أعدم فيها « ٣٠٠ » نفس وسجن : « ٥٣,٢٣٣٥ » نفسًا ، وبلغت الغرامات (١٦ مليون جنيه) ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ « ٤٠٤ » مليون جنيه ، ولكن ذلك كله لم يزد الأمة الأمريكية إلا غرامًا بالخمر وعنادًا في تعاطيها ، حتى اضطرت حكومتها سنة ١٩٣٣ م إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في بلادها إباحة مطلقة^(٢) .

هذه هي حضارة القرن العشرين ، هو وسكر وجنون في العبث والفسق ، وهي تعبير عن الخواء الروحي ، وعن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفذ الطاقة . فمتى يدرك المفتونون في حضارة التيه والضياع هذه الحقائق ؟!

وإذا كانت الخمر قد حرمت بنص كتاب الله تعالى ، فإنها حرمت في السنة النبوية ، وحُدَّ شارب الخمر أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين - رضى الله عنهم - كما سيأتى .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤٨/١٣ .

(٢) عن كتاب : تنقيحات لأئى الأعلى المودوى .

تحريم الخمر والمسكرات من السنة النبوية :

وردت الأحاديث الصريحة والكثيرة في تحريم الخمر والتنفير منها ، وتحريم بيعها وقَرْنه بـثمن الميتة والخنزير . قال ﷺ يوم الفتح وهو بمكة : « إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ »^(١) .

ويشمل التحريم جميع أنواع المسكرات ، وحدّد ذلك الحديث الشريف : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ »^(٢) .

وقد وردت أحاديث أخرى تنذر بالوعيد الأكيد والترهيب الشديد لشاربها ، كلعنه ونزع صفة الإيمان عنه ، وعقوبة العذاب الشديد في الآخرة .

عن أنى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(٣) .

والويل لمن يصر على شرب المسكر ، لأن شربه في جهنم سيكون من عَرَق أهل النار . قال ﷺ :

« كل مسكر حرام ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ ، قالوا : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ ، أَوْ عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ »^(٤) .

(١) صحيح مسلم مع الشرح : ٦/١١ .

(٢) مسلم مع الشرح : ١٧٢/١٣ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) مسلم مع الشرح : ١٧١٠١٣ .

وقد لعن الله الخمرة وشاربها وبائعها وآخريين ذكروا في نص الحديث الشريف :

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ : « لَعَنَ الله الخمرَ وشاربها وساقياها ، ومبتاعها وبائعها ، وعاصرَها ومعتصرَها وحاملَها والمحمولة إليه » (١) .

ومما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان يجلد شاربي الخمر ومن شهد مجلسهم وإن لم يشرب معهم .

ولا حجة لمن يزعم أن في الخمرة منافع صحية وأنها قد تُصنع للدواء ، وذلك يخالف صريح الحديث الصحيح إذ سئل رسول الله عن الخمر تصنع للدواء فقال : « ليس بدواء ولكنه داء » (٢) .

« وهكذا نرى أن الكتاب والسنة يحزمان الخمر ، ويتوعدان شاربيها بالعذاب والثبور ، وأن الإجماع عند هذه الأمة المسلمة على أنها محرمة وأن مستحل شربها كافر ، كما أجمعت على تحريم سائر المسكرات ولم يقع في هذا خلاف بين المذاهب كلها » (٣) .

ولم يترك الإسلام شاربي الخمر يعيشون في الأمة فسادًا ، أو يجاهرون في شربها ، فوضع العقوبات الرادعة من جلد وتغزير ومقاطعة كما سيأتي في الفقرة القادمة .

(١) رواه أبو داود واللفظ له ، وابن ماجه والترمذى وقال : حسن غريب

(٢) رواه مسلم في صحيحه : ١٥٢/١٣ (بشرح النووي) .

(٣) انظر كتاب : الخمر وسائر المسكرات والمخدرات : أحمد بن حجر آل بوطامي ،

قاضي المحكمة الشرعية في قطر ، ط المكتب الإسلامي ١٤٠٢ هـ .

عقوبات وأحكام تتعلق بالخمير :^(١)

شدّد الإسلام النكير على شاربي الخمر ، فحرم شربها قليلاً وكثيرها ، ويكفر مستحل شربها .

قال ابن خَزَم : الخمر حرام بنص القرآن وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع الأمة ، فمن استحلها ممن سمع النص في ذلك وعلم بالإجماع فهو كافر مرتد حلال الدم والمال .

ويُحَدُّ شارِبُها وإن لم يَسْكُرْ ، سواء أشرب الكثير أم القليل بإجماع الصحابة على ذلك وللأحاديث الواردة في هذا الموضوع .

والحد الذي يطبق على شارب الخمر وسائر المسكرات الأخرى ما بين أربعين إلى ثمانين جلدة على رأيين للفقهاء .

ولا يُسَلَّمُ على شارب الخمر ولا يُعاد إذا مرض ، ولا تُجاب دعوته . وكذلك من يبيعها أو يشتريها أو يحملها أو يسقيها أو يعصرها ، بل ينبغي هجرهم لأنهم فُسَّاق .

قال البخارى فى الأدب المفرد : « باب لا يسلم على شارب الخمر » وساق إسناده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « لا تسلموا على شرَّاب الخمر »^(٢) .

وقال البخارى فى الأدب المفرد : « باب عيادة الفساق » ثم ساق إسناده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : « لا تعودوا شراب الخمر إذا مرضوا »^(٣) .

(١) انظر الخمر وسائر المسكرات : أحمد بن حجر آل بوطامى ص ٩٢ - ٩٨

(٢) البخارى فى الأدب المفرد : وقد أورد هذا الأثر فى صحيحه معلقاً بصيغة الجزم .

واعتبر الشرع أن شرب ما يسكر بالفعل فسق بالإجماع ولا شك أنه قد ثبت ضرر شرب الخمر على الجسم والعقل وفي ذلك إضاعة للمال ، وتحدث الخصومات بسبب شربها وتفشى الأسرار ، وعنها تنشأ المهانة في أعين الناس ، وإضاعة الصلوات والعبادات .

وشهادة الأطباء والعقلاء في الشرق والغرب تؤكد ذلك .

بل إن ديننا الحنيف اعتبر أن الخمر أم الكبائر .

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- : « قال : سألت رسول الله ﷺ عن الخمر فقال : « هي أم الكبائر وأم الفواحش ، من شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته »^(١) .

وحتى الذين انتشرت الخمر بينهم تنبه بعض عقلائهم إلى أضرارها الجسمية والعقلية . يقول « كليمانصو » من كبار ساسة فرنسا : « إن القول بالقدر الذي يتناوله كثير من أهل عصرنا هو سم زعاف يخرب النشاط البشري بل يقضى على كل مجتمع » .

- وقال « هريو » من كبار ساسة فرنسا أيضاً : « إن معظم من في ملاجئ المجانين - بسبب الغول - يكلفون الحكومة نفقات باهظة كان الأولى بها أن تنفقها على المعوزين البائسين ، والأمة التي تبقى على هذه السخافات تحكم على نفسها بالفناء »^(٢) .

وسنلقى مزيداً من التفصيل على تغلغل المسكرات بأنواعها في المجتمعات الغربية في هذا القرن .

(١) الزواجر : الهيثمي ، ١٤٧/٢ ، ١٥٦ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية : محمد كرد علي ١٠٣/١ ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة .

الخمر والمسكرات في حضارة القرن العشرين

لم تنتشر المسكرات في عصر من العصور كما انتشرت في هذا القرن ولم تصب المجتمعات بحمى السكر علناً كما أصيبت به في هذه الجاهلية .
لقد تفنن الناس في أشكالها وأنواعها ، فعرف الأفيون والهروين والحشيش والقات وما إلى ذلك مما يسكر الإنسان .

وأصبحت الخمر تُجلب وتصنع وتباع علناً حتى في بلاد المسلمين وهي محمية بقوة القانون وسطوة التشريع والعرف .

ومن الأمور التي شاعت الحشيشة ، وقد أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) ما خلاصته : « إن الحشيشة حرام يُحَدّ متناولها كما يحَدّ شارب الخمر ، وهي أخطر من الخمر ، من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير في الرجل تحنث وديانة وغير ذلك من الفساد وأنها تصد عن ذكر الله »^(١) .

وقال رحمه الله في الفتاوى : « هذه الحشيشة الملعونة هي وآكلوها ومستحلوها ، الموجبة لسخط الله تعالى ، وسخط رسوله وسخط عباده المؤمنين المعرضة صاحبها لعقوبة الله تشتمل على ضرر في دين المرء وعقله وخلقه وطبعه .. ففيها من المفسد ما ليس في الخمر فهي بالتحريم أولى ، ولم تكن الحشيشة قد عرفت وإنما حدثت بمجيء التتار إلى بلاد الإسلام »^(٢) .

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية رحمه الله .

(٢) الفتاوى لابن تيمية : ج٤٤/٢٢٢ ، وانظر : الزواجر للهيتمي : ١٦٠/٢

أما القات فله أضراره الجسيمة كذلك ، ويقرب في مفسده من الخمر لأنه مُفْتَرٌ ، وقد (نهى رسول الله ﷺ عن كل مُسْكِرٍ ومُفْتَرٍ) ، وإنه يلهى أصحابه عن الصلوات ويكون سبباً للخمول وتبذير الأموال رغم فقر الذين يتعاطونه وحاجتهم إلى قوت العيال الضروري .

وقد كثرت الحبوب المصنعة من المخدرات ، ومن يطلع على ما تنشره الصحف والمجلات عن الخمر وحبوب المخدرات يهوله كثرة الضحايا ، ويذهله الواقع المرير .. في بلاد الغرب والشرق ، وفي بلاد المسلمين حيث أن كثيراً منهم صاروا أتباعاً لكل ناعق في الخمر والمخدرات وأنواع الموبقات الأخرى .

وفي تقرير أعدته « منظمة الحد من مفسد الكحول » ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ : ١٩٨٦/٣/٢٥ م جاء فيه :

« إن أكثر من (٢٥) ألف شخص يموتون سنوياً في بريطانيا كنتيجة مباشرة لسوء استعمال الكحول ، وإن واحداً من كل ثلاثة سائقين يتسبون في وقوع حوادث السيارات والتي ينتج عنها آلاف القتلى والجرحى كل سنة .. قد تعدى الحد القانوني في الشراب » .

« إن نصف المتهمين بجرائم القتل كانوا أثناءها مفرطين في السكر »
« إن الحالة الهستيرية التي يعيشها المجتمع هلعاً من مخاطر المخدرات قد صرفت الانتباه بعيداً عن القاتل الحقيقي - يعنى الخمر - وفي عام ١٩٨٤ م قتل (٢٥٠٠) على الأقل بسبب الإفراط في تناول الخمر بينها (٢٣٥) حالة وفاة فقط نسبت بها المخدرات » .

إن السراب الذي يتطلع إليه المخدوعون بهذه الحضارة لتعكسه هذه الأرقام والإحصائيات فتظهر على حقيقتها^(١) .

(١) عن مجلة البيان ، العدد الثاني ، صفر ١٤٠٧ هـ .

وفى تقرير أعدده خبراء الصحة ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ
١٩٨٦/٣/٢٥ م جاء فيه :

إن البريطانيين ينفقون (٣٥) مليون جنيه استرليني يومياً على
المشروبات الكحولية ، ويدخل فى خزانة الدولة سنوياً (٦ بلاين جنيه)
كضرائب على هذه المشروبات ولكن الفاتورة السنوية التى تصرفها البلد من
جراء مفاسد هذه المشروبات قدرت بمليار و ٦٨٠ مليون جنيه ، وذلك
نتيجة التغيب عن العمل الناجم عن الأمراض التى تسببها الخمر وأجور
العلاج فى المستشفيات .

فماذابقى من حضارة مجتمع ينفق أكثر من (١٢) مليار جنيه سنوياً
على الخمر فقط .. فى وقت يعيش فيه (١١) مليوناً من أبنائه تحت مستوى
الفقر !!؟

وفى نيويورك وصل عدد الذين سقطوا ضحية عمليات الإجرام مع
نهاية عام (١٩٨٨م) إلى (١٨٤٩) قتيلاً أى بمعدل خمسة قتلى فى اليوم
الواحد ، بما فى ذلك ثمانية قتلى عشية أعياد الميلاد ، وستة آخرون فى اليوم
التالى . بينما سجل أعلى رقم قياسى فى عام (١٩٨١م) ، ١٨٤١ قتيلاً . وبهذا
يكون عام ١٩٨٨ م هو الأعنف الذى تمر به مدينة نيويورك ، من حيث
الجرائم ، ويعزو المسؤولون فى المدينة هذا الارتفاع فى عمليات القتل إلى
تفشى تعاطى المخدرات بأنواعها^(١) .

هذه بعض إفرازات السكر والعريضة وتعاطى المخدرات فى حضارة
التيه والضياع !

حتى الأعياد عند أولئك تصبح مآثم بسبب السكر والعريضة ، ففى
عيد الميلاد فى بريطانيا وبلاد الغرب يرى الزائر أن نوعين من المحلات لا

(١) البيان : العدد السادس عشر ص ٩٧

تغلق أبوابها ، بل يزدهر سوقها ويكثر روادها وهما : الحانات والبارات التي يشرب فيها الخمر والمسكرات ، حيث يفرط الناس بشربها إلى حد فقدان العقل وفقدان السيطرة على السلوك .

« ومن الحوادث الطريفة في ليلة العيد السابق أن شاباً سقط من ارتفاع أربعين قدماً على شابة تبلغ العشرين من العمر مما أدى إلى إصابتها بالشلل المزمن .

والشاب الخمور قال لأصدقائه : لقد كنت في غيوبة تامة لا أستطيع أن أتذكر كيف سقطت كل هذه المسافة »^(١) !!

« وقد أعلنت الشرطة البريطانية أنه قد تم القبض على ما يزيد على ١٥٠ شخصاً في منطقة ميدان الطرف الأغر بوسط لندن ، وكانت معظم هذه الحوادث التي وقعت قد جاءت نتيجة للسكر والإخلال بالنظام العام والتعدي على الناس »^(٢) .

وفي بلاد المسلمين : كثرت حوادث مطاردة مهربي المخدرات ، وكثرت جرائم تعاطيها عند كثير من الناس على مختلف الأعمار والمستويات ، وأصبحت عملية مكافحة المخدرات قضية تشغل الحكومات المختلفة .

وكل هذا يتم في غيبة الإيمان ، والبعد عن الوازع الديني ذاك الذي جعل المسلمين يُريقون الخمر بمجرد أن سمعوا بتحريم كتاب الله لها . فلنعد إلى التربية الإيمانية إذا أردنا التخلص من هذه الشرور وإلا فإن الجاهلية الحديثة أشد فتكاً من الجاهلية القديمة .

(١) البيان : جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ عن صحيفة : « الصن » ، The Sun في ١٩٨٦/١٢/٢٧ م .

(٢) جريدة الشرق الأوسط : ١٩٨٦/١٢/٢٩ م .

٣ - القِيَانُ والغِنَاءُ في الجاهلية

لقد أكثر شعراء العصر الجاهلي الحديث عن المغنيات والغناء ولاسيما بعد أن قوى الاتصال بين العرب والأمم الأخرى كالفرس والروم والأحباش حيث كثرت القيان في جزيرة العرب^(١).

وقد شاع ذكر القيان والخمر ومجالس اللهو ، على ألسنة الشعراء في ذلك العصر .. وكأن المغنيات والغناء وآلات اللهو والطرب كانت من مستلزمات الخمر في الجاهلية .

يتحدث طرفة بن العبد مثلاً في معلقته عن شربه للخمر مع ندمائه ، وقد أطربتهم قينة حسناء رخيمة الصوت فيقول :^(٢)
ندامى بيض الوجوه وقينةً تروح علينا بين بُردٍ ومُجسّدٍ
رحيب قطاب الجيب منها رفيقةً يحسّ الندامى بضّة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسلها مطروفةً لم تشددِ
فالخمرة وامرأة مغنية والغناء في جو اللهو والطرب كانت من مقومات الجاهلية آنذاك .

(١) انظر الحياة العربية في الشعر الجاهلي : د. الحوفي (١٨٦-١٨٩) .

(٢) شرح القصائد العشر للبريزي : (١٠١-١٠٣) .

شرح الغريب : ١ - القينة : الأمة مغنية كانت أو غير مغنية . المجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران .

٢ - رحيب قطاب الجيب : أى إن عنقها واسع فتحتاج أن يكون جيبها واسعاً - البضة : البيضاء الرخصة - المتجرد : جسدها المتجرد من ثيابها .

٣ - اسمعينا : غنيا -- على رسلها : أى ترغمت برفق . مطروفة : ساكنة الطرف - فاترته - لم تشدد : لم نجتهد .

وقال امرؤ القيس : إنه يفرّج كَرْبَهُ وَهَمَّهُ عادة بسماع مغنية كانت تعزف على العود : (١)

وإنْ أُمْسِ مَكْرُوبًا فَيَأْرُبْ قَيْنَهُ منعَمَةٍ أَعْمَلَتْهَا بِكَرَانِ
لَهَا مِزْهُرٌ يعلو الخميس بصوته أجشُّ إذا ما حركته يدان

روى الإخباريون أن امرأ القيس لما طرده أبوه ، كان يسير مع شذاذ العرب ، فإذا صادف عديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغتته قياه (٢) .

ويبدو أن الخمر كانت تُصحب بالغناء في الأعم الأغلب عند شاربها في مجالسهم ، فعمرو بن الإطابة : يفخر باحتساء الخمر المصفاة ، وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة . استمع إليه إذ يقول : (٣)

عَلَّانِي وَعَلَّانِي صَاحِبِيَا واسقِيَانِي مِنَ المَرْوَقِ رِيَا
إِنْ فِينَا القِيَانُ يعزفن بالدف لفتياننا وعيشًا رَحِيَا

وعندما أُسر عبد يغوث ، وصف مفاخره في ماضيه الذي كان يتحسر على حرمانه منه ، ومن هذه المفاخر أنه كان يطرب فيشوق رداءه بين القيتين وينحر للندامي مطيته يقول في قصيدة طويلة : (٤)

وَأَنحرَ للشَّرْبِ الكرامَ مطيتِي وَأُصدعَ بَيْنَ القِيتَيْنِ رَدَائِيَا
كَأَنِّي لَمْ أُرْكبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْل لَحْيَلِي كَرَى نَفْسِي عَنْ رَجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأُ التَّرَقَّ الرَوِي وَلَمْ أَقْل لِأَيَّسَارِ صَدَقٍ : أعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

(١) الشعراء الستة : ص ٧٨ ، « الكرام : العود الذي يضرب به ، « المزهر : العود -

الأجش : الحسن الذي فيه بعة »

(٢) الأغاني : ٨٧/٩ « طبعة دار الكتب »

(٣) الأغاني : ١٦٤/٩

(٤) المفضليات : ص ١٥٨ ، رقم القطعة (٣٠)

فقد ارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء في المتعة بالنساء ، إضافة إلى
الميسر وأكل لحوم الإبل .

وكانت هذه الأمور من مفاخر القوم التي أكثروا تردادها ، انظر إلى
هذا الشعر لبرج بن مسهر الطائي حيث يفخر بالخمير وسماع القيان ،
وتداعى خواطر اللذات على ذهنه ، فيذكر الاستمتاع بالنساء المنعمات (١) :
وندمانٍ يزيد الكأس طيباً سُقيْتُ إذا تغورث النجوم
فتنا بين ذاك وبين مسك فيا عجباً لعيش لو يدومُ
وفينا مسمعاتٍ عند شرب وغزلانٍ يعد لها الحميمُ
وكانت الموسيقى تصحب الغناء والخمر والنساء عند القوم ، يصور
ذلك الأعشى في معلقته إذ يقول : (٢)

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مُقلصٍ أسفل السربال معتمل
ومستجيب تخال الصنح يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضلُ
والساحبات ذبول الرّيط آونةً والرافلات على أعجازها العجلُ

ونكتفى بهذا القدر حيث يطول الشعر في هذا المجال ، وقد ارتبط
بالغناء منذ القدم ، إذ يشير أبو الفرج الأصفهاني إلى بعض شعراء الجاهلية
ممن كانوا يتغنون بشعرهم مثل : السُّليك بن السُّلَكة ، وعلقمة الفحل

(١) الحماسة : ٣٤/٢ ، تحقيق العسبلان .

(٢) معلقة الأعشى : و المعلقات العشر للمتبريزي :

الغريب : نطف : قرط في الأذن - الصنح : هو الذي يكون في الدفوف ونحوه -
الفضل : التي في ثيابها فضلها . الساحبات : النساء اللواتي يرفلن في ثيابهن - العجل : القرب إذ
شبه أعجاز النساء بالقرب المملوءة .

والأعشى ، وكان الأخير يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج ، ولعله سمي لذلك صناجة العرب^(١) .

ومما يلفت النظر ، أن هذا الشعر ، بل وهذا الغناء كان يقترن بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهر والدف والبربط وهو آلة وترية .

وكانوا يستمعون إلى القيان في الحيرة وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية ، وأدخل العرب كثيرًا من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم مثل : خليدة ، وهريرة في اليمامة ، والأخيرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته^(٢) .

وفي أخبار غزوة بدر : أن أبا سفيان لما نصح قريشًا أن تعود قبل أن يوقع الرسول ﷺ بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردّ بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا وننحر الجُزُر ، ونُطعم الطعام ، ونُسقى الخمر وتغزف علينا القيان وتسمع بنا العرب^(٣) .

(٢٠١) الأغاني : (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩ ، ١١٣/٩ .

(٣) السيرة النبوية : لابن هشام ، ج ١ ص ٦١٨ .

الغناء والمعارف في نظر الإسلام

جاء الإسلام ليظهر الناس من هو الجاهلية ، فحرم عليهم الخمر وكل الموبقات ، وحرم عليهم مجالس الشراب وغناء القيان والمعارف ، نجد ذلك مفصلاً في كتب التفسير والفقه والأحاديث الشريفة .

ونظرًا لانتشار البلوى في العصر الحاضر ، مع قلة التنبيه إليها سألني الضوء على هذا الموضوع بما يتناسب مع طبيعة البحث .

تحريم الغناء والمعارف من القرآن الكريم :

وردت آيات عدة فيها تحريم الغناء صراحة ، وآيات أخرى تحرمه بطريق التضمن ، وإليك آيات القسم الأول :

١ - قال تعالى لإبليس حينما امتنع عن السجود لآدم - عليه السلام - في سورة الإسراء : ﴿ وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذْهُمْ وَمَا عِذُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (سورة الإسراء : ٦٤) .

لقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن صوت إبليس المذكور في هذه الآية هو الغناء واللهو واللعب .

وقال مُجاهد : « واستفز من استطعت منهم بصوتك » اللهو واللعب .

وقال آخرون عنى به : « واستفز من استطعت منهم بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية الله » .

وقال مُجاهد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- : صوت الشيطان الغناء ، والمزامير واللهو ، وقال الضحَّاك أيضاً : صوت الشيطان في هذه الآية هو صوت المزمارة^(١) .

٢ - والآية الثانية في سورة لقمان :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (سورة لقمان : ٦)

روى ابن جرير الطبري عدة آراء في تفسير هذه الآية^(٢) منها قول عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- أنه قال : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم : الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، ويرددها ثلاث مرات .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضى الله عنهما- : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : الغناء .

وفي رواية ثور بن أنى فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : « هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً » .

روى عن مجاهد أنه قال : الغناء ، وفي بعض الطرق : الغناء وكل لهو ، وفي بعضها قال : المغنى والمغنية بالمال الكثير والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل .

وقد رَجَّح ابن جرير رحمه الله : أن الآية عامة في كل حديث يلهي عن سبيل الله سواء أكان حاصلاً من كافر أو مسلم .

(١) تفسير ابن جرير الطبري : ١١٨/١٥ - ١١٩ ، ط ٢ طبعة الحلبي .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : (٢١/ من ص ٦٠ حتى ٦٣)

ثم قال : والصواب في ذلك أن يقال : غنى به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه ورسوله لأن الله عمم بقوله هو الحديث ولم يخصص بعضاً دون بعض .. والغناء والشرك من ذلك^(١) .

قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرک : « ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتزليل عند الشيخين : حديث مسند .. فهو أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه ، فعليهم نزل ، وهو أول من خوطب به من الأمة ، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علماً وعملاً ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة ، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل .. » .

ويقول ابن القيم رحمه الله بعد تعليقه على هذه الآية :

والغناء أشد لهواً وأعظم ضرراً .. فإنه رُقِيَّةُ الزُّنَا ، ومنبت النفاق وشرك الشيطان ، وخمرة العقل ، وصدده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل لشدة ميل النفوس إليه .

وإنك لا تجد أحداً غنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى ، علماً وعملاً ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن^(٢) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْنَاهُ عَلَىٰ آيَاتِنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ ﴾^(٣) .

(١) تفسير ابن جرير الطبري : (٢١/ من ص ٦٠ حتى ٦٣) .

(٢) رسالة في أحكام الغناء : ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقى نشر دار طيبة :

الرياض ١٤٠٣ هـ .

(٣) سورة لقمان : الآية (٧) .

ومما تقدم تبين أن الغناء يدخل تحت عموم الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ .. بإجماع من يعتد به من المفسرين .

٣ - والآية الثالثة ، من الآيات التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه قوله تعالى :

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَنْكُرُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ ﴾

(سورة النجم : ٥٩-٦١) .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - : هو الغناء بِالْجَمْعِ ، واسمى لنا : أى غنى لنا .

وقال عكرمة فى تفسير الآية : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ليصدوا الناس عن القرآن بالغناء ، فنزلت الآية : ﴿ أفمن هذا الحديث (إلى) : وأنتم سائدون ﴾ ^(١) .

ولهذا سمي السلف الصالح الغناء : قرآن الشيطان لأنه يعارض به القرآن ويشغل به عن ذكر الله .

وقال ابن القيم - رحمه الله - عن ابن عباس قال : السعود هو الغناء فى لغة جَمْعٍ ، يقال : اسمدى لنا أى غنى لنا ^(٢) .

وقد أورد ابن القيم فى رسالته ^(٣) اثنى عشر اسماً للشيطان منها : اللهو واللعب ، وهو الحديث ، والزور والباطل والمُكَاة والتَّصْدِيَة ورُقِيَة الزانى وقرآن الشيطان ومنبت النفاق ، وصوت الشيطان ومزموره .. الخ .

(١) انظر : تفسير القرطبي ٥١/١٤-٥٢ ، وابن كثير فى تفسيره : ٢٦١/١٤ .

(٢) إغاثة اللهفان : ٢٥٨/١ لابن القيم الجوزية .

(٣) انظر رسالة فى أحكام الغناء لابن القيم : (من ص ١٦-٣٧) .

ومن الآيات السابقة وتفسير السلف لها يتبين لنا مدى عموم البلوى
في انتشار الأغاني ، والتساهل في سماعها .. وفي السنة النبوية وأقوال العلماء
والأئمة ما يزيد الأمر وضوحًا في الفقرات القادمة .

ما جاء في تحريم الغناء والمعازف في السنة النبوية

أخرج البخارى فى صحيحه عن هشام بن عمار وساق سنده أن
النبي ﷺ قال :

« ليكوننَّ فى أمتي أقوامٌ يستحلُّون الحرَّ والحرير والخمر والمعازف »^(١) .

وهذا الحديث صريح فى تحريم آلات اللهو المطربة ، إذ يخبر عن قوم
يبيحون ويستحلون المعازف وهى آلات اللهو والطرب من طبل ومزمار
وعود وربابة وغيرها .

قال القرطبي : أما المزامير والأوتار والكوبة فلا يختلف فى تحريم
استماعها ، ولم أسمع عن أحد ممن يعتبر قوله من السلف وأئمة الخلف من يبيح
ذلك ، وكيف لا يحرم وهو شعار أهل الخمر والفسوق ويبيح الشهوات
والفساد والمجون ؟!

وما حرمت هذه الأشياء لأسمائها وألقابها بل لما فيها من الصد عن
ذكر الله وعن الصلاة والميل إلى الهوى والانغماس فى المعاصي^(٢) .

(١) صحيح البخارى : كتاب الأشربة ، باب فىمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ،
وانظر الفتحة : ٤٤/١٠ - ٤٥ . « والحرَّ : الفرج والمراد به استحلال الزنا » .

قال ابن الصلاح فى علوم الحديث : (الحديث صحيح معروف الاتصال بشرط
الصحيح) . وقد رد العلماء على قول ابن حزم إذ السند هنا منقطع كإبن حجر وابن جبان فى
صحيحه والعراقى ، وابن القيم فى تهذيب سنن أبى داود فإنه صححه من ستة وجوه رد فيها على
ابن حزم

(٢) الزواجر عن افتراء الكبائر ، لأبى العباس أحمد بن محمد الهيتمي طبعة مصطفى
الحلبى . (٢٠٢/٢ - ٢١٠) .

وأخرج ابن ماجة في سننه ، عن أنى مالك الأشعري -رضى الله عنه - قال ، قال رسول الله ﷺ :

« ليشربن ناس من أمتى الخمر ، يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم قردة وخنازير »^(١) .

وفي هذا الحديث نعهد الله مستحلى المعازف ، بأن يخسف بهم الأرض ويمسخهم قردة وخنازير ...

وللصحابة أقوال في ذم الغناء والمعازف ، لأنهم -رضى الله عنهم -
هم الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ وهم الذين فهموا السنة وطبقوها ونقلوها إلينا .

ومن ذلك ما قاله ابن مسعود -رضى الله عنه - :
« الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب »^(٢)

وقال عثمان بن عفان -رضى الله عنه - :
« ما تمنيت ولا تغيت ولا مسست ذكرى يمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ » فتتره عن الغناء^(٣) .

(١) قال ابن القيم رحمه الله : هذا إسناد صحيح « رسالته في أحكام الغناء » تحقيق محمد حامد الفقى « وهناك أحاديث كثيرة وردت في هذا الباب ، لكن لا يخلو كثير منها من مقال وضعف متقارب ، وبمجموعها تكون دليلاً وحجة ، إلا أننى اكتفيت بذكر الصحيح منها ثم بما صح من أقوال الصحابة رضى الله عنهم » .

(٢) صحيح موقوف على ابن مسعود ، أخرجه ابن أنى الدنيا في ذم الملاهى رقم (١٢) ، وقال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، تحقيق محمد حامد الفقى : هو صحيح عن ابن مسعود .

(٣) صحيح : انظر نزهة الأسماع في مسألة السماع لابن رجب ص ٦٠ .

ونقل عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال لقوم وفيهم رجل يتغنى :
« ألا لاسمع الله لكم ، ألا لاسمع الله لكم »^(١) .

وذم أئمة السلف والتابعون لهم بإحسان الغناء وذكروا مخاطره .

كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى مؤدب ولده : « ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بُغض الملاحى التى بدؤها الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن .

فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم : أن صوت المعازف واستماع الأغانى ، واللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب على الماء »^(٢) .
وقال الشَّعْبِي رحمه الله : « لُعِنَ الْمُعَنَّى وَالْمُعَنَّى لَهُ »^(٣) .
ومثله الضحَّاك رحمه الله إذ يقول : « الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب »^(٤) .

(١) حديث صحيح : انظر كتاب أحاديث ذم الغناء والمعارف فى الميزان ص ١٥٢ ، ونزهة الأسماع لابن رجب رقم : ٥٣ ، ص ٥٧ . « فتاوى فى الغناء لأحمد بن الحسن الحنبلى رحمه الله ، تحقيق : حمد بن عبد العزيز الضويان » ص ٣٠ نشر دار طيبة فى الرياض ١٤٠٩ هـ .
(٢) أخرجه ابن أئى الدنيا فى ذم الملاحى رقم (٢٠) ص ٤٠ ، وابن الجوزى فى تلييس إبليس ص ٢٣٥ ، وإسناده - حسن كما فى نزهة الأسماع تعليق رقم (٦٦) وه فتاوى فى الغناء ص ٢٩ .

(٤،٣) إغاثة اللهفان : لابن القيم (٢٥٠/١) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

أقوال الأئمة والعلماء في الغناء والمزَامِير^(١)

إن الغناء المعروف الآن ، والمصحوب بالمعازف المحرمة لا يختلف اثنان من أهل العلم والدين في تحريمه ، وقد حكى العلماء الإجماع على تحريمه .

ومن حكى الإجماع : ابن جرير الطبري في تفسيره ، وحكى إجماع السلف ما عدا رجلين اثنين هما إبراهيم بن سعد ، وعبيد الله ابن الحسن العنبري ، هذا في الغناء دون سماع آلات الملاهي .

وقد حكى الإجماع أيضاً على تحريمه ابن الصلاح قال : « من نسب إباحته إلى أحد من العلماء يجوز الاقتداء به في الدين فقد أخطأ .

وقال الفضيل بن عياض : الغناء رائد الفجور .

وسئل الإمام مالك عما يترخص به أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفسّاق .

وقال الإمام أحمد : الغناء يثبت النفاق في القلب فلا يعجبني .

وقال الشافعي عندما سئل عن الرجل تكون له القينة فيجمع أصحابه لتسميعهم الغناء قال : « هذه ديانة وصاحب هذه الجارية ديوث والرسول ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة دُيُوث » .

(١) انظر : إغاة اللهفان لابن القيم رحمه الله ، الجزء الأول وتنزيه الشريعة عن إباحة الأغاني الخليفة : الشيخ أحمد بن يحيى النجدي (من ص ٧٨-٨٦) طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ١٤٠٥ هـ .

وكان أبو حنيفة وأصحابه من أشد الناس في ذلك ، فقد صرَّحوا بتحريم سماع الملاحى كلها كالزمار والدف وصرحوا بأنه فسق ترديه الشهادة .

أقسام الغناء وآراء العلماء فيها :

على أن الغناء المجرد من غير آلة : منه المباح ومنه غناء المحترفين ، ومنه المحرم وإليك خلاصة ما قاله الفقهاء في ذلك .

القسم الأول : يباح الغناء إذا كان لبعث الهممة على العمل الثقيل أو للترويح عن النفس أثناء قطع المفاوز كالارتجاز بشرط أن يسلم من الفحش وذكر المحرم كوصف الخمور والقينات ، أو أن يكون الغناء من امرأة أجنبية أمام الرجال كل ذلك يحرم سماعه .

كل هذا بشرط أن لا يصحب الغناء آلة هو محرمة وإلا حرم ولو كان الشعر وعظاً أو حكمة لمكان الآلة لا لذات التغنى المباح .

ومن الغناء المباح بهذه الشروط الرِّجَز بالشعر وكهداء الأعراب لإبلهم ، وغناء النساء لينام الأطفال .

وقد ارتجز النبي ﷺ وأصحابه في بناء المسجد وحفر الخندق ، ومنها قول النبي ﷺ : « يَا نَجْشَةَ رُوَيْدِكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ » حيث كان يحدو بشعر مباح ، وقد ارتجز عبدالله بن رواحة -رضى الله عنه- في الخندق ، وكان الرسول يرتجز مع أصحابه ، ويسمع الشعر فقد سمع حسان بن ثابت وغيره من شعراء الصحابة -رضى الله عنهم- ، مما يدل على جواز إنشاد الشعر

الذى ليس فيه وصف النساء ولا الخمر وليس فيه إغراء بفاحشة ولا تزيين لباطل ، وكانوا يطلقون على هذا النوع اسم الغناء^(١)

وقد رخص العلماء أيضاً في الغناء والدُّف في الأعراس :
إذ روى البخارى وأحمد عن عائشة - رضى الله عنها - : « أَنَّهَا زَفَّتْ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَا عَائِشَةُ ، مَا كَانَ مَعَكُمْ مِنْ هُوَ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يَعْجِبُهُمُ اللَّهُ » .

وروى الخمسة إلا أبا داود قوله ﷺ : « فَصُلْ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الدُّفُ وَالصُّوْتُ وَ النِّكَاحُ » هذه الرخصة تباح ضمن شروط وهى :

- ١ - أن تكون فى عُرْس نكاح شرعى .
- ٢ - أن يكون الدف عبارة عن إطار غربال قد جعل عليه جلد فقط ، يخلو من الوتر والجلاجل والأجراس الصغيرة .
- ٣ - أن يكون الغناء بألفاظ خالية من الفحش والبذاء والزور والباطل .
- ٤ - ألا يكون مع النساء المصونات فى العرس رجال أجنب لأن الاختلاط بالنساء الأجنيات محرم وسماع صوت الأجنبية حرام كذلك^(٢) .

وَرَخَّصَ الْعُلَمَاءُ كَذَلِكَ فِي الْغِنَاءِ وَاللَّهُوِ فِي الْعِيدِ :

إذ أخرج البخارى رحمه الله ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل على رسول الله ﷺ ، وعندى جارتان تغنيان بغناء بُعَاثٍ فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، ودخل أبو بكر فانتهرنى : مزمار الشيطان عند رسول الله

(١) انظر : رسائل الشيخ محمد الحامد : ص ١٢٣ - ١٢٥ طبع دولة قطر ١٤٠٣ هـ
وكتاب : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لأحمد بن محمد الهيثمى تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦ هـ .

(٢) الإعلام بأن العزف والغناء حرام : تأليف أبى بكر الجزائرى « رسالة » ، ص ٣٥ - ٣٧ - مكتبة الضياء فى جدة .

ﷺ فأقبل عليه رسول الله فقال : دَعُوهما . فلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُما فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعب السودان بالذَّرَق والجِرَاب ، فإِذَا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وإِذَا قَالَ : أَتَشْتَهِيَن تَنْظَرِينَ ؟ قلت نعم ، فأقامني وراءه ، خَدَى عَلَى خَدِّهِ وهو يقول : دَوِّكُم يَا بَنِي أَرْفَدَةَ ، حَتَّى إِذَا مَلَلْتُ قَالَ : حَسْبُكَ ، قلتُ : نعم ، قال فاذهبي « (١) » .

وليس في هذا الحديث دلالة على سماع الغناء المحرم .. فقد ذكر صاحب كتاب : تنزيه الشريعة ، داحضاً هذه الشبهة وقال : أما بالنسبة لغناء الجاريتين :

١ - إن الشعر المتغنى به ليس من الممنوع بل هو مما تقاوم به الأنصار يوم بُعِثَ .

٢ - إنه صادر من جوار صغار ومثل ذلك يتسامح به .

٣ - إنه في يوم عيد ، والأعياد يشرع فيها مالا يشرع في غيرها من الغناء الذى لا يشمل على ممنوع ، ومن ذلك قوله ﷺ لَأَنَّى بَكَرَ : إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا .

ولا يجوز التوسع في العيد والأعراس ، فيؤتى بالمغنين والفرق الموسيقية ، ولا يجوز بغير الدف ، ويجب أن يقتصر على محل الرخصة ولا يتعداها إلى غيرها سواء في السبب أو الآلة أو في النوع .

٤ - إن عائشة كانت صغيرة ولم ينقل عنها بعد بلوغها إلا ذم الغناء وأنها - رضى الله عنها - نفت بقولها : « وليستا بمغنيات » فنفت عنهما من طريق المعنى ما أثبتته اللفظ .

(١) صحيح البخارى : كتاب العيدين ، باب الحراب والدرق يوم العيد ٢ / ٢ وأخرجه

مسلم في كتاب العيدين : ٨٢/٦ - ١٨٧ .

أما حديث اللعب بالحراب والدرق فقال :

- ١ - إن اللعب بالحراب والدرق من عدة الحرب المباحة .
- ٢ - إنه ليس من اللهو الممنوع ولذلك أبيع في المسجد بإقرار الرسول .
- ٣ - إنه في يوم عيد والأعياد يشرع فيها الانبساط أكثر من غيرها ، وأن الكلام المتغنى به من أشعار الحروب وهذا متداول في زمن الرسول ﷺ^(١) .

٢ - القسم الثاني : غناء المغنين المحترفين

وهو ما يتحلله المغنون العارفون بصناعة الغناء ، وهذا النوع هو المختلف فيه على آراء :

أ - أحدها : أنه حرام . قاله القرطبي وهو مذهب مالك الذي قال عنه : إنما يفعله عندنا الفساق .

وهو مذهب أبي حنيفة وسائر أهل الكوفة .. وهو أحد قولي الشافعي وأحمد .

ب - ثانيها : أنه مكروه وهو الأظهر عند الشافعي وأحمد وأكثر أصحابهما ، وقول أهل البصرة .

ج - ثالثها : الإباحة ، وهو المروى عن إبراهيم بن سعد والعنبري وهما شاذان في آرائهما .

د - رابعها : يحرم كثيره دون قليله .. ويحرم إن كان من امرأة لرجل أو لرجال ، أو من رجل لامرأة أو لنساء أو إن اقترن به مسكر أو انقطع إليه^(٢)

(١) تنزيه الشريعة : أحمد بن يحيى النجوى ص ٧٢ وما بعدها

(٢) كَفَّ الرُّغَاغُ عَنْ غَزَمَاتِ اللّٰهُو وَالسَّمَاعِ : أحمد بن حجر افينى (ص ٥٩-٦٣)

٣ - القسم الثالث : الغناء المقترن برقص أو دف أو مزمار ووتر

والمقصود هنا أن الغناء إذا أبيع أو كُره إن انضم إليه محرم صار محرماً بانضمام المحرم إليه ، وإذا حرم يشتد إثمهُ بانضمام المحرم إليه ، وأن الرقص إن كان فيه تكسر كفعل الخنث صار حراماً ، وإن خلا من ذلك كان مكروهاً .

وإذا انضم الغناء المباح إلى آلات اللُهو والعزف التوترية يصبح محرماً^(١) .

الأناشيد الدينية والمُوشحات :

قال الأذرعى في توسطه: وبعض المغرمين بالرقص من المتصوفة ومن حدا حذوهم من المتفقهة توهّموا أن حديث زَفن (رقص) الحبشة بالمسجد دليل على جواز الرقص في المساجد مع ضميمة الغناء إليه وذلك خطأ صريح وجعل قبيح .

وقد تحدثنا عن ذلك في الصفحات السابقة ، حيث لم يكن ذلك من الحبشة رقصاً على غناء ولا ضرباً بالأقدام بل كان لعباً بالسلاح .. تدريياً على استعماله في الحرب .

وقال القرطبي نقلاً عن الإمام الطرسوسى : وأما الرقص والتواجد ، فأقول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلًا جسداً له خوار فأتوا يترافسون حوله ويتواجدون وإنما كان مجلس النبى ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغى على السلطان ونوابه أن يمنعوهم من

(١) كف الرعاع : (ص٧١-٧٢) .

ذلك . وهذا مذهب الإمام الشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين .

وقال ابن تيمية رحمه الله فى الفتاوى :

أما السماع ، سماع الأناشيد الدينية « فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع .. ولا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المُحدث طريقاً يقدمونه على سماع القرآن وجداً وذوقاً ، وبما قدموه عليه من اعتقاد ، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية وألسن لاغية ، وحركات مضطربة فإذا سمعوا (المكاء والتصديّة) أصغت القلوب واتصل المحبوب بالمحب ، وخشعت الأصوات وسكنت الحركات فلا سعلة ولا عطاس ولا لفظ ولا صياح ، وإن قرأوا شيئاً من القرآن أو سمعوه كان على وجه التكلف و .. حتى إذا سمعوا مزار الشيطان أحبوا ذلك وأقبلوا عليه .. » (١)

وقال أيضاً : « ... واستماع الغناء والمعازف ونحو ذلك مما للناس فيه قولان : التحريم والإباحة لم يقل أحد إنها قُرْبَة .. » (٢)

وقال الحافظ ابن رجب فى كتابه القيم : « نزهة الأسماع فى مسألة السماع » قال : « ولا ريب أن التقرب إلى الله بسماع الغناء الملحن لاسيما مع آلات اللهو مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام ، بل ومن سائر شرائع المرسلين أنه ليس مما يتقرب به إلى الله ، ولا مما تُركى به النفوس وتطهر به ، فإن الله شرع على ألسنة الرسل كل ما تُركو به النفوس وتطهر من أدناسها ، ولم يشرع على لسان أحد من الرسل فى ملة من الملل أشياء من ذلك .

(١) فتاوى ابن تيمية : ٦٣٤/١١ .

(٢) الفتاوى ابن تيمية : ٢٢٩/٢٧ .

وقد صح عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه قال : تركت بالعراق شيئاً
يسمونه التغبير وضعته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن .

والتغبير هو ما يسمى بالغناء الدينى فى هذا الزمان فإنهم كانوا
يجتمعون فى أغاني دينية - كذا تسمى - ويضربون معها شيئاً من
الدفوف .

هذه أهم أقسام الغناء ، فصلنا فيها القول لانتشارها وعموم البلوى
فيها ، وسنرى أن الناس فى هذا العصر تجاوزوا كل هذه الأقسام وبالغوا فى
المحرم منها ، وزادوا على ما كان من أمر الجاهلية الأولى .

وأختم هذه الفقرة بفتوى فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله فى
حكم الغناء رداً على سؤال وجه إليه :

يقول السائل : ما حكم الأغاني هل هى حرام أم لا ؟ رغم أننى
أسمعها بقصد التسلية فقط ، وما حكم العزف على الربابة والأغاني القديمة ؟
فأجاب الشيخ حفظه الله :

« الاستماع إلى الأغاني حرام ومنكر ، ومن أسباب مرض القلوب وقسوتها ،
وصدها عن ذكر الله وعن الصلاة . »

وقد فسر أكثر أهل العلم قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو »
الحديث ﴿ بالغناء .. وكان عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - يقسم على
أن لهو الحديث هو الغناء ، وإذا كان مع الغناء آلة كالربابة والعود والكمان
والطبل صار التحريم أشد . »

وذكر بعض العلماء أن الغناء بآلة لهو محرم إجماعاً . فالواجب الحذر
من ذلك ، وقد صح عن رسول الله ﷺ قال : « ليكونن من أمتى أقوام

يستحلون الحرّ والحريّر والخمر والمعاذف ، والمعاذف هي آلات الطرب ..
الخ .

هذه فتوى فضيلته حفظه الله ، تؤيد ما قدمت القول فيه من أقوال
العلماء بشأن الغناء والموسيقى .

وإن تحريم الإسلام لما كان شائعاً في الجاهلية الأولى ، لدليل واضح
على مدى اهتمامه بتطهير الأسر والمجتمعات من أدران الجاهلية وأرجاسها .
ولقد عاد كثير من الناس إلى الانزلاق في حمأة اللهو المحرم ، كما
انزلقوا في شرب الخمر ، والاختلاط الشائن كأشد مما كان عليه أهل
الجاهلية . مستفيدين من وسائل الحضارة الحديثة .

الفناء والمعازف في العصر الحاضر

قد يُذهل المسلم لهجمة الفناء والمغنين ، بآلات الموسيقى واللهو المحرم ، في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في عالمنا المعاصر .

لقد هاجمت الأغنية الخليعة المتكسرة ، والرقصات الساقطة البيوت والأسواق والمنتزهات وكل مكان ، عن طريق وسائل الإعلام ، وأشرطة الفيديو .

لقد أشاع الغرب هذا الداء في البيوت والمقاهى والحانات ، وتآنى التبعية في بلادنا إلا تقليد هؤلاء فيما يفعلون .

« إن الأسر الإسلامية التى كانت إذا جُهر بين أفرادها بلفظة سوء تَمَعَّرَتْ وجوه الجالسين منهم حياء وخجلاً .. أصبحت هذه الأسر تجتمع حول المذياع والتلفاز بذكورها وإناثها وهم يصفقون .. وصارت هذه العائلات الشريفة يتهاذى أفرادها الأغاني الخليعة والأصوات الماجنة الفاتنة .

والفناء المعروف اليوم ، وما ترسله أجهزة البث قد اجتمع فيه كل محذور .. ذلك لأنه بآلة هو وبألفاظ خليعة وبأصوات النساء العاهرات والرجال المخثئين ، وفوق هذا فهو كلام باطل ليس فيه من الحق شيء »^(١) .

وبلاد المسلمين تنتظر استقبال قاذورات أوروبا عن طريق البث المباشر من الأقمار الصناعية لا مرحباً بها .

(١) انظر رسالة : أبو بكر الجزائري (ص ٦-٢٠) .

وإن مخططات حكماء صهيون قد أثمرت في إشاعة الرذيلة والعبث في أخلاق الناس وسمى الساقطون والساقطات « نجوم الفن والسينا » مما يشجع الناشئة على اتخاذ القدوة من هؤلاء الناس .

وقد بلغ المخطط الصهيوني مدى بعيداً حيناً أسس هذه الأفكار وجعل لها شهادات علمية ليضمن اليهود استمرار الدعوة لها والتكسب من خلالها .

يقول الجندي : « إن أكبر عملية تمويه قامت بها الحضارة الغربية هي محاولة تصوير الإضحاك والرقص وفنون العرى والكشف والإباحية المتمثلة في المسرح والسينما على أنها فن رفيع أو فن مقدس » .

« والقول بأن الفن له أصوله العلمية وضوابطه الدقيقة التي يتخرج فيها المخرجون والممثلون من جامعات متخصصة ، والتي يتقدم فيها البعض بأطروحات دكتوراه ، فهناك مع الأسف الشديد في بلادنا الآن دكتوراه في الرقص الإيقاعي ، ودكتوراه في المسرح الإباحي .. ودكتوراه في الديكور الفاضح والإخراج المكشوف .. كأنما هذا الفساد والتفريط يرتفع ويرتفع حتى يصبح فناً عالمياً وعلماً دقيقاً على أيدي دعاة من الماسونيين والصهيونيين والإباحيين ، فيما وراء البحر الذين يتلقفون أبناءنا ويصهرونهم في هذه البوتقة »^(١) .

وقد ركزت الصحافة عمومًا وعנית بالاتجاه اللا أخلاقي في كثير من بلدان العالم الإسلامي ، وأصبح همها التركيز على الممثلات والراقصات والمغنيات .

إن هذه التربية المترهلة ، أفرزت للمسلمين في هذا القرن أجيالاً لاهية عابثة ، تجعل العدو يطمع في إذلالها واحتلال أراضيها ، كيف لا ؟ وهذا

(١) إعادة النظر في كتابات العصرين في ضوء الإسلام ، أنور الجندي ، ص ٦٣-٦٤ ، طبعة الاعتصام - القاهرة ١٩٨٥ م .

الشباب العاثر لا همّ له إلا لين العيش وسماع المحرم ، وأنى له الجهاد بآفاته السامية وتضحياته الجسيمة !؟

وإن منطق التاريخ يقول : إن هذا مؤذنٌ باندثار الأمم وخراب الديار .

يقول ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عن الغناء وآفاته : « وهذه الصناعة (صناعة الغناء) هي آخر ما يحصل في العمران من الصنائع ، لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعته »^(١) .

وهذا ما حل بالأندلس حيث أصبحت الدور والبساتين توقف على الموسيقى ، وأصبح المرضى يعالجون في المستشفيات بالزمر والغناء ، فحل بهم البلاء الذي استأصل شأفتهم^(٢) .

« وكانت المغنيات والموسيقيات في الأندلس يتعلمن صنوفاً من الأدب فيأخذن بمجامع القلوب ، فيتغالى الأمراء والمترفون بأثمان الجوارى من هؤلاء .

فقد اشترى أحد أمراء الأندلس جارية بديعة بثلاثة آلاف دينار ، وروى أن بعض الخلفاء العباسيين ابتاع بعض الجوارى من هذا الطراز البديع بمائة ألف دينار »^(٣) .

يمثل هذا ضاعت الأندلس ، وضاعت حضارة المسلمين في بغداد ، وهذه سنة الله في خلقه كلما ركنت الأمة إلى حياة الترف واللهو ، وتخلت عن تعاليم دينها .

(١) مقدمة ابن خلدون : ٧٦٦/٢ ، طبعة دار الكتاب اللبناني

(٢) رسالة الجزائرى : الإعلام بأن العزف والغناء حرام ص ٢٤ .

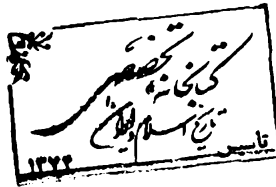
(٣) الإسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، محمد كرد علي .

والآن : إننا لنرى أن العصر الجاهلى أهون شرًا من الجاهلية المعاصرة ، حيث أن الغناء كان يمارس عن طريق القيان والرقيق ، أما اليوم فقد تبارى الأحرار من الرجال والنساء فى التسابق لاعتلاء صهوة هذا الفن الفاجر ، ومن بعض الأسر العريقة بكل أسف .

لقد تبادت الجاهلية المعاصرة فى غيها وفجورها ، وسبقت الجاهلية الأولى وإلى الله المشتكى .

إلا أن الأمل كبير فى صحوة المسلمين ، ووعى كثير من شبانهم وشيوخهم ونسائهم فى أكثر أنحاء العالم الإسلامى .

وعلى هؤلاء يقع العبء الأكبر فى إيصال تعاليم الإسلام صافية كما بدأت ، من أجل التغير المنتظر والمستقبل المشرق بإذن الله تعالى ، ولو كثرت التضحيات .



٤ - المَيْسِر

كان الميسر « القمار » من العادات المفضلة في الجاهلية وكانوا يفتخرون بها ، لأنها من وسائل الكرم لديهم .

والميسر : مصدر ميمي مشتق من المَيْسَر لأنه أخذ لمال الرجل بسهولة ويسر ، من غير كَدٍّ ولا تعب ، أو اشتق من اليسار لأنه سلب يساره .
وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، أنه قال في الميسر : كان الرجل في الجاهلية يخاطر فيه على أهله وماله .

كان الميسر من مفاخر أهل الجاهلية لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وقلة اللبن ، في أيام الشتاء حيث يطعمون المحتاجين ما ربحوه من الميسر ، ويعدونه ضرباً من الكرم .

وكانت طريقة الميسر : أن يجتمع الموسرون ويشتروا جزوراً ، يقسمه الجزار عشرة أجزاء ، ثم يُجاء بالقداح فيأخذ كل من الأيسار « المتقامين » حسب قدرته ، ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها في الرمل ، أو يضعها في خريطة ، ويدخل يده ويخرجها قدحاً بعد الآخر وهكذا .

وعدد القداح عشرة - ويقال لها الأزلام والأقلام - وهى الفَدَّ والتوأم والرقيب والجلس ، والنافس والمسبل ، والمعلى والمنيع والسفيح والوغد .

وفي العادة كان يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضرون جزوراً يضمنون لصاحبها الثمن ، ويدفع بعد المياسرة الغارمون وحدهم .. وكل

رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التي لا نصيب لها ، هم الذين يغرمون ثمن الجزور ، فيقسم عليهم ثلاثاً ، وكانوا أحياناً يجعلون لسبعة منها أيضاً إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت .

وأكثرها نصيباً يسمى « الملعى » أما القداح الباقية فلاحظ لها حتى ولو فازت^(١) .

وكانوا يوسرون ليلاً ، حيث يوقدون النار ، وقد عقروا الناقة ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمى به الأيسار من أنصبتهم التي حرّموها على أنفسهم كرمًا وأتفة ، والتصدق باللحم هو النفع الذي أشار إليه القرآن الكريم :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

ثم حرّمه القرآن بعد ذلك تحريمًا قاطعًا لما ينشعب عنه من عدااء وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع .

وحتى الكرم الذى فى الميسر ليس خالصاً ، كأن يكرم الشخص ويذل من ماله الصرف عن قصد ورغبة^(٢) .

وكثر الفخر فى الشعر الجاهلى بقدرة العرب على الميسر ، ففى معلقة لبيد يدعو ندماءه إلى نحر الجزور ، حيث يلعبون بأزلام متشابهة ينحرون الناقة عاقراً - لأنها آمن - أو مطلقاً - لأنها أغلى - وهو يكسب فيطعم

(١) انظر : بلوغ الأرب للآلوسى ، (٣/٥٣-٦٣) .

(٢) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الحوفى (٤٥٥-٤٥٩) .

الجمع لحمها ، حتى أن الجيران والضيوف يشبعون وينعمون كأنهم في وادى تبالة الخصب وما قاله :^(١)

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق يتشابه أعلامها
أدعو بها لعافر أو مطفل بُذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنب كأنما هبطا تبالة مخصباً أهضامها^(٢)

ومن تمدح كثيراً بالقمار الأعشى ، فها هو يفتخر بعشيرته شباباً وكهولاً وما قاله :^(٣)

من شباب تراهم غير ميل وكهولاً مراجحاً أحلاماً
فلقد تُصلّق القداح على النيب ب إذا كان يَسْرَهْنَ غراما
إنهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة ، التي يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها ، وضناً بقيمتها .

ويفتخر طرفه بن العبد بالمياسرة لأنها دليل الثروة والقدرة ، فقومه أصحاب قداح الميسر منذ القدم ، منذ عهد لقمان بن عاد صاحب النور السبعة ، وهم يقامرون وإن صعب الشتاء على القادرين للمشاركة في القداح ، ثم إن قومه لا يلحون في طلب الذئب الذي لهم على رفيق المياسرة ، ويُدخلون معهم في اللعب ذوى العسرة . يقول في ديوانه :^(٤)

(١) شرح المعلقات العشر للتبريزي : (٢٠١-٢٠٢) - مغالِق : قداح - الأعلام :
العلامات أى هي على قدر واحد متشابهة .

(٢) العافر : أسمن ، والمطفل : أغلى - اللحام : جمع لحم ، وتبالة : موضع خصب في اليمن .

(٣) ديوان الأعشى : ص ٢٠٣-٢٠٤ ، طبعة دار بيروت ، تصلق : تغرب - النيب : الإبل الكبيرة - الميسر : القمار ، ميل : ج أميل وهو الجبان - مراجح : راجحو العقول - غراماً : مكروهاً .

(٤) ديوان طرفه بن العبد : (ص ٧٣ شرح الشنقيطى) .

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبداء الجزر
لا يلحون على غارمهم وعلى الأيسار تيسير العسر

وكان من عادة بعض المقامرين أن يأخذ ما بقى من القداح إن لم
يحضر من يتمم الأيسار ، ويقول للأيسار بعدها : تمتكم ، ويفتخر النابغة
الذبياني بأنه متمم الأيسار إذ يقول :^(١)

إني أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما

ومن افتخر بالميسر وتحسر على الأيام التى كان يقامر فيها : عوف بن
عطية الخرع فى قصيدته :^(٢)

فلقد زجرت القِدَح إذ هبت صبا خرقاء تقذف بالخطارِ المُسَنِّدِ
فإذا قمرت اللحم لم أنظر به نيفاً كما هو ماؤه شرق الغد
وجرى بأعراض البيوت وأهلها وإلى المقامة ذى الغنى والمُجْتَدِى

وقد مدحوا من يلعب الميسر بأنه كريم مهين للمال ، وعابوا من لا
يسر وسموه البرم ، ومن ذلك رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك ، فقد ذكر
أنه كان لا يحمى نصيبه أن يتقسمه الفقراء ، وليس ممن تعطى النساء زوجته
اللحم فى الشتاء لأنه جواد كريم ، ينحر ويطعم ، ويتأمر مع أشراف قومه ،
وليس برماً لا يساهم مع القوم فى الميسر^(٣) .

(١) الشعراء الستة : ص ٢١٥ ، وبلوغ الأرب : ٦٢/٣ . والأدم : ج إدام وهو ما
يؤتدم به . ويقصد الشاعر أنه يتمم أيساره : أى الأنصباء التى كانت تبقى من الجزور و
الميسر ، فكان الرجل الجواد يشتريها ويعطيها .. ، ومثنى الأيادى : أى يعطيهم نصيبهم ويضيف
إليهم حظوظهم .

(٢) الأصمعيات : ص ١٧٠ . الصبا : ريح تهب من الشرق - خرقاء : هوجاء -
خطار : خطائر الإبل . قمرت : كسبت - لم أنظر به : لم أؤخره ، ويقصد أنه يطعم اللحم
غضاً طيباً لا يؤخره إلى الغد - شرق الغد : شمس الغد . أعراض البيوت : نواحيها - المقامة :
الجماعة فى المجلس - المجتدى : طالب العطاء

(٣) انظر قصيدته فى المفضليات رقم (١٧) ص ٢٦٥-٢٦٧ .

يتبين لنا بعد هذا العرض من الشعر أن العرب قد أولعوا بالميسر
مباهاة ومفاخرة ثم عطفًا على المحاويج .

وكانت بعض الأمم القديمة أشد ولوعًا بالقمار من العرب ولم تقصد
منه إلى إطعام جائع أو محتاج ، فقد كان قدماء الجرمان يتقامرون على كل ما
يملكون ، فإذا نفد تقامروا على حريتهم ، فيصير المغلوب عبدًا للغالب ،
وكان الرومان واليونان كلفين بالمقامرة ، ولكن العرب تفردوا بالغرض
النبل من لعب الميسر^(١) . « كما يرى الكاتب »

وهكذا تبقى عادات الجاهلية متشابهة عند جميع الأمم قديمها
وحديثها ، ولو اختلفت المقاصد والغايات .. لأن المنطلق عندها واحد ،
وهو تحكيم الهوى والتقليد ، ومادامت هذه الجاهليات بعيدة عن وحي
السماء .

ثم جاء الإسلام فحرم الميسر بأنواعه ، وما جدّ منه كذلك لأنه
يورث العداوة والبغضاء ، والأحقاد والخصومات ، وإن جميع أنواع المقامرة
والرهان إن كانت من الطرفين ينطبق عليها هذا الحكم الشرعى .

وسوف نفصل القول في موقف الإسلام من الميسر في الفقرة التالية
إن شاء الله ..

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : د. أحمد الخوفى ص ٤٥٩

تحريم الإسلام للميسر

الميسر كل لعب بين فريقين تتحقق الخسارة فيه لفريق ، والربح لآخر على سبيل المصادفة والحظ .

وقد حرمه الإسلام ، فهو من الكبائر ، إذ قرن الله تعالى بينه وبين الخمر قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ .

حُرِّمَ رَغْمَ أَنْ لِلْمَيْسِرِ فَوَائِدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ أَنَّ أَهْلَ الثَّرْوَةِ وَالْأَجْوَادَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا فِي شِدَّةِ الْبَرْدِ وَكَلْبِ الزَّمَانِ يَتَقَامَرُونَ ، وَيَجْعَلُونَ أَجْزَاءَ الْجُزُورِ لِلذَّوِي الْحَاجَةِ وَأَهْلِ الْمَسْكِنَةِ .. وَأَمَّا مَفَاسِدُهُ فَكَثِيرَةٌ ، وَقَدْ حَرَّمَ قَطْعِيًّا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٩٠) .

وسبب التحريم ، وتعظيم خطر الميسر ، أنه من أكل أموال الناس بالباطل ، وقد نهى الله تعالى عنه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ .

وروى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أَقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ »

فإذا كان مطلق القول يوجب الكفارة والصدقة فما بالك بالفعل والمباشرة؟! (١)

والحكمة من تحريم القمار : أنها تجعل الإنسان يعتمد في كسبه على المصادفة والحظ والأمانى الفارغة ، لا على العمل والجد .. واحترام الأسباب المشروعة .

ومن مفسده : أنه أداة لهدم البيوت العامرة وافتقار العوائل الغنية ، وإذلال النفوس العزيزة .. فكم سمعنا عن نفوس ذلت بعد عز ، وعن عوائل افتقرت بعد غنى؟! بسبب القمار وشرورها .

واللعب بالقمار يورث العداوة والبغضاء بين المتلاعبين لأكل الأموال بينهم بالباطل ، وحصولهم على المال بغير حق .

وهو يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويدفع بالمتلاعبين إلى أسوأ الأخلاق وأقبح العادات .

والقمار هواية آثمة تلتهم الوقت والجهد وتعلم الخمول والكسل ، ويعطل الأمة عن العمل والإنتاج .

والقمار يدفع صاحبه إلى الإجرام لأن الفريق المفلس يريد أن يحصل على المال من أى طريق كان ، ولو عن طريق السرقة والاعتصاب ، أو الرشوة والاختلاس .

وهو يورث القلق ويسبب المرض ويحطم الأعصاب ، ويولد الحقد ، ويؤدى في غالب الأحيان إلى الإجرام أو الانتحار أو الجنون والمرض العضال .

(١) انظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر : أحمد بن محمد الهيتمي (الكبيرة ٤٤٣) ، الجزء ١٩٨/٢ .

ولا يستبعد أن يبيع المقامر على موائد القمار ، دينه وعرضه ووطنه ،
لأجل إشباع نهمه المال والجنس^(١) .

أنواع من القمار قديماً وحديثاً :

وقد جدت في عصرنا الحاضر أنواع من القمار إضافة إلى أنواع
تحدث عنها الفقهاء نوجزها جميعاً بما يأتي :

أ - شراء أوراق اليانصيب :

لأن اليانصيب يعتمد على المصادفة والحظ ، وهو لون من ألوان
القمار المحرم ، ولا ينبغي التساهل فيه ، ولو كان باسم الجمعيات الخيرية
والأغراض الإنسانية ، علماً بأن الميسر الذي كان متداولاً بين العرب في
الجاهلية كان يؤول في النهاية إلى طريق الخير وجهة الخير وإطعام الجائعين ..
فهو يشبه إلى حد كبير مشروعات اليانصيب التي يرصد ريعها إلى جهات
خيرية ومبرات إنسانية في عصرنا الحاضر .

والإسلام يعتبر مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » من المبادئ الهدامة التي
يروّجها اليهود للوصول إلى غاياتهم ، بينما نرى أن الإسلام يسلك الوسائل
الشريفة من أجل الغايات النبيلة ، فالتبرع مثلاً لأى عمل إنسانى خيرى
لا يعترف به الإسلام إلا إذا كانت الوسيلة التي تؤدي إليه طاهرة .. أما عن
طريق القمار المحرم أو الاقتطاع المغتصب فلا .. وما قيمة إنفاق لا تنبع
منابعه من معين الإيمان الصافى وبواعث الرحمة ومعانى البر
والإحسان ١٩ ، (٢) .

(١) نرية الأولاد في الإسلام : الشيخ عبد الله علوان رحمه الله ٩٣٠/٢ - ٩٣١ ، طبعة
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب .

(٢) المرجع السابق : عبد الله علوان ٩٣٢/٢

ومع الأسف فقد أصبحت أوراق اليانصيب الدولية تحت إشراف حكومات وهيئات معترف بها ، وصارت من البلوى الشائعة ، التي يغفل عنها كثير من الناس .

ب - اللعب بالرهان :

وهو من الألعاب التي شاعت وانتشرت في أيامنا هذه .. سواء أكانت المراهنة على اللعب بالكرة أو بالحمام أو الخيل أو بالشطرنج أو غيرها^(١) .

والدعوة إلى المباريات المتنوعة ، في الفن والرياضة وما إليهما أصبحت الشغل الذي يشغل الشباب ، بحيث يُقدّم على مسائل الأمة الأساسية في عقيدتها وأمنها وكرامتها .

انظر إلى التشنج الذي يصيب أتباع النوادي الرياضية والمشاكل التي تنجم في أفراد الأسرة الواحدة بسبب هزيمة ناديهم وانظر التوتر العصبي الشديد خلال مباريات (كأس الدوري) للعالم أو ما يسبقه من مباريات .

وإني لأستغرب كيف يلتهم الشباب صفحات الرياضة في الصحف العالمية والمحلية ، ويكاد لا يعير اهتماماً لأية مشكلة أخرى مهما عظمت وجلّت ، ولو كان فيها دمار الأمة . إن الرهان بين قبيلتي « عبس وذبيان » في الجاهلية ، والذي أدى إلى حرب « داحس والغبراء » لا يتعد عما نحن فيه .. ولعل هذا ما يشير إليه البروتوكول الثالث عشر لمخططات حكماء صهيون يقول البروتوكول :

« ولكي نبعد الأُمَمين أن يكتشفوا خطّ عمل جديد .. سنلهيهم بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ .

(١) انظر تفصيلاً لذلك في كتاب « كف الرعاع عن محرّمات اللهو والسماع : اهتيمى

وسرعان ما سنبداُ الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى في كل أنواع المشروعات : كالقفز والريضة وما إليهما .
هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه .. »^(١)

وصورة الرهان عادة : أن كلاً من الفريقين يشترط على الآخر جُفلاً « أى مكافأة » في حالة من الربح أو الخسارة ، وذلك يعتبر مقامرة لتحقيق الخسارة من فريق والربح لآخر وأكل المال بينهم بغير حق .

ويستثنى من هذا الرهان : اللعب لإعداد وسيلة الحرب والجهاد كالسباق على الخيول أو من أجل رمى الهدف لقوله ﷺ فيما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد : « لا سَبَقَ إلا في خف أو حافر أو نَصْل » .
ولكن يشترط في هذا الرهان أن تكون المكافأة التي تبذل من غير المتسابقين أو من أحدهما فقط .

أما إذا بذل كل من المتسابقين مكافأة « جُفلاً » على أن من سبق منهما أخذ جعلين معاً فهو قمار محرم .

وإذا كان بذل الجعل من هيئة أجنبية ، أى من غير اللاعبين كرئاسة الدولة أو الوزارة أو إدارة المدرسة ، فإن العطاء في هذه الحالة جائز شرعاً لانتهاء ظاهرة المقامرة وللتشجيع .. سواء أكان هذا التشجيع من أجل الاستعداد الحربي كالرمي أو التفوق الرياضي كالمصارعة أو اللعب بالكرة^(٢) بلا غلو ولا إسراف .

(١) برونوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي الطبعة الثانية

ص ١٩٧

(٢) تربية الأولاد في الإسلام : ٩٣٣/٢

ج - اللعب بالنرد :^(١)

وقد اعتبره الإسلام كبيرة من الكبائر ، وذلك لما ورد من النهي عنه .
فقد أخرج أبو داود وغيره ، وصححه ابن حبان والحاكم عن أبي موسى الأشعري -رضى الله عنه- ، عن النسي عليه السلام ، أنه قال :
« مَنْ لَعِبَ نَرْدٍ أَوْ نَرْدَشِيرٍ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

وروى مسلم في صحيحه : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِرٍّ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمٍ خَتَزِيرٍ وَدَمِهِ » .

وقال صاحب الزواجر : إن ظاهر هذه الأخبار يفيد وعدًا شديدًا ، ونقل عن عدد من العلماء :
أنه يحرم اللعب به ، وهو المنصوص في الأم ويفسق به ، وتُرد به الشهادة .
وقال الماوردي في الحاوي : « الصحيح الذي ذهب إليه الأكثرون تحريم اللعب بالنرد لأنه فسق ترد به الشهادة »^(٢) .

د - اللعب بالشطرنج :

وقد ذهب الصحابة والتابعون والفقهاء في قضية الشطرنج مذهبين :
الأول : الحرمة ومن يرى ذلك على بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس -رضى الله عنهم- ، والأئمة : مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله .

(٢،١) انظر : الزواجر ، ١٩٨/٢ ، الكبيرة ٤٤٤ ، « والنرد أى اللعب بالطاولة حسب تعبيرنا المعاصر » .

ومما ورد في ذلك قوله ﷺ :

« إن الله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة إلى خلقه ليس لصاحب الشاة فيها نصيب »^(١) وفسر صاحب الشاة بلالعب الشطرنج لأنه يقول شاه .

وروى عن علي -رضي الله عنه- أنه قال : الشطرنج ميسر الأعاجم .

وقال أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطيء .

وفي فتاوى الإمام النووي : الشطرنج حرام عند أكثر العلماء وكذا عندنا إن قوت به صلاة عن وقتها أو لعب به على عَوْض ، فإن انتفى ذلك كرهه عند الشافعي وحرم عند غيره .

الرأي الثاني : يرى الحِلّ ومن هؤلاء : أبو هريرة -رضي الله عنه- ، وسعيد بن المُسيَّب وسعيد بن جُبَيْر وابن سيرين والإمام الشافعي رحمهم الله .

ويعتمد هؤلاء على أن أصل الأشياء الإباحة ، وأن الشطرنج يختلف عن النرد لأن المعول في النرد على الحَظِّ فأشبهه الاستقسام بالأزلام ، بينما المعول في الشطرنج على الحِذْق والفكر والتدبير فأشبهه المسابقة بالسهام .. وفيه نوع من التدريب على تدبير الحرب خلافاً للنرد .

وقد اشترط هؤلاء شروطاً ثلاثة في الإباحة :

- ١ - ألا يؤخر اللاعب صلاة عن وقتها .
- ٢ - أن يحفظ اللاعب لسانه عن بداءة الكلام وفحش اللسان .

(١) أخرجه أبو بكر الأثرم بسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣ - ألا يشترط الرهان لكونه قمارًا .

وإذا قرط بشرط من هذه الشروط اتجه القول إلى التحريم^(١) .

والمسلم يتعد في سلوكه عن كل ما يريب حيث أمامه المباح الطيب ، والمؤمن الجاد ليس لديه من الوقت الكثير حتى يضعه فيما لا طائلة تحته .. بل نحن مسؤولون عن استثمار الوقت قبل فوات العمر .

روى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال :

« اغتنم خمسًا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك » .

وقد أباح الإسلام المسابقة في الجرى والمصارعة ، واللعب بالسهم والخراب وألعاب الفروسية ، وكل ذلك جائز ، حيث لا مال من الجانبين ولا قمار ، وقد سبق ﷺ السيدة عائشة - رضى الله عنها - ، وصارع ركانة فصرعه^(٢) .

(١) انظر الزواجر للهيتمي : (٢/٢٠٠-٢٠٢) ، وتربية الأولاد : عبد الله علوان :

(٢/٩٤٠) .

(٢) انظر كف الرعاع عن محرمات النهو والسماع : الهيتمي تحقيق محمد عبد القادر عطا

ص ١٨٢ . وكتاب الحلال والحرام : الشيخ يوسف القرضاوى ص ٢١١ .

ه - أخلاق ذميمة أخرى يصورها الشعر الجاهلي

هنالك أخلاق ذميمة كانت متفشية لدى أهل الجاهلية ، خلصهم الإسلام منها ، ونقلهم إلى مجتمع الطهر والفضيلة نذكرها بإيجاز إكالاً لصورة المجتمع الجاهلي قبل الإسلام .

ومن هذه الأخلاق والصفات :

انتشار اللصوصية وقطع الطريق :

ويمثل هذه الخلة الشعراء الصعاليك في شعرهم ، حيث يصور مغامراتهم وفتكهم ونهبهم أوضح تصوير^(١) .

ومنها الأثانية :

ويصورها قول شاعرهم :^(٢)

لا أشتى رنق الحياة ولا الذى يُخاض وتغشاه المطردة الجربُ
ولا أشتى إلا مشارب أحرزت على الناس حتى ليس فى مائها عتبُ

وكان هذا يحصل فى الصراع على المراعى والمياه ، حيث كان من ضرورات الحياة عندهم .

(١) أشرت إلى بعض أخبارهم فى الفصل الأول ، طبقات المجتمع .

(٢) الوحشيات . ص ٣٠٥ ، ، والعتب : المرض والفساد انظر لسان العرب : مادة

عتب .

ومن مساوئ الأخلاق عندهم الغيبة والتميمة :

يقول النابغة الذبياني :^(١)

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني وشايةً لمُبَلِّغُك الواشي أغشُ وأكذبُ
ويقول الأعشى :^(٢)

ومن يطع الواشين لا يتركوا له صديقاً وإن كان الحبيب المقرباً
فهذه صفات كانت منتشرة وكان يشتكى منها آنذاك ومن هنا لهج الشعراء بالشكوى منها .

ومن الصفات الذميمة كذلك النفاق :

حيث ظهر أصحابه بسماتهم المعروفة ، يدون المحبة والود ، ويخفون الضغينة والحقْد ، يقول المثقب العبدى^(٣) :

لا ترانى راتعاً فى مجلس فى لحوم الناس كالسبع الضرم
إن شر الناس من يكشر لى حين يلقانى وإن غبتُ شتم

ومنها العقوق وقطيعة الرحم :

حيث كانوا يشنون حربهم على أقاربهم لأنفقه الأسباب ، حتى أن بعضهم كان يهجو والديه وأقاربه ، ومما اشتهر بذلك الخطيئة حيث يقول فى أمه :^(٤)

تَنَحَّى فاجلسى منا بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوننا على المتحدثينا

(١) ديوان النابغة : ص ٧٧ ، تحقيق شكرى فيصل ، دار الفكر بيروت ١٩٦٨ م .

(٢) ديوان الأعشى : ص ٩ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٣ م .

(٣) الديوان : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، الضرم : شدة الجوع والكشر : التيسم .

(٤) ديوان الخطيئة (ص ٢٧٦ - ٢٧٧) ط الحلبي بمصر تحقيق نعمان طه ١٩٥٨ م .

وفى أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ثم لحاك حقًا أبًا ولحاك من عم وخال
فنعيم الشيخ أنت على المخازى وبشر الشيخ أنت لدى المعالى

ومن مظاهر العقوق أيضًا ضرب الآباء أو حتى قتلهم ، ويصور لنا
هذا قصيدة مؤثرة لمالك بن فُهْم ، وقد رماه ولده بسهم فمات منه :^(١)
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

أما قصيدة أمية بن أبى الصَّلْت فى ابنه ، فإنها تصور لنا مدى عناية
الأب وإشفاقه على ولده بينما يقابله بالعقوق عندما شب وكبر يقول منها :^(٢)
غدوتك مولودًا وعلتك يافعًا تُعل بما أخنى عليك وتهل
إذا ليلة نابتك بالشكوى لم أبت لشكواك إلا ساهرًا أتملّل
فلما بلغت السنّ والغاية التى إليها مدى ما كنت منك أو مل
جعلت جزائى منك غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم تُرغ حق أبوى فعلت كما الجار المجاور يفعل
أين هذا من نعمة الإسلام الذى يجعل عقوق الوالدين من أكبر
الكبائر ، وقوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب
ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾ .

ومن الصفات القبيحة والعادات المردولة ، ما يسمى بالاعتقاد :

وهو أن يغلق الرجل على نفسه وأولاده بابه زمن الجذب ، حتى
يموتوا جوعاً^(٣)

(١) الاشتقاق لابن دريد : ص ٥٤٣ .

(٢) الديوان : ص ٣٧ ، طبعة ١٩١١ م .

(٣) تهذيب اللغة للأزهري : (٢٢٥/٢) تحقيق : عبد السلام هارون ١٩٦٤ م .

ومن ذلك قول الشاعر :

وقائلةٍ ذا زمان اعتفاد وَمَنْ ذاك يبقى على الاعتفادِ

ومن العادات التي كانت سائدة آنذاك التمييز بين الناس بسبب اللون والعنصر أو الأمهات^(١) .

ومن العادات التي ينبو عنها الذوق : نكاح الحوامل ، ونكاح الاستبضاع ، ونكاح المقت^(٢) .

هذا هو الوجه الكالح للجاهلية ، الوجه الآخر الذي انتشل الإسلام منه أهلها .. وحررهم من مفسدها وشرورها بعد أن أبقى على بعض الأخلاق الكريمة التي كانت سائدة لديهم .

وبذلك كانت تختلط مكارم الأخلاق ومفسدها بلا ضابط ولا هدى من كتاب منير .

وها هي السمات الأخلاقية المتشابكة للجاهلية المعاصرة تختلط ، بل وتسود الموبقات وتزداد ضراوتها يوماً بعد يوم .

وسيكون الحديث في الفصل القادم مخصصاً لتصوير السمات الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية والجاهلية .

(١) وقد تحدثت عن هذا الموضوع في الفصل الأول « طبقات المجتمع » .

(٢) سيأتي الحديث عن هذا الموضوع مفصلاً إن شاء الله في الكتاب الثالث من هذه

السلسلة : « المرأة بين الجاهلية والإسلام » .

الفصل الثالث
أُبْرَزُ السَّمَاتِ الأخلاقية ..
في المجتمعات الإسلامية والجاهلية

المبحث الأول

السمات الأخلاقية للمجتمعات الإسلامية

- ١ - أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق .
- ٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق .
- ٣ - الأخلاق في المجتمع المسلم : أخلاق واقعية .
ومن أبرز معالمها :
 - أ - الإخلاص والتجرد لله تعالى .
 - ب - الحب والتآخي .
 - ج - التناصح « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .
 - د - لوم النفس ومقاومة الأهواء .

تمهيد :

من خلال دراستنا لأخلاق العرب قبل الرسالة وبعدها تبين لدينا أن للجاهلية مواصفات واضحة وأخلاقاً بيّنة ، كانت خليطاً من مكارم الأخلاق ورذائلها .

فبينما يروق لك كرم العرب وشجاعتهم وغيرتهم ووفائهم يسوؤك تعلقهم بشرب الخمر والمقامرة ، وانتشار المجون واللهو والزنا .

واتضح لدينا أن الإسلام ارتفع بمكارم الأخلاق عند العرب وسما بها ووجهها نحو غاية بناءة ، يقصد منها وجه الله ، وليس السمعة وحسن الأحدثوة بين الناس

ثم حارب بلا هوادة كل انحراف خلقى ، وحرمه تحريماً قاطعاً بعد أن ربطه بميزان دقيق ، وركب شديد ذلك هو الإيمان ، والخوف من الموقف في يوم الحساب .. ثم جعل العبادة تصفى ما ران على نفس المسلم من شوائب وأدران .. فأصبحت الأخلاق لدى المسلمين أخلاقاً تطبق في عالم الواقع ، وخلال مجتمعات الطهر والصدق والفضيلة والعفاف .

جاء الإسلام إلى العرب « ليستنقذ ما كان لديهم من فضائل ، ويوجهها الوجهة البناءة ، بعد أن كانت ضائعة تحت ركام من الرذائل والموبقات .

من تلك الجاهلية التقط الإسلام النخبة الصالحة وأنشأ بها المجتمع المسلم ، ذلك المجتمع الذى بلغ القمة التى لم تبلغها البشرية قط ، والتى ما تزال أملاً للبشرية يمكن أن تحاوله حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق » (١) .

(١) فى ظلال القرآن : سيد قطب ١/ ٥٥٨ « بتصرف واختصار » .

لقد انتقل العرب بالإسلام نقلة بعيدة ، فبعد أن كان التسابق في الجاهلية نحو السمعة وحسن الأحداث ، أصبح التسابق نحو القيم الإسلامية الجديدة .

روى أن الحارث بن هشام خرج من مكة ، فجزع أهلها ، وذلك أنه كان سرياً وإذا مكانة فيهم ، ولم يبق فيها أحد يُطعم إلا وخرج يشيعه ، حتى إذا كان بأعلى البطحاء وقف ووقف الناس حوله ليكون ، فلما رأى جزع الناس قال :

« ياأيها الناس ، إني والله ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد على بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخرجت فيه رجال من قريش ، والله ما كانوا من ذوى أسنانها ، ولا من بيوتاتها ، فأصبحنا والله لو أن جبال مكة ذهب ، فأنفقناها في سبيل الله ما أدركنا يوماً من أيامهم ، والله لئن فاتونا به في الدنيا للتمس أن نشاركهم به في الآخرة »^(١) .

ومن هنا كانت الأوس والخزرج تتصاولان ، كل منهما تريد أن يكون لها في الإسلام سابقة على الأخرى .

لقد تعرض القرآن بالتوجيه للفرد والجماعة ، والعلاقة بينهما ، وخاطب الجانبين ودعاهما إلى الحركة والانتقال من وضع إلى وضع آخر يريده .. وكان القرآن خلال ذلك يستثير فيهما وازع الإيمان .

لقد ركز هذا الدين العظيم على التربية الإيمانية وصفاتها وإيثارها وجعل من المؤمن رقيباً إيمانياً يحاسبه ، وصفى نفسه بالعبادة ، فكانت التطبيقات العملية لهذه التربية سلوكاً نظيفاً ومعاملة شفافاً وأخلاقاً تعلو به فوق المصالح والأهواء .

(١) الاستيعاب : ابن عبد البر (٣٠٣/١) تحقيق على محمد البجاوى . ط. القاهرة -

مكتبة النهضة .

١ - أثر العقيدة في توجيه السلوك والأخلاق

إن الإيمان الصادق متى استقر في القلب ظهرت آثاره واضحة في السلوك ، جاء في مسند الإمام أحمد أَنَّ رجلاً سأل الرسول ﷺ : أَيُّ الإيمان أفضل ؟ قال : « خُلِّقَ جَسَنٌ » ^(١) .

« فالإسلام عقيدة متحركة لا تطبيق السلبية ، إذ أنها بمجرد تحققها في عالم الشعور ، تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ، وترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع » « إن هذا الكتاب الكريم جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعاً .. العقيدة وحدها هي الآصرة فيه والرابطة .

ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة واطمئنان الأفراد والشعوب » ^(٢) .

فالمسلم إذا تمكنت عقيدة التوحيد من نفسه ، لا بد أن يتبرأ من المشركين وما هم عليه من عقائد وسلوك ، فقد تخرج على التربية العقدية نموذج فريد من الرعيل الأول ، فكانوا قمماً شامخة ، ارتفعوا فوق جواذب الجاهلية .

كانت تربية إيمانية طبقت في عالم الواقع ، وتحقق على هديها ميلاد المجتمع الجديد ^(٣) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٥/٤ .

(٢) في ظلال القرآن : (٢٥٢٥/٤ ، ٢١٩٠/٤) .

(٣) انظر : (التربية العقدية) من كتاب : الحياة السياسية عند العرب وهو الكتاب الأول من هذه السلسلة .

هذا المجتمع الذى حقق نور الإسلام لجميع البشرية ، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية حين كانوا يقصرون محاسن أخلاقهم على أقربائهم أو أصدقائهم .

يقول حاتم الطائى مصوراً هذه المعاملة^(١) :

ولا يُلطم ابن العم وسط بيوتنا ولا نتصي عرسه حين يغفل

فالدفاع عن ابن العم واجب عند القوم ، وحفظ عرضه إذا غاب من شأنهم فعله ، أما الآخرون ، فالمعاملة تختلف ، ويصور ذلك شاعرهم ، حجر بن خالد التغلبى إذ يقول :^(٢)

منعنا حمانا واستباحنا رماحنا حمى كل قوم مستجير مراتعه

فالتقييم الأخلاقية فى نظر الإسلام ليست نسبية تتغير من فرد إلى فرد ، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر ، ومن زمن إلى زمن بل هى قيم ثابتة تزداد ثباتاً كلما مرت الإنسانية بتجارب فى حياتها .

وهى أخلاق متكاملة تحتضن جميع الفضائل الإنسانية والأعمال الخيرة لصالح الفرد والمجتمع .. سواء فى ميدان المعاملة الفردية أو فى ميدان السياسة والحكم ، أو فى ميدان الاقتصاد والعلم^(٣) .

وقد يتساءل البعض : ما علاقة العقيدة بالأخلاق ؟

ألا يمكن أن يكون للناس أخلاق طيبة بلا عقيدة ؟

الواقع أن هذا وهم خادع سببه أن النفس تحتجز رصيدها الخلقى بحكم العادة والتقليد أمداً طويلاً ، بعد أن تكون قد فقدت الإيمان كجزء

(١) ديوان حاتم الطائى : ص ٧٦

(٢) شرح ديوان الحماسة : المرزوقى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ م .

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد بالجن ص ٨٨-٩٠ .

من العقيدة .. وقد تحتجزه فترة - على وعى - منفصلاً عن العقيدة ، على أنه شيء ينبغي في ذاته أن يقوم .

ولكن النتيجة الحتمية واحدة في النهاية .. إنه مادامت العقيدة قد انحرفت فلا بد أن تنحرف الأخلاق ، وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فلا بد أن تموت .

وإن هؤلاء المخدوعين حسبوا بتأثير الجاهلية أن التصورات قد تنحرف ثم يستقيم السلوك . وهذا وهم من أوهام الجاهلية لأن هؤلاء الناس قد ضلُّوا عن حقيقة الشر الذي يعيشون فيه .. وأن الحياة البشرية ذاتها مهددة بالدمار من ضخامة هذا الشر وعنفوانه ، ومن ضخامة تمكنه من الحياة الواقعية للناس^(١) .

والغاية الأساسية : من حسن الأخلاق عند المسلم ، الذي ينسجم مع عقيدته ، أن يحقق مرضاة ربه ، فيحقق السعادة في آخرته ، ذلك أن هدف المؤمن الأول من أعماله هو ابتغاء وجه الله جل وعلا ، لأنه أمره بذلك ووعد به الجزاء الأوفى يوم القيامة على أعماله الخيرة :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿ (الزلزلة : ٧-٨) .

كما أن المسلم يحقق السعادة في الدنيا يقول تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) .

(١) جاهلية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ، الصفحات : ٩٤-٩٥ ، ١٥٠ .

والثمرة العملية للمبادئ الأخلاقية هي الإحساس الدائم بالسرور والطمأنينة القلبية ، والشعور بخيرية الذات وخيرية المصير .

وذلك نتيجة طبيعية ، لأن الإنسان عندما يعمل بمقتضى عقيدته ويؤدي الواجبات كما ينبغي أدائها ، ويتجنب المحرمات .. يشعر بأنه إنسان خير قوى الإرادة .

ومن يقرأ للكتاب الوجوديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، يعلم كم يعانون من الاضطراب النفسى والقلق فى أعماق قلوبهم ، ولعل ذلك من طبيعة عدم الإيمان .

إذ أن فى طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يُملأ إلا بالإيمان .. وقد يدفع القلق هؤلاء الحيارى إلى محاولات الانتحار .. وكل ما ينقصهم فى الحقيقة : الطمأنينة الداخلية التى لا توجد إلا بسبب الإيمان والعقيدة السليمة^(١) .

سوء الخلق دليل على ضعف الإيمان :

ربط الإسلام بين الإيمان والسلوك عمومًا ، والسلوك الأخلاقى بوجه خاص ربطًا قويًا لا انفصام له ، ونلاحظ ذلك فى نصوص كثيرة منبثة فى الكتاب والسنة .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »^(٢) .

(١) انظر : الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام : د. مقداد يالجن الطبعة الأولى ، ١٣٩٢ هـ .

مكتبة الخانجي بمصر . ، الصفحات ٧٩ ، ٣٢٨ ، ١٢١ هـ .

(٢) متفق عليه - مشكاة المصابيح رقم الحديث ٤٢٤٤ .

وقوله ﷺ :

« أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا »^(١) .

إنَّ قرن الإيمان بحسن الخلق والسلوك الرفيع أمر يلفت النظر ، إلا أن كثيراً من المسلمين يهملون هذا الجانب في إيماننا هذه مع الأسف الشديد .
بينما كان المسلمون الأوائل إذا سمعوا آية فيها نزول أمر واجب سارعوا إليه ، وإذا نزل تحريم أمر انتهوا عنه ، وذلك من صدق الإيمان وصلابة العقيدة .

وقد مرَّ معنا في قضية تحريم الخمر ، كيف أسرع المؤمنون إلى إراقة ما عندهم منها في شوارع المدينة المنورة .

ولكنَّ سؤالاً هاماً يطرح نفسه ، وهو إذا كان للعقيدة هذا الدور الفعّال في السلوك فلماذا لا نرى ذلك الأثر في واقع المسلمين الآن ؟!

إننا نجد البون شاسعاً بين ما يدعون من عقيدة وبين ما يسلكون ، وقلماً نجد بينهم من يتأثر بعقيدته في سلوكه ومن ثمَّ قلَّ من يتمسك بالأخلاق الحسنة رغم أن الإسلام يعتبر العقيدة أساساً هاماً للسلوك الأخلاقي .

والواقع أن الدعوة شيء والإيمان الحقيقي شيء آخر ، إذ أن الإيمان حقيقة وكل حقيقة لها علامة ، وعلامة الإيمان العمل به ، وإذا دخل الإيمان القلوب واستقر فيها نبضت تلك القلوب بالحياة ، ودفعت النفوس إلى العمل بموجبها .. وهؤلاء ممن :

(١) صحيح ، عن المستدرك : للحاكم النيسابوري ٥٣/١ « مكتبة مطابع النصر الحديثة في

الرياض » .

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٧) لأن معيار صدق الإيمان هو العمل الصالح « الإيمان ما وَقَرَّ في القلب وصدق العمل » وأن الاعتقاد الصحيح يدفع إلى السلوك الطيب^(١) .

يقول الشيخ محمد الغزالي^(٢) :
 « إن انهيار الأخلاق مَرَدُّه إلى ضعف الإيمان ، أو فقدانه ، فالرجل الْمُعْوَجَّ السلوك الذى يقترف الرذائل غير آبه لأحد » بعد عن مبادئ هذا الدين .

والرجل الذى يؤذى جيرانه يقول الرسول ﷺ فيه : « والله لا يؤمنُ والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل : مَنْ يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمنُ جاره بوائقه » رواه البخارى .

ويقول ﷺ تقريراً لهذه المبادئ الواضحة فى صلة الإيمان بالخلق القويم : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو منافقٌ ، وإن صام وصَلَّى وحجَّ واعتَمِر وقال : إني مسلم إذا حَدَّثَ كذب ، وإذا وَعَدَ أُخْلَفَ ، وإذا أُؤْتِمِنَ خان »^(٣) .

وإن ما نراه اليوم من انهيار عام فى الأخلاق ، وشكوى مريرة من سوء التعامل ، لأمر خطير يحير العقول ، فالجار يشكو جاره ، والأمانة ضائعة بين الناس ، والمراوغة لاقتناص الأموال هى السائدة ، والوفاء مفقود والصدق متعذر .. وإن هذا الخطر لمنذر بخلل فى التصور وضعف فى

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية : (١٨٤ ، ١٨٥) .

(٢) انظر خلق المسلم : محمد الغزالي ص ١٤-١٨ ، ط ١٤٠٠ هـ الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الإسلامية .

(٣) رواه الإمام مسلم .

الإيمان ، أو سوء فهم عند البعض لمقتضيات هذا الإيمان ، فساد بسبب ذلك كله الانقسام النكد بين الإيمان ومقتضياته .

ومن هنا يستلزم على الدعاة والمربين أن يتنبهوا لهذا الخطر ، وأن يبينوا للناس حقيقة ما هم فيه ، وأن الإيمان الحق كذلك لا يعنى حفظ بعض متون في العقيدة أو تعلمها ، دون تمثل أخلاقياتها في النفوس ، وخلال تربية الأجيال الناشئة .

لابد من تطبيق هذه المفاهيم في عالم السلوك والواقع ، تأسيساً بأصحاب رسول الله ﷺ إذ مجرد أن لأمس الإيمان قلوبهم تحولوا إلى نماذج فريدة في التاريخ سلوكاً وإخلاصاً وطهراً فهلاً أعددتنا العدة لمثل هذه التربية الإيمانية الأخلاقية؟!

٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق

من أبرز السمات الأخلاقية للمجتمع المسلم ذلك الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق ، إذ أن العبادة تزكى نفس صاحبها وتوجه سلوكه توجيهًا شفافًا متورعًا عن الحرمات ، وتهذب أخلاقه وتقومها باستمرار .

فالصلاة مثلاً ، تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أو هكذا ينبغي أن تكون ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (العنكبوت : ٤٥) .

ويقول جل من قائل : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ ﴾ (الماعون : ٤-٧) .

إن هؤلاء لو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله تعالى ، ما منعوا العون عن عباده ، وهذا هو المحك الحقيقي للعبادة الصادقة المقبولة عند الله ، وهذا هو الرياء الذى يترك الأعمال خواء ويصيرها هباء^(١) .

والصيام جُنَّةٌ يمتنع فيها المسلم عن الطعام والشراب إلى جانب تقوى المشاعر وانطلاقة الروح .

(١) انظر رسالة فى : الرياء ، ذمه وأثره السيئ : سليم الغلالى ص ٤٥ مكتبة ابن الجوزى

قال ﷺ : « الصومُ جُنَّةٌ فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحدٌ أو قاتله فليقل إني صائمٌ إلى صائمٍ » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه » (٢) .

فهذه النصوص توضح لنا مدى اهتمام الإسلام بتهديب النفس المؤمنة وتخليصها من أدرانها ، خلال قيامها بالشعائر التعبدية ، ومن ثم توجيه السلوك ضمن هذه القيم .

والزكاة : ليست دفعاً للمال فقط وإنما هي تطهير للمال والنفس .

قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (التوبة : ١٠٣)

ومن أجل ذلك وَسَّعَ النبي ﷺ في دلالة كلمة « الصَّدقة » التي ينبغي أن يندلها المسلم فقال :

« تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك صدقةٌ ، وأَمْرُكَ بالمعروفِ ونَهْيُكَ عن المنكر صدقةٌ ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإمطنتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة .. » (٣) .

وقلٌ مثل هذا في سائر الشعائر والعبادات ، إذ أن علاقة الأخلاق بالعبادة علاقة وطيدة ، فقد لا تنفع المرء صلاةٌ ولا زكاةٌ أو صيام يوم القيامة ، إن كان من المفسدين المعتدين على الناس .

سأل الرسول ﷺ يوماً أصحابه فقال : « أتدرون المُفلسُ ، قالوا : المفلسُ فينا مَنْ لا ذِرْهَمَ له ولا متاعٌ . فقال : المفلسُ مِنْ أمتي مَنْ

(١) أخرجه السنة ، وهو في صحيح الجامع الصغير : م ٧٢٠/٢

(٢) رواه البخاري وأبو داود والترمذي / ينظر شرح السنة/ ٢٧٣/٦

(٣) الحديث صحيح / ينظر صحيح الجامع الصغير ج ١/ ٥٦١

يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَّمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ،
وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُغَطَّى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ،
وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ
خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (١) .

ومن هنا جاء في الحديث الشريف : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَاجَرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » وفي رواية : « وَالْمُهَاجِرُ مَنْ
هَاجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » (٢) .

فهذه العبادات تلتقى كلها عند الغاية التي رسمها رسول الله ﷺ في
قوله : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » (٣) .

فإذا لم يستفد المرء من عبادته ما يركى قلبه وينقى لُبُّهُ ، ويهذب بالله
وبالناس صلته فقد هوى (٤) .

ويؤكد ما نقول حول الصلة الوثيقة بين العبادة والسلوك ما جاء في
الحديث النبوي الشريف عن أنى هريرة - رضى الله عنه - أن
رجلاً قال : يا رسول الله : « إِنْ فَلَانَةٌ تَكْثُرُ مِنْ صَلَاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا ،
غَيْرَ أَنَّهَا تَوْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ ﷺ : هِيَ فِي النَّارِ . قَالُوا يَا رَسُولَ
اللَّهِ : إِنْ فَلَانَةٌ تَذَكَّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلَاتِهَا ، وَأَنَّهَا تَتَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ
الْأُقْطِ وَلَا تَوْذِي جِيرَانَهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ » (٥) .

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه ، وصحيح مسلم : ١٠٠/٢ .

(٣) موطأ الإمام مالك : كتاب الجامع ومسند الإمام أحمد ٣٨١/٢ .

(٤) انظر : خلق المسلم للغزالي (ص ٩-١٢) .

(٥) رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، الترغيب والترهيب ، كتاب البر والصلة

تؤكد هذه الأحاديث على عدم جدوى العبادة إذا فقدت رُوحها وفاعليتها في تهذيب نفس صاحبها .

والأخلاق في الإسلام تكليف رباني قبل كل شيء ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ .

فإذا كان الصدق تكليفاً ربانياً ، والأمانة تكليفاً ربانياً ، والوفاء بالوعد تكليفاً ربانياً... فهل تدخل هذه التكاليف في العبادة ، أم تعتبر خارجة عنها زائدة عليها ؟!

وكيف تكون خارجة عنها أو زائدة عليها ، والله سبحانه وتعالى يقرر أنه لم يكلف البشر إلا أن يعبدوه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

ويؤكد هذا الحديث النبوي الشريف :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »^(١) فإذا خرجت هذه الأخلاق من دائرة العبادة لن تصبح في حس الناس لازمة ، وإنما تصبح شيئاً جَمِلاً إن وجد ، فإن لم يوجد فلا بأس .

ومن هنا صار لدى الناس إسلام بلا أخلاق .. إسلام لم ينزله الله تعالى ، ولم يأمر به ، وإنما هو أمر مضاد تماماً .. ومع ذلك يمارسه الناس على أنه : « غاية المراد من رب العباد » .

إلا أن الفساد الذي طرأ على مفهوم العبادة وحصرها في الشعائر التعبدية فحسب ، وأخرج منها ألواناً كثيرة من المعاملات ، كانت في حس الأجيال الأولى داخلة في مفهوم العبادة الواسع الشامل ، باعتبارها سلوكاً إسلامياً مرتبطاً بلا إله إلا الله .

(١) صحيح الجامع الصغير : ١٢٠٥/٢

هذا المفهوم الشامل للعبادة انحرف عما كان عليه بسبب الفكر الإرجائي الذي أعطى لهذا الانحراف شرعيته ، حين أخرج العمل من مسمى الإيمان ومقتضياته .

وبسبب الفكر الصوفي المنحرف عن التوازن الإسلامى مما زاد فى فساد مفهوم العبادة .

كل هذا وذاك قد دمرا الجوهر الحضارى المتضمن فى هذا الدين ، والذي كان قوامه السلوك الأخلاقى المرتبط بالعقيدة والمترجم لها فى دنيا الواقع .

وبعبارة أخرى ، حين صار المسلم لا يجد حرجاً فى قلبه أن يكذب وأن يغش أو أن يخون الأمانة ، وأن يتهاون فى العمل ويخلف العهود .. يكون قد تجرد من أخلاقيات « لا إله إلا الله » ، وتجرد من قيمها الإسلامية والإنسانية

هذا التخلف فى مفهوم العبادة والأخلاق نشأ عنه تخلف حضارى هائل ، أخرج هذه الأمة من زمرة المتحضرين ، كما أخرجها من ريادة العالم الذى أصبح نائهاً شاردًا عن منهج الله^(١) .

وإن هذه الأمة لا تُمكن إلا بقدر التزامها بمقتضيات الإيمان والسلوك النظيف الطاهر ، والعبادة المؤثرة الخالصة فى مجتمع الفضيلة والعفاف ، ذلك المجتمع المعافى من الجهر بالسوء والشرور والذنوب كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح ، قال ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلانُ عملتُ

(١) انظر : واقعنا المعاصر : (١٧٠-١٧٩) بتصرف واختصار

البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه ^(١) .

كم نحن بحاجة الآن إلى إعادة هذا المفهوم ، مفهوم الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق .. وأن نبعد الازدواجية والانفصام بينهما عن أجيالنا المعاصرة حتى تكون على مستوى التربية ، تربية جنود الصحوة المباركة .
وإنها لخدمة عظيمة نسديها للأمة ، بأن نزيل هذا الغبش عن أعينها ، ونضع بين أيديها نماذج الصفاء الإيماني ، وتمثل مقتضياته في النفوس ، مع تحوله إلى أخلاق قويمية ، وسلوك أصيل .

(١) أخرجه البخارى : ٤٨٦/١٠ الفتح ، ومسلم : ١٩/١٨ بشرح النووي .

٣ - مِنْ سِمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ : أَنْ أَخْلَاقَهُ وَاقِعِيَّةٌ

لم يأت الإسلام بمجرد أن يقدم الحقائق النظرية للحياة الإنسانية .. وإنما جاء أساساً لتنظيم هذه الحياة وفقاً للحقائق والغايات التي دعا إليها .
إن إحسان العمل وإتقانه يمثل روح الأخلاق الإسلامية إذ جعل الإسلام الرقيب ذاتياً مستمراً يخضع لرقابة سماوية عليا .

قال ﷺ عندما سئل عن الإحسان :

« أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (١) . رواه البخاري

مما يتضح لدينا أن هذا الدين يجسد العلاقة بين الجانبين النظري والعمل على أفضل صورة .

وهذا يساعد في انسجام المؤمن مع نفسه ، فإذا تعارضت حياة الإنسان العملية مع معتقداته تكون لديه صراع نفسي ، تشتت وانشقاق في ذاته يسببه الإحساس بالذنب (٢) .

ونظرة بسيطة إلى ما كان عليه المؤمنون في فجر الدعوة لنلاحظ الدقة في التنسيق بين المعتقد والعمل ، فيشعر أحدهم بالأمن والاطمئنان ، ومن هنا وصفهم جل من قائل : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ءَلَامُنٌ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٢) .

(١) فتح الباري : ١/ ١٢٨ ، كتاب الإيمان

(٢) انظر : التربية الأخلاقية الإسلامية د. مقداد باجن . ص ٨٧ .

نحن هنا لا نتكلم في النظريات بعيداً عن الواقع ، لقد امتزجت العقيدة في نفوس ذلك الجيل ، فتحولت إلى سلوك وتضحيات إلى إثارة ارتفع فوق تقاليد الآباء والأجداد .

وفي المدينة المنورة حيث استقبل الأنصار المهاجرين وشاطروهم الديار والأموال ، وبذلوا أمامهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله .. تحول الإخاء لديهم إلى التطبيق الودود ، والمحبة الصادقة .. فنشأ المجتمع الإسلامي قوياً يتحدى ضغوط الواقع الجاهلي ، حصيناً لا تضعضه جواذب الحياة الدنيا ومغرياتها^(١) .

كان مربيهم وقودتهم رسول الله ﷺ .

كان يربيهم بالمعايشة المستمرة ، الهادئة التطبيقية .. وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يقتدوا بنبيهم في شمائله وعريق صفاته . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب : ٢١) .

« والمجتمع المسلم لا تؤسس أخلاقه بالتعاليم النظرية أو الأوامر والنواهي المجردة .

فالتأديب المستمر يحتاج إلى تربية طويلة ، ويتطلب تعهداً مستمراً ، ولن تصلح تربية إلا إذا كانت معتمدة على الأسوة الحسنة ، وقد عرفنا أن رسول الله ﷺ كان بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذى يدعو إليه ، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى بسيرته العطرة قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات »^(٢) .

(١) انظر فصل : التربية العقيدة ، الكتاب الأول من هذه السلسلة « الحياة السياسية عند

العرب : دراسة مقارنة » .

(٢) خلق المسلم : الغزالي ، ص ٢٣-٢٤

عن أنس - رضى الله عنه - قال : « خدمت النبی ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى : أَفٍ قَطُّ ، ولا قال لشيء : لِمَ فعلتَ كذا وهَلَّا فعلتَ كذا » ^(١) .

وعن أنس أيضاً قال : « كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه بُرْدٌ غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابيُّ فجذبه جَذْبَةً شديدة حتى نظرتُ إلى صَفْحَةٍ عاتق رسول الله ، وقد أثرت بها حاشيةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ، ثم قال : يا محمدُ : مُر لى مِنْ مالِ الله الذى عندك . فالتفتُ إليه رسول الله ، وضحك ، وأمر له بعتاء » ^(٢) .

ولا عجب فقد وصفه ربه بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ (القلم : ٤١) .

وقد وصفته السيدة عائشة - رضى الله عنها - بقولها : « كان خُلُقُه القرآن » .

وقد رَوَى الجليل الفريد : جيل القمة السامقة على أن ينهل من كتاب الله العظيم ، وكريم صفات رسوله الكريم ، فكان خير القرون . قال رسول الله ﷺ : « إن خيركم قرنى » ^(٣) .

ذلك الجليل الذى استحق أن يصفه جل من قائل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

لقد ضحى هذا الجليل فى سبيل دعوته وإسلامه بالغالى والرخيص ، لأن حقيقة لا إله إلا الله استقرت فى نفوسهم ، وتحولت إلى رصيد واقعى فى حياتهم .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخارى .

(٣) جزء من حديث رواه الإمام مسلم : ١٩٦٤/٤ .

فينبغي أن نعمل على تحويل حياتنا كلها إلى ذلك المنهج الذى استقامت به حياة السلف الصالح ، حتى نتمكن من التخلص من رواسب التخلف والانحراف .

وكلما سارت أجيال هذه الأمة خلال تاريخها على صفاء المنهج الأول ، وخطى السلف الصالح ، لاحت لها بوادر السمو والتقدم ، والاطمئنان والفضيلة . إذ أن شخصية المسلم شخصية فريدة ، لا تقاس بالشخصية الاجتماعية التى ربتها النظم الوضعية المعاصرة ، ولا الشرائع التى تعب فى صياغتها الفلاسفة والمفكرون .

وشخصية المسلم لها مقومات تتمثل فى وفوفه عند حدود الله فى معاملته وسلوكه ، يتمثل الأخوة والتكاتف فى قول الرسول ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَنِعَاطِهِمْ وَنِرَاحِمِهِمْ ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى » (١)

والجزاء الجميل لمن يفرج عن أخيه المسلم كُرْبَةً من كرب هذه الحياة فى قوله ﷺ :

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

هكذا كان مجتمع المسلمين ، يطبق تعاليم الإسلام ، فيفهم العبادة ويطبق تأثيرها فعلاً فى واقع حياته ، حسن خلق وطيّب معشر

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى ومسلم ينظر صحيح الجامع الصغير ج ٢/ ١١٣٧

وإن تفصيل الحديث في الأخلاق الطيبة أمر يطول ، وقد نجده
القارىء مفرقاً في كتب الحديث النبوى والسيرة والتراجم وكتب التاريخ .
وقد تحدثت عن بعض النماذج للأخلاق عند المسلمين مقارنة بأخلاق
أهل الجاهلية ، وكيف سماها الإسلام ، وصفى النية وجعلها خالصة لوجه
الله .

إلا أننى سأوجز القول في الصفحات التالية عن بعض الصفات
العامة ، والسمات المشتركة للأخلاق في المجتمعات الإسلامية ، وذلك في
النقاط التالية :

- أ - الإخلاص والتجرد لله .
- ب - الحب في الله .
- ج - التناصح : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- د - لوم النفس ومقاومة الأهواء .

أ - الإخلاص والتجرد لله

الإخلاص من أهم ما يفرق عمل المسلم عن غيره ، إذ يتوجه الأول بعمله نحو مرضاة الله سبحانه وتعالى ، بينما يتوجه الجاهلى نحو غايات شخصية ومصالح دنيوية .

المسلم يتحدد عمله بالنية الصالحة : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »^(١) .

الأعمال فى الإسلام لا تقبل إلا بإخلاص النية لله تعالى ، وأن يكون العمل صواباً على سنة رسول الله ﷺ .

يقول رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ التَّقَى التَّقَى الْحَفِىَّ »^(٢) .

فالمسلم يتوجه فى عمله وعند معاملة الآخرين إلى الله دون أن ينتظر جزاء عمله من أحد إلا الله .

يقول ابن تيمية رحمه الله^(٣) : « والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا خبت الملك خبت جنوده ، ولهذا قال النبى ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » رواه البخارى ومسلم .

(١) متفق على صحته : البخارى ٧/١ ، ١٥ ، ومسلم : ١٩٠٧

(٢) مسلم بشرح النووى : ١٠٠/١٨ ، (والبعوى فى شرح السنة : ٢٢-٢١/١٥

واللفظ له) .

(٣) الفتاوى لابن تيمية : ٣٨١/١١

والرياء يناقض الإخلاص وَيَمْحَقُ العمل . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١) .

والرياء محبط للأجر مبطل للعمل ، فعن جندب بن عبد الله بن سفيان - رضى الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ ، وَمَنْ يَرَأَى يَرَأَى اللَّهَ بِهِ » (٢) .

وإن فضيلة الإخلاص تبعث في نفس الإنسان كريم البواعث ونبيل الحوافز ، فهو يتحرك طلباً لرضا الله سبحانه ، وحجاً في عمل الخير والتعاون مع كرام الناس وتطلعاً إلى سيادة الحق والعدل والبر .

هذا وإن الإخلاص في العمل تتعدد فيه المظاهر والمقاصد في الحياة ، فإذا رأينا في القمة إخلاص العبد لربه ، وهو إفراده في العبادة والنية والقصد ، فإن في ظلال هذا الإخلاص تبدو ألوان كثيرة من الإخلاص للآخرين كإخلاص المرء لأهله وأصدقائه ، وإخلاصه في عمله ووظيفته ، وفي تجارته وسائر أمور حياته .

وما شاع الإخلاص في قوم في شؤون الدين والدنيا إلا عمهم الخير والحق ، وزهق بينهم الشر والباطل ، وكانوا في الأولى والآخرة من السعداء (٣) .

(١) سورة النية : آية (٥) .

(٢) متفق عليه . البخارى ٢٨٨/١١ ، مسلم : ٢٩٨٧ « سَمِعَ : أظهر عمله للناس رياء ، سَمِعَ اللَّهَ بِهِ : أى فضحه يوم القيامة - راءى : أظهر عمله للناس » . انظر باب غريم الرياء : رياض الصالحين .

(٣) انظر موسوعة أخلاق القرآن : الشرباصى ١٩٣/٢

فالإخلاص والاستقامة من أهم خصائص المسلم . يقول جل من
قائل : ﴿ فَاسْتَقِمْوَإِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (فصلت : ٦) .

ولقد توصل المسلمون بسبب هذه الفضيلة إلى أعلى درجات السمو
والزهد ، فسطروا عجائب من الخير والعدل والعطاء ، وأسسوا مجتمعًا
متميزًا ليس له نظير .

ب - الحُبُّ والتَّآخِي

وهي ميزة أساسية من مزايا أخلاقيات المجتمع الإسلامي ، هذا المجتمع الذى أنشأه الإسلام بعد أن خُلصَ من الجاهلية وحروبها وتمزقها ، هذا المجتمع الذى قامت الروابط فيه على الحب بين المؤمنين فى الله ، ولا يكون الكره والبغض إلا من أجل مرضاة الله وتعاليم رسوله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ لَا تَحِدُوا مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّوهُ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ (المجادلة : ٢٢) .

فنشأ المجتمع الإسلامى متراصاً ، ترفرف عليه راية العدل والمساواة ، لا تمييز ولا طبقات ، يتسابق فيه المؤمنون على حب الله ورسوله وتطبيق ما يتعلمونه من الكتاب والسنة .

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ »^(١) .

كيف لا ينشأ الحب بين المؤمنين ، وقد جعل الله للمتحابين مقاماً رفيعاً ومنزلة عالية ، أعدت لهم فى جناب النعيم ؟ وأن من السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه »^(٢) .

(١) متفق عليه . شرح السنة ٤٩/١ .

(٢) متفق عليه . ينظر شرح السنة ٣٥٤/٢ .

كان رسول الله ﷺ يؤسس هذا البناء الشامخ في مجتمع العقيدة على الحب والإخاء والتواد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب الرجل أخاه فليُخبره أنه يحبه »^(١) .

وقوله ﷺ : « ما تحابَّ الرجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه »^(٢) .

ويعلمنا ﷺ كيف تكون المحبة ؟ وأن الإيمان لا يكتمل إذا لم نتحاب .

« لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »^(٣) .

« بهذه المحبة الناصعة بنى رسول الله جيل الإسلام الأول الذي بلغ رسالة السماء إلى الأرض ، وكان القاعدة الصلبة التي حملت صرح الإسلام الشامخ »^(٤) .

ومن وسائل هذا الحب والتآخي ، التسامح والعفو عن المسيء . قال تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٤) .

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث صحيح .

(٢) البخاري في الأدب المفرد . وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي شرح

السنة ٥٢/١٣ .

(٣) رواه مسلم . ينظر مشكاة المصابيح ٣/١٣١٦

(٤) انظر شخصية المسلم : الهاشمي (١٨٩-١٩٢) .

وكذلك تُبذ الفرقة والمقاطعة بين المسلمين :

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »^(١) والقاعدة الأساسية في كل هذا أن يعامل المسلم أخاه بما يحب أن يعامله به « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(٢)

(١) رواه الشيخان .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، « كتاب الإيمان » .

ج - التناصح: « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »

وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بالخيرية بسبب هذا الخلق القويم
إذ يقول جل من قائل :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠)

ولهذا قال أبو هريرة - رضى الله عنه - :
« كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم
في الجنة »^(١) .

فالتنصيح من أبرر صفات هذه الأمة ، إذ لا يُقر فيها منكر ، بل
يشيع الخير ، ويتم تعليمه وتعلمه ، ويصبح وسيلة مهمة في تكوين الوعي
الأخلاقي .

قال ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ »^(٢) « فدعوة
الآخرين إلى الخير ، ومحاربة الشر أينما وُجد ، هدف شرعى نبيل ، يمكن
التعبير عنه بتكوين روح الخير أو تكوين الإنسان تكوينًا خيرًا ، وقد عبر
سبحانه وتعالى عن نمط الشخصيات الخيرة ، أو الصالحة فقال جل من قائل :
﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران : ١١٤)

(١) أورده البخارى موقوفاً على أنى هريرة بلفظ قريب ٢٢٤/٨

(٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول : الشيخ منصور على ناصف - مطبعة

البابى الحلبي .

وأكمل صورة للإنسان هو ذلك المستوى الذى يصبح فيه مفتاحاً
المخير ، مغلاقاً للشر فى نفسه ، وفى مجتمعه^(١)

هذا وإن التناصح أمانة فى عنق المسلم وذلك على كل مستوى . قال
الرسول ﷺ : « الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة
المسلمين وعامتهم »^(٢)

ويؤكد هذا حديث جرير - رضى الله عنه - إذ يقول : « بايعت
الرسول على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »^(٣) .

فقد قرن النصح فى هذا الحديث بالصلاة والزكاة ، فهو فرض لازم
فى أى صورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا ما يوضحه
الحديث الصحيح : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »^(٤) .

لأبد من الصَّدْع بالحق لإزالة المنكرات ، وإمانة المعاصى ، ورَدْع
الظالم عن ظلمه وإلا فسوف يعم الله الناس بعقاب .

وهذا ما أشار إليه خليفة رسول الله فى خطبته . روى قيس بن أئى
حازم - رضى الله عنه - ، قال : قام أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ،
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ آيَةَ ،

(١) انظر : التربية الأخلاقية الإسلامية : د. مقداد الجنى ص ١٠٢ .

(٢) صحيح مسلم : ١٩٩٩/٤ ، كتاب البر والآداب .

(٣) صحيح مسلم : ٥/١ ، كتاب الإيمان .

(٤) صحيح مسلم مع الشرح للنووى : ٢٢/٢ ، كتاب الإيمان .

وتضعونها على غير موضعها » : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة : ١٠٥) .

وإنما سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب . وإنى سمعت رسول الله يقول : « ما من قوم يُعملُ فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرُونَ على أن يغيروا ولا يغيرون ، إلا يُوشِكُ أن يعمهم الله بعقاب » (١) .

فالسكوت على المنكر خيانة لا يقرها الإسلام ، بل إن غضب الله سيعم القوم الذين لا يأخذون على يد المعاصي بينهم .

عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من رجل يكون فى قوم يُعملُ فيهم بالمعاصي ، يقدرُونَ على أن يُغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا » (٢) .

« أما إذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما قام بغيره من الواجبات - لم يضره ضلال الضال ، ويكون ذلك بالقلب تارة ، وباللسان تارة ، وباليَد تارة » (٣) .

على أن بنى إسرائيل كانوا قد ضلوا بعد أن تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يخبرنا الصادق المصدوق فيما رواه ابن مسعود - رضى الله عنه - عن أحوالهم بقوله : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل : أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع فإنه لا يخل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله

(١) جامع الأصول : ٣٣٠/١ .

(٢) سنن أبى داود : (الملاحم ٤٣٧/٢) .

(٣) انظر : كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ابن تيمية ، تحقيق محمد السيد

الجلید « دار المجتمع للنشر والتوزيع جدة ١٤٠٤ هـ » .

وشره وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : فاسقون (١) .

ثم قال ﷺ : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا » (٢) .

وكذلك كان شأن أهل الجاهلية ، كانوا لا يأمرون صاجبهم بمعروف ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، يقول حريث بن محفظ المازني : (٣)
ألم نر قومي إن دعاهم أخوهم أجابوا وإن يغضب على الناس يغضبوا

وفي الجاهلية المعاصرة نجد أن الناس لا يتناهون عن المنكرات عصبية للقبيلة أو الحزب أو الإقليم ، بحيث تنقلب الموازين ، وتختل القيم بعيدا عن شرع الله .

على أن الذي يتصدى لهذه المهمة السامية ، مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي مهمة الأنبياء والعلماء الصالحين ، ومن سار على منهجهم ، لابد أن يتوفر لديه بعض الشروط والصفات .

(١) سورة المائدة : (الآيات ٧٨-٨١) .

(٢) جامع الأصول : ٣٢٣/١ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام ١٩٤/١

« ومن هذه الشروط : الصلاح والرفق والحلم والصبر على الأذى .
ومنها العلم والفقه ، فإن لم يكن الأمر بالمعروف عن علم كان جهلاً
وضلالاً واتباعاً للهوى ، وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام ،
فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر ولا بد من التمييز بينهما ، ولا بد من العلم
بحال المأمور وحال المنهى .

ذكر القاضي أبو يعلى في المعتمد : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر ، إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما
يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى
عنه » (١) .

« وحيثما كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر
الله به ، وإن كان ترك واجب وفعل محرم إذ المؤمن عليه أن يتقى الله في عباد
الله وليس عليه هداهم » (٢) .

(١) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ابن تيمية ص ٣٩-٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠ .

د - لوم النفس ومقاومة الأهواء

من صفات المؤمن أنه يلتزم بهدى نبيه ، يتبع الدليل الشرعى ، فيكبح أهواء نفسه ونزواتها ، أوأب إلى الحق ، يحاسب النفس عند الخطأ مستغفراً ربه تائباً إليه جل جلاله .

يراجع نفسه وهى تسعى وانية فى مجال الخير ليفجر فيها ينباع النشاط والقوة ، حتى تزداد من الخير وتجتهد فى ميدان البر .

فالإنسان - بهذه الفضيلة - يقيم من نفسه على نفسه حارساً يقظاً يمنعها من السوء ويدفعها إلى الطيب من القول والعمل والتفكير ، وهذا ما يسميه أهل عصرنا « سلطة الضمير » .

ومن هنا أقسم جل جلاله فى كتابه الكريم بالنفس اللوامة ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ . إذ جمع فى القسم بين هذه النفس اللوامة ويوم الهول العظيم ، يوم القيامة .

لقد ترفع المسلمون فوق أهواء النفس ، وقاوموا شهواتها ، اتباعاً لوحى السماء وأخلاق القرآن وهدى الرسول ﷺ .

فكثير من الآيات الكريمة تنوه بشأن مَنْ يفلح فى مقاومة الهوى ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ

(النازعات : ٤٠-٤١)

وتحذر من اتباع الهوى لأنه يقع في الظلم :

﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ (النساء : ١٣٥)

وفي قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ ،
وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)
(الجاثية : ٢٣) .

وتاريخنا الإسلامى ملئ بشير الأخيار الأطهار والزهاد العباد ، الذين
ضربوا نماذج رائعة في لوم النفس ، فزكت وارتفعت فوق جواذب الحياة
الدنيا ومغرياتها .. أولئك الذين كانوا يشعرون بأنهم مفارقون لها صباح
مساء ، كعابري سبيل يرجون من الله أن يوصلهم لمقرهم الدائم في جنات
النعيم ، وأن يقيمهم لفحات الجحيم .

ومن هنا استقاموا وعمرُوا الدنيا بالخير والعدل والصلاح .

رسم بعض الشعراء صورة لواحد من هؤلاء اللائمين فقال عنه : (١)
نحيل الجسم مكتئب الفؤاد تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاصي سابت يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزالت فدعوته : أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألقىه عليم كثير الصفح عن زلل العباد

فالتبتل إليه تعالى ، ومحاسبة النفس ، والشعور بمخاوف الوقوف بين
يدى رب العباد ، من خصائص المجتمع الإسلامى ، الذى يلتزم المؤمنون فيه
بالتشريع السماوى خلافاً للمجتمعات الجاهلية التى لا تتبع إلا الهوى
والعادة وما كان عليه الآباء والأجداد (٢) .

(١) انظر أخلاق القرآن : الشرباصى ، لوم النفس ١٣٨/٢ ومقاومة الهوى : ١٧٧/٦ .

(٢) انظر المبحث الرابع « سيطرة العادات وتحكيم الهوى من مقومات الجاهلية » .

الفصل الثانى من الكتاب الأول في هذه السلسلة .

ولقد غنى علماؤنا بالحديث عن مقومات الهوى ، واعتبروا أن النجاة الحقيقية لا تكون إلا باتباع نهج السلف ، والتمسك بالسنة المطهرة .

روى عن الأوزاعي رحمه الله أنه قال :

« اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقُل بما قالوا ، وكفَّ عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم »^(٢) .

وقد خصص الإمام ابن الجوزي رحمه الله كتاباً لهذا الموضوع سماه : « ذمَّ الهوى » .

ويعتبر أبو بكر الورّاق أن : أصل غلبة الهوى مغالبة الشهوات ، فإذا غلب الهوى أظلم القلب وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق .

فبالجرد والإخلاص ، بالإيمان الصادق والعمل الواعي ، بالعبادة والورع ، سادت العفة والأمانة وشاع الإخاء والتعاون والتناصح في المجتمعات الإسلامية بعد أن صفت نفوس المؤمنين وسمت أخلاقهم وأسسوا مجتمع الطهر والفضيلة .

هكذا كانت مجتمعات الرعيل الأول ، وهكذا سارت المجتمعات اللاحقة بهم كلما تمسكت بهذه المقومات الأساسية لأخلاق المسلمين . ومن هنا تختلف المجتمعات الإسلامية بسماتها الأخلاقية ، عن المجتمعات الجاهلية في القديم والحديث .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١٥٤/١ اللالكائي - تحقيق أحمد سعد

الحمدان .

ومن هنا تبرز السمات الأخلاقية للمجتمعات الإسلامية مناقضة
لسمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية .

ومن هنا يبرز العبء الضخم والواجب الثقيل على عاتق أبناء هذا
الدين ودعائه ، ليعيدوا للبشرية التائهة رشدًا وصوابًا ، و تبنى أخلاقيات
« لا إله إلا الله » فهي المنقذ والمخلص لما يُعانيه الناس من تمزق وانحراف و
أيامنا النكد .

وإن الله لا يضيع جزاء من أحسن عملاً .

الفصل الثالث : المبحث الثاني أبرز السمات الأخلاقية في المجتمعات الجاهلية

- ١ - فساد في التصور وانحيار في الأخلاق .
- ٢ - سيادة الأخلاق النفعية .
- ٣ - القلق والحيرة والاضطراب .
- ٤ - سُعار في الجنس وتَهْتُك في الأخلاق .

تمهيد :

عند استعراضنا نماذج من الأخلاق الذميمة في العصر الجاهلي ، وخلال مقارنتها بما انحدرت إليه في العصر الحديث ، نبين أن التشابه قوى في مظاهر الانحراف في القديم والحديث .

ولا غرابة فالجاهلية هي الجاهلية في كل عصر وفي أى مكان ، وإن تَلَوَّثْ مظاهرها حسب متطلبات وظروف كل عصر وكل أمة .

ونستطيع هنا في هذا المبحث إيجاز سمات عامة مشتركة لأخلاقيات المجتمعات الجاهلية ، وهي خطوط عريضة لا تعنى التفصيل والاستقصاء . وسوف نلاحظ أنها تشترك في إلغاء عنصر الإيمان بالله جلّ وعلا ثم الاعتماد على تقاليد البشر واجتهادهم وعلى أهوائهم ونزواتهم .

وسوف يكثر الحديث في هذا المبحث عن أثر الغزو الفكرى والأخلاق والعقدى لأمتنا ، ذلك الغزو الذى داهمها من حضارة الغرب « أمريكا وأوربا » أو الشرق المتمثل في الكتلة الشيوعية .

إن الجاهلية الغربية كادت أن تغطي على المجتمعات البشرية في القرن العشرين ، معتمدة على تقدمها التكنولوجى الذى يخفى وراءه كل عوامل الانهيار الأخلاقى ، والخراب العقائدى ، وهو مجال حديثنا في الصفحات القادمة .

١ - فساد في التصور وانحيار في الأخلاق

الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، يعطى تصوّرًا سليمًا في هذه الحياة ، وهو الركيزة الأولى التي صبغت الحياة الإسلامية بطابعها المتميز .

إلا أن طبيعة المجتمعات الجاهلية تفتقد هذا الإيمان ولولا محادثتها الله ورسوله لما أصبحت جاهلية ..

ومن ثم تنحرف في أخلاقها ، لأنها تفتقر إلى ميزان دقيق يستمد من وحى السماء ، فتحلط بعض الفضائل لديها « تلك التي ورثتها من بقايا أديانها » بالاجتهاد البشري أو بالعادات والتقاليد

وهذا ما بدا لنا واضحًا في جاهلية العرب قبل الإسلام وهو ما يلاحظ في كثير من المجتمعات المعاصرة بعد أن تمردت على الله ورسوله .. سواء في الشرق أم في الغرب .

« تمرد الملحدون في الجاهلية الحديثة في الغرب على الله لأسباب محلية في الكنيسة الأوربية نفرت الناس من الدين .

وبسبب من ذلك التاريخ الفاسد المنحرف ، قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس معاد للدين ، نافر منه ، منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصوّر أو سلوك وانتشرت العدوى مع الحضارة الغالبة حيثما وطئت قدمها ، فأصبح النفور من الدين في هذا العصر كأنه ظاهرة بشرية ، وهو لا يزيد على أن يكون مرضًا أصاب جيلًا من البشرية أو عدة أجيال » (١) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٢٢٩

التناقض بين التصور والسلوك :

كانت الكنيسة في القرون الوسطى أحد أسباب الانحراف في السلوك ، لأنها اشترطت في تصورهما للفضيلة ، ووضعت للأخلاق من الشروط والمواصفات ، مما ينوء بالجهد البشرى ولا يستطيع استكمالها إلا حفنة ضئيلة من البشر ، تتمتع بمزايا عالية .. بينما تلطخت سيرة رجال الكنيسة وأعضاء الأديرة برذائل وأرجاس يترفع عنها الفرد العادى ويتستر عليها الفاجر البذى .

لقد كانت الأديرة مباءات للفجور ومواخير للدعارة ، وكان للبابوات والقساوسة من العشيقات والخطايا مالا يكون لدى الملوك والديويين ، وتولى منصب البابوية عدد من الأبناء غير الشرعيين لبعض الآباء والكرادلة .

فالغلو أذى إلى انحراف رجال الدين من جهة ، وإلى انحراف في النظرة إلى بعض القيم الأخلاقية الأخرى لدى الناس من جهة أخرى .

فالعفة مثلاً خلق إنسانى نبيل ، دعت إليه الأديان كافة لكن الكنيسة بالغت في تصورهما لهذا الخلق حتى حرمت ما أحل الله .. وابتدعت الرهبانية ، فنفرت من المرأة لذاتها إذ تقول عن النظر المجرد : « إذا نظرت عينك إلى معصية فاقلعها ، فإنه خير لك أن تفقد عضواً من أعضائك ، من أن يلقى جسدك كله في النار ، ولذلك حرمت الزواج على رجال الدين ..

والجشع على المال والملذات خلق ذميم ، لكن الكنيسة غالت في ذمه وتحريمه .. وقالت أناجيلها : « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » . وفي الوقت نفسه كان رجالها أجشع الناس وأغنى الملاك » .

والتسامح خلق رفيع ، غير أن الكنيسة بالغت في فرضه حتى أوجبت على أتباعها قبول الذل وتحمل الظلم فقالت : « مَنْ لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا فامش معه ميلين ، ومن نازعك رداءك فأعطه الآخر »^(١) .

فلمثالية في التصور ، أدت إلى انحراف أخلاقي شديد إذ لم يستطع الناس في أوروبا أن يتحملوا مثل هذه التعاليم المستحيلة والمناقضة للفطرة البشرية ، فانتقلوا إلى النقيض تمامًا ، ورجعت أوروبا في العصور الوسطى إلى ميراث الرومان واليونان .

« حيث أصبحت تعيش بشخصيتين منفصلتين :

إحدهما : الشخصية المسيحية المتعبدة المتصوفة الزاهدة في داخل الكنيسة ، تسمو أرواحها على التراتيل الشجية ، والأنغام الرائعة .

والأخرى : هي الشخصية الرومانية الإغريقية التي تعيش في حدود ما تدركه من الحواس فحسب .

ومن ثم تظل الحياة الواقعية غير محكومة بمبادئ المسيحية ومثلها المترفعة ، وتظل المسيحية قابعة في داخل المعبد لا تنشر لواءها - رغم ما فيها من غلو - على واقع الحياة .

وظلت أوروبا بذلك مفككة مجزأة الشخصية حتى جنحت في عصرها الحديث نحو عالم الجسد ، فاستبدلت انحرافًا بانحراف ، وشذوذًا بشذوذ . والإنسان في فطرته السوية لا يعرف هذا الانفصال الدائم أو المؤقت .

(١) العلمانية : د. سفر الحوالى ، طبعة جامعة أم القرى ١٤٠٢ هـ بتصرف وإنجاز

والقيم هي التي تحكم السلوك ، فإذا انفصل السلوك عن القيم ، كما هو منفصل في حياة البشرية اليوم ، صار لها سلوك واقعي تحكمه الضرورة القاهرة ، ودفعة الغريزة ، وقيم معلقة في الفضاء تُبحث وتُفلسف بمغزل عن الحياة الواقعية .

وهذا انحراف خطير على كيان البشرية لأنه غير أصيل ولا يتمشى مع فطرتها ، إنه تمزيق للشخصية وتفتيت لها ، لا ينتج عنه إلا الضعف والتفكك والانحلال ، وفي نهاية الأمر يصل إلى البوار والهلاك ^(١)

دور علم الاجتماع والدراسات النفسية :

وقد ساهمت نظريات علم الاجتماع في هدم الدين والأخلاق تأثراً من تَزُمَّت الكنيسة ، وتأثراً بأحقاد اليهود على البشرية .

« فقد نفى جان جاك روسو عنصر الإيمان من الأخلاق ، وجعل مدارها الرئيسي يعتمد على المصلحة الدنيوية المجردة ، ولغرض المنفعة الخاصة والعامة » ^(٢) .

« أما دوركايم فقد وصل إلى نتيجة خطيرة ، وهي أن الدين ليس فطرياً ، وكذلك الأخلاق والأسرة ، وذلك رأى اقتبسه منه علماء الاجتماع التالون له ، وعمّموه في أبحاثهم دون أن يدرك هؤلاء الدافع التلمودي الهدام لدى هذا الكاتب الحاقد » ^(٣) .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب (ص ٢٨٣-٢٨٤) .

(٢) العلمانية . سفر الحوالي ص ٣٨٠

(٣) العلمانية : سفر الحوالي (ص ٣٨٥-٣٨٦) .

« هو يهودى فرنسى وجه حملته مع زملائه الآخرين من كبار المفكرين اليهود إلى تخطيط الدين والأخلاق والتقاليد ؛ أخذ عن دارون التفسير الحيوانى للإنسان ومده ليغضى العلاقات الاجتماعية .

يقول دوركايم : « إنه لا يمكن مِنْ ثَمَّ إثبات شىء من القيم على الإطلاق ، لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد » (١) .

ومن تأثر بدوركايم من كتاب العرب الدكتور طه حسين إذ أشرف على رسالته « ابن خلدون » ، ومن ثم خضع إلى نظريته فولائه للفكر الغربى الجانح إلى احتقار الفكر العربى والإسلامى (٢) .

إن نظرية دارون كانت قد أثرت فى العلوم الإنسانية وأدت إلى إخماد خطيرين هما : حيوانية الإنسان مع نفى الغاية من وجوده ، ثم التطور المطلق .

أما الشيوعية : فليست أحسن حالاً فى هذا المجال فماركس يرى أن لا شىء من القيم أو المثل ثابت إطلاقاً .

ويرى برتد راند رسل : أن الدين ليس مصدرًا للأخلاق بل إن الأخلاق قد مرت بثلاث مراحل من التطور :

- ١ - أخلاق المحظور ، أى المحرم .
- ٢ - أخلاق الطاعة الإلهية .
- ٣ - الأخلاق الحديثة ، وهى أخلاق نفعية عقلية (٣) .

(١) مذاهب فكرية : محمد قطب ، (١١٥، ١١٧) .

(٢) الشبهات والأخطاء : أنور الجندى ، (٤٦٩) .

(٣) انظر العلمانية : الحوالى ص (٣٨٠ ، ٣٩١ - ٣٩٤) .

أما الدراسات النفسية فقد استغلها فرويد مستوحياً معظم أفكاره من التوراة المحرفة ، مثل تفسير الأحلام وعرض المسألة الجنسية ، وعشق المحارم ، وهذه من الأمور التي حفلت بها التوراة المحرفة وقصت علينا من الانحرافات الجنسية مالا يصدقه أحد إلا اليهود الذين استباحوا كل محرّم (١) .

ويُرجع كثير من الباحثين هدف فرويد إلى تحطيم القيم الأساسية التي جاءت بها الأديان ، إلى تأثيره بأهداف الصهيونية التي تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية ، من أجل السيطرة على العالم ، ومن ثم تسخيرها على النحو الذي أوردته بروتوكولات حكماء صهيون (٢) .

وباختصار : لقد كانت مهمة فرويد هي تغطية الفساد الضخم الذي ندبره العصابة الشريرة في الأرض بإعطائه التبرير العلمي الذي يجعله أمراً طبيعياً لا يستنكر ، ويصبح المنكر هو الرجعي المتأخر الذي يصدر عن الجهل بحقائق العلم (٣) .

إن هؤلاء اليهود : ماركس ودارون ودوركايم وفرويد ، كانوا قد دمروا بنظرياتهم ما تبقى لدى أوربا من قيم وأخلاق ، بعد أن فصلوا بين الأخلاق والدين . وإن البروتوكولات طافحة بهذا الخراب المدروس (٤) .

يقول البروتوكول الرابع عشر :

« حينما نمكّن لأنفسنا ، فنكون سادة الأرض ، لن نبيح قيام أى دين غير ديننا .

(١) التراث اليهودي الصهيوني : د. صبرى جريس ص ٣٢٢ وما بعدها

(٢) أخطاء المنهج الغربي الوافد : أنور الجندى ص ٣٩٨ دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الأولى

(٣) مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب ص ١١٤

(٤) بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي البروتوكول الرابع

عشر ، والسابع عشر ص ١٩٨ ، ٢٢٠ الطبعة الثانية

ولهذا السبب يجب علينا أن نخطم كل عقائد الإيمان ، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين » .

وتقول : « اليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان ، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدداً انهياراً تاماً .

وسيقى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى » .

هذه بعض إفرازات الدراسات اليهودية ومن تأثر بها علماء بأن بحوث علم النفس والاجتماع ليست علومًا بالمعنى الدقيق كما يتوهم كثير من المخدوعين بها ، وجل ما توصف به أنها فروض علمية يحاول مفترضوها أن يعللوا بها بعض الظواهر النفسية والاجتماعية ، ولو عرف هؤلاء المخدوعون ما تتعرض له من تغير دائم لعلموا أن من المجازفة الخطرة الهدامة أن تترك نصوص الدين الثابتة المسلّمة إلى هذه الفروض المتغيرة التي ينقض بعضها بعضاً وكل سند لهؤلاء هو الظن ، الذي لا يغنى من الحق شيئاً »^(١) .

ولا يعنى هذا أن ندير أظهرنا لما ثبت من حقائق علمية في هذه المجالات شريطة أن توجه ضمن قيمنا ومثلنا الشرعية الإسلامية .

وقد تأثر الشرق العربى والإسلامى بعوامل الهدم والانهيار .. واهتزت القيم العليا بعد الغزو الفكرى والعقدى المُرَكَّز .. وما وجدنا عصرًا تبجح فيه الناس بالإلحاد الصريح كهذا العصر .

فقد تأسست أحزاب علمانية تجافى الدين ، وأخرى يسارية تحارب المعتقدات الدينية . أو قومية وثنية . ومعظمها يُجمع على عدم تطبيق شرع الله فى السياسة أو الأخلاق والاقتصاد ، بل وسائر شؤون الأسرة والمجتمع .

(١) حصوننا مهددة من داخلها : د. محمد محمد حسين رحمه الله ص ٤٨ ، الطبعة

الخامسة ، المكتب الإسلامى ١٣٩٨ هـ

حتى أن حرية الإلحاد أصبحت مكفولة في معظم قوانين العالم الجديد .

ومن هنا يتجرأ كاتب ملحد ليقول في مجلة رسمية في قطر عرى :
« إن الله والأديان والأنبياء ، ما هي إلا دمي منحنطة في متاحف التاريخ » .
وينعق شاعر الكفر قائلاً :^(١)

سلام على كفر يُوحّد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم
هذه السمة ، سمة العَبَث بالمفهومات الدينية العليا والاستخفاف بمقام
الألوهية ، ونشر الصور والعبارات التي تُهَوِّن من شأنها ، وتتطاول في
وقاحة كبيرة عليها من أبرز سمات الجاهلية المعاصرة

وقد ظهرت أعمال أدبية كثيرة تعبت بالقيم الخلقية الإسلامية عبثاً
شديداً ، وتصور العفن والهبوط والنزوات الجنسية المحرمة ، على أنها
عواطف إنسانية رقيقة جديرة بالاهتمام .

انظر إلى سوء الأدب في تصوير مقام الألوهية :
لو مرة عرفت يا إلهي الكسيح « كيف الزنا يصير
« بلند الحيدري الطلاق »
« أستغفر الله مما يقولون »

وإلى قول الآخر :
فنحن جميعاً أموات أنا ومحمد والله
هذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة عليها يكتب اسم محمد والله
على كسر مبـعـثرة من الآجر والفخار
« بدر شاكر السياب : في المغرب العربي »

(١) الشاعر القروي « عيد الوحدة »

هذا كفر صريح ، ووقاحة عجيبة ، ما وصلت إليها جاهلية قط .. وينشر ذلك في دواوين توزع في ديار المسلمين !!

وفي رفض مفهوم الشريعة الإسلامية يقول زنديقهم :

إن الخلود وما تروى مزاعمهم عن السعادة في الأخرى نقيضان لا يخدع الله قومًا يؤمنون به فتلك خدعة إنسان لإنسان « بدوى الجبل : أطل من حرم الرؤيا »

حتى أن الرموز النصرانية غزت الشعر في بلادنا المسلمة يقول صلاح عبدالصبور في قصيدته : « الظل والصليب »

أنا الذى أحيا بلا ظل بلا صليب

الظل يسرق السعادة

ومن يعيش بظله يمشى إلى الصليب في نهاية الطريق

ويقول آخر :

أقسمت يا جزائرى الجديدة

أن أحمل الصليب

أن أطلأ اللهب

لقد أفسد هذا الشعر بيوتًا كثيرة من مجتمعات بلاد المسلمين ، وغزا العقائد والأخلاق ، وقد لقي هذا الأدب الرخيص المنحرف تشجيعًا من بعض أجهزة الإعلام في عدد من البلاد العربية^(١) .

(١) انظر مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى : د. عبد الباسط بدر « دار المنارة للنشر - جدة

ألم تر أخى القارىء :

كيف ذرّ الإلحاد بقرنه ، وفسدت التصورات وغاب الحياء ،
وأعلنت الرذيلة ، وأين ؟! فى البلاد التى نشرت الفضيلة بعد التوحيد فى
أرجاء المعمورة .

ولا غرابة فهذه هى مقومات الجاهلية فى كل عصر وفى أى مكان !

إلا أن الأمل كبير فى دعاة هذا الدين ، ومن خلال شباب الصحوة
الإسلامية المباركة . مما يستدعى مضاعفة الجهود ، ومحاربة الغزو
الفكرى ، بتربية عقيدة أخلاقية تعيد إلى المعمورة أخلاقها ودينها وليس ذلك
على الله ببعيد .

٢ - سيادة الأخلاق النفعية

بعد أن اضمحل أثر الإيمان في النفوس ، استمد الناس قيمهم في التعامل من الهوى والمصلحة الشخصية .

« أصبحت الأخلاق الحديثة تستمد من القيم المادية النفعية تجديدها ميكافيلية صريحة ، وأضحى التعامل الاجتماعى قائمًا على رابطة المصلحة وحدها ، على الأخلاق التجارية . لقد كفرت أوروبا بالدين والأخلاق ، ونبذ المجتمع كل مقوماته المستمدة من هذين الاتجاهين^(١) .

وإنه لأمر مؤلم أن تسود النفعية كثيرًا من مجتمعاتنا المسلمة في العصر الحاضر ، فبعد أن كان الإخلاص والأمانة والصدق والإيثار ، من أهم خصائص أخلاق المسلمين إذا بالغش والكذب ، والأنانية والخيانة تحل محل تلك الفضائل عند كثير من الناس ، ومن هنا باتت الشكوى مريرة والانهيار خطيرًا .

لقد غزت فلسفة الغربيين مجتمعاتنا الشرقية ، ويرى أصحاب هذه الفلسفة النفعية أن السعادة الحققة هي التى يشعر بها الإنسان نتيجة لإشباع دوافعه الطبيعية وغرائزه الحسية .. دون التقيد بدين أو خلق قويم .

وقد تطور هذا الاتجاه النفعى لدى القوم ، وأخذ صورًا مختلفة يمكن إيجازها فى ثلاثة مذاهب^(٢) :

(١) العلمانية : د. سفر الحوالى ص ٤١٠ .

(٢) انظر الاتجاه النفعى : من كتاب الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام ، د. مقداد يالجن (ص

الأول : مذهب المنفعة الشخصية وله صورتان :

صورة دعا إليها أحد تلامذة سقراط « أرسبّوس » وقد فسر السعادة عند سقراط باللذات العاجلة بدلاً من الآجلة ، ونشدوا إشباع الدوافع في حينها ، وأوصوا بعدم تأخيرها ، لأن ذلك يؤدي إلى الشعور بالحرمان والكآبة ، فلا حياة ولا خجل (عندهم) في طلب اللذات في أية صورة كانت ، وبأية طريقة تيسرت .

ويعتبرون أن السلوك الذى يحقق هذه السعادة سلوك أخلاقى .

وصورة أخرى لهذا المذهب : هى الفردية التى دعا إليها « هوبز » ، ومن سلك مسلكه .

فقد ادعى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة أنانية تعمل لمصلحة الذات ، وقد اخترع الإنسان المبادئ الأخلاقية ليتخذها وسيلة يحقق فيها منفعته الشخصية .

ومن هنا يرى أن الأخلاق ما هى إلا وسيلة لتحقيق المنفعة وليست طبيعية فى الإنسان .

المذهب الثانى : مذهب المنفعة العامة

قال أصحابه : على الإنسان أن ينشد منفعة البشر عامة حتى الحيوانات ، واعتبروا أن إقرار المنفعة غاية للأفعال الإنسانية ، ومقيار للأخلاق ، وتقاس أخلاقية الفعل بنتائجها لا ببواعثها .

المذهب الثالث : مذهب المنفعة العملية « المذهب البراغماتى » ويمثله

جون ديوى ، ويهتم البراغماتى عادة بالنجاح العمى ، بما له من قيمة معنوية .

وأرجع ديوى المثل الأخلاقية إلى نتائج الظروف الواقعية للإنسان ،
فهى ليست مبادئ مطلقة ثابتة يضعها الفلاسفة كما أنها ليست من وضع
المجتمع ، ولا من وضع السماء .

ثم أنكر أن تكون للأخلاق غاية عليا سامية وثابتة ، وأن لها مبادئ
مطلقة لا تقبل التغير ، ذلك لأن الحياة متطورة^(١) .

لقد سيطرت هذه الفلسفة بمذاهبها المختلفة على أخلاق أوروبا بقسميها
الغربي والشرقي ، فاهتزت الأخلاق لديهم بعد أن أبعدوا عنصر الإيمان بالله ،
والقيم العليا المستمدة من الدين ، وسيطرت المنفعة والأنانية ، وتحول الناس
إلى ذئاب بشرية .. ومن ثم طغت الروح الرومانية والفلسفة الإغريقية على
أوروبا من جديد .

« لقد سيطرت الروح الرومانية ، وكانت نفعية من ناحية وأنانية من
ناحية ، ومن هذين الانحرافين فى الجاهلية الرومانية القديمة ، حدث
الانحراف فى الرصيد الذى تبقى من الأخلاق فى الجاهلية الحديثة » فى
أوروبا « فصارت نفعية وصارت أنانية .

إن الصدق والأمانة والإخلاص والاستقامة .. الخ فضائل ولكنها
يمكن أن تتم على مستويات مختلفة عند القوم وليست صورة واحدة مفردة .

كان يمكن أن تتم على مستوى إنسانى ، وهذا هو الخلق بها .. ويمكن
أن تتم على مستوى قومى ، أى لا تطبق إلا فى حدود هذه القومية .. بعد أن
فقدت هذه الفضائل رصيدها ودوافعها .. وانقلبت أنانية تسرق وتتهب
وتغش وتخدع ، ولا تبالى أن تصنع ذلك كله ، ولا تتأثم ولا تتحرج ، لأنها
لا تقوم على ركيزة إنسانية حقيقية .

(١) تجديد الفلسفة : جون ديوى ص ٢٧٣

وهى تطبق داخل حدود القومية على أساس ما تجلبه من النفع لحاملها ،
وتبطل إذا بطلت المنفعة القرية أو البعيدة ، والتي هى - فى هذه الحالة -
تمثل الرصيد الوحيد المتبقى لهذه الأخلاق »^(١) .

لقد جرّث هذه الفلسفة الأهوال على بلاد المسلمين فى عالم السياسة
خاصة .

« إذ ماتزال الروح الرومانية القديمة ، والتي تتمثل فى القانون
الرومانى الشهير الذى يمنح العدالة للرومانى فقط ، ويحرم منها الآخرين .
إنها ذات الروح الأنانية التى سيطرت على أخلاق أوربا فى جاهليتها
الحديثة .. فالمواثيق تعقد وتوثق وفى لحظة غادرة تنقض وتصبح حبراً على
ورق ، مجرد أن تلوح المصلحة القومية فى نقض الميثاق .

ويمر الناس بهذا الأمر مستخفين غير مبالين ، لأن النظرية الجميلة
شئ ، والتطبيق شئ آخر بموجب فلسفة الجاهلية اليونانية .

وحين تتعامل التجارة الدولية بأمانة فائقة نادرة المثال خارج حدود
القومية فهى ليست الأخلاق ، وإنما بسبب ما تجنيه من منفعة »^(٢) .

ورغم ذلك كله فقد فتن بعض المسلمين فى القرن الحالى بحضارة
أوربا ، وظنوا أنها ذات ركائز تصلح لأن يقتدى بها ، ولم يميز كثير منهم بين
التقدم المادى والتخلف العقدى والأخلاقى .. فتنا بيبض ما يبدو من صدق
وأمانة حيناً ، لأنها عند القوم تؤمن لهم ثقة وتوفر بعض الوقت ، إلا أن
أخلاقهم هذه ستتغير إذا لاحت منفعة أشد ، وأنانية أقوى .

(٢-١) جاملية القرن العشرين : الأستاذ محمد قطب ، بتصرف يسير ، الصفحات :

(١٥٩-١٦٠ ، ١٦١-١٦٢) .

« فُتن الناس بقضية الأخلاق في الغرب حين رأوا أن هذه الأخلاق صامدة راسخة لا تتأثر بفساد السياسة والاقتصاد والجنس ، وغابت عنهم في الوقت ذاته دلالة الأنانية والنفعية في هذه الأخلاق ، فحسبوا أن الأخلاق يمكن أن تنفصل عن معيها الدينى ، وتظل حية فاعلة في واقع الأرض » (١) .

فالأخلاق النفعية سِمة بارزة من سمات الجاهلية المعاصرة ، بينما كان للعرب في جاهليتهم بعض الترفع والإيثار والغيرية .. كإغاثة الملهوف ونجدة الصريح والذب عن حرمت الجيران .

وفي الإسلام « الغاية لا تبرر الوسيلة » : لأنه يشترط أن تكون الوسائل الأخلاقية سامية كالغايات تمامًا .

ولهذا قال الأصوليون : الغاية لا تبرر الوسيلة ، واتخذوا ذلك قاعدة تشريعية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

فآلية ترسم طريقين للفلاح ، أو طريقًا واحدًا له جانبان

الأول : اتقاء الله بترك المحرمات .

والثانى : التقرب إليه بالوسائل ، وهى أداء الواجبات ، والتمسك بالقيم الأخلاقية ، ولا يمكن التقرب إليه بالمحرمات (٣) .

« بينما كان الاستعمار يتوسل بكل سفالات الأرض ودناءاتها ليوطد سلطانه ، ويمتص دماء الناس ، ولا يرى في ذلك انحرافًا ! فالغاية تبرر الوسيلة ، ولا يهم عندهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة » (٤) .

(١) جاهلية القرن العشرين : ص ١٦٣ .

(٢) المائدة : ٣٥ .

(٣) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام : مقداد يالجن ص ٢٩٦-٢٩٧ .

(٤) جاهلية القرن العشرين : ص ١٥٣ .

وهذا ما يشير إليه الشاعر العربي إذ يقول :
قَتْلُ امْرِئٍ فِي غَايَةِ جَرِيْمَةٍ لَا تُعْتَفَرُ قَتْلُ شَعْبٍ آمِنٍ مَسْأَلَةٌ فِيهَا نَظَرُ
قَتْلُ فَرْدٍ مُسْتَعْمَرٍ وَلَوْ اعْتَدَى وَظَلَمَ جَرِيْمَةٌ تَقُومُ لَهَا دُنْيَا الظَّالِمِينَ وَلَا
تَقْعُدُ ، وَسَخَقُ شَعْبٍ مَظْلُومٍ آمِنٍ بِكَامِلِهِ مَسْأَلَةٌ قَابِلَةٌ لِلنَّقَاشِ ، حَتَّى فِي
أَكْبَرِ الْمَوْسُئَاتِ الدَّوْلِيَّةِ مِنْ مَجْلِسِ الْأَمْنِ إِلَى هَيْئَةِ الْأُمَمِ .

ومما يؤكد هذه السياسة النفعية لدى الدول الحديثة ما جاء في
البروتوكولات : « إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء ، والحاكم المقيّد
بالأخلاق ليس بسياسي بارع ، وهو لذلك غير راسخ على عَرْشِهِ » (١) .

هذه الأخلاق هي السائدة دولياً مع الأسف ، وفي القوانين المرعية
لدى أكثر الأمم .

إن النفعيين والانتهازيين ، من أهم أسباب خراب المؤسسات التجارية
والتربوية والدعوية . بل إنَّ منهم من كان من أهم عوامل سقوط بعض
الدول ... والعامل من اعطى بغيره ، وإلا فإن التاريخ يمد الغافقين بكثير من
شواهد وعبره .

خاصة وإن ظاهرة التسلل النفعي باتت في هذا العصر شديدة جشعة
وفتاقة .

(١) البروتوكول الأول : ص ٣٢ (الطبعة الثانية) .

٣ - القلق والحيرة والاضطراب

عرفنا أن شيوع المحبة والتآلف ، واستتباب الأمن والاطمئنان من أبرز سمات المجتمعات الإسلامية .

أما المجتمعات الجاهلية فإن القلق والحيرة بل وشيوع الخوف والفرع تعتبر من أهم مميزاتها ، بعد أن فقدت عنصر الإيمان بالله من النفوس ، وأخضعت القيم الأخلاقية إلى مقاييس البشر ، رغم التقدم التكنولوجي وانتشار الرفاهية بين الناس .

« ذلك أن المسلم الخلق قوى الإرادة متوحد الذات يسير في طريق واحد ويسعى لتحقيق غاية واحدة .

أما الشخص غير الأخلاقى ، ففتنابه نوازع متباينة ، وتمزق ذاته بين الاتجاهات المختلفة ، ويصبح أخيراً ضحية الصراع النفسى . وشتان بين هذا وذاك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١) (سورة الملك : ٢٢) .

لقد أهملت المجتمعات الحديثة قضية التوجيه الأخلاقى فى التربية فبالغ علم النفس الغربى فى تصوير الانحرافات التى تنشأ عن شدة الضبط ، حتى كاد يوحى بأن الضبط ذاته عملية ضارة لا ينبغى القيام بها ، وأن الأطفال لا ينبغى أن يُوجَّهُوا خوفاً من العقدة النفسية التى يمكن أن تصيبهم ، وإنما

(١) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام : مقداد بالجن ص ٣٢٤ .

يقتصر التوجيه إذا لزم الأمر من بعيد جدًا وعلى حذر .. فخرج على ضوء هذا العلم جيل مائع رخو متحلل هو ما نشاهده الآن^(١) .

ومن الواضح أن انتشار الانحلال الأخلاقي في المجتمع مثل : الكذب والبغض والمحابة والرشوة والأنانية والرديلة .. يجعل الحياة الاجتماعية عادة جحيماً لا يطاق ، إذ نزول منها كل بهجة ، وتضمحل المودة والأمن والاطمئنان ، ويسود بدلها البغض والكراهية وتكثر حوادث السطو والاختطاف والجريمة وهو ما تشير إلى زيادتها الاحصائيات في ديار الغرب .

وفي مثل هذه الأجواء يكره الفرد الناس من حوله ولا يجد لذة في الحياة ، بل يرى أنها تحولت إلى جحيم لا يطاق . وإن مثل هذه البيئة الفاسدة إضافة لما تنشره من آلام وقلق ستجعل التربية الأخلاقية أمراً بالغ الصعوبة ، بسبب كثرة المغريات الفاسدة ، ولا يمكن أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الغاية المرجوة من تربية أخلاقية بناءة^(٢) .

وقد سامت مخططات حكماء صهيون في إشاعة الفوضى والآلام لدى البشرية المنهكة ، ليسهل على اليهود قيادها في نهاية المطاف .

زينوا لها شعارات خادعة « وزينوا للجموع الهائجة التي وُعدت بالحرية ، ودخلت في القيد اليهودي ، أن تطالب بحرية الممارسات الشاذة والإدمان على الخمر ، وشُكلت لهم جمعيات تنظم أمورهم وترعى شؤونهم »^(٣) .

اهتمت مخططات الصهاينة بتدمير الأخلاق لإشاعة الفوضى والذهول في مجتمعات محطمة ، معتمدين على دراسات علمية خبيثة .

(١) دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٣٢٤ .

(٢) التربية الأخلاقية الإسلامية : يالجن ص ٥٠٤ .

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون : ترجمة محمد خليفة التونسي - الطبعة الثانية .

جاء في البروتوكول الثانى : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيثشة ، قد رتبناه من قبل ، وإن الأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأسمى » غير اليهودى ، سيكون واضحاً لنا على التأكيد .

وعلىنا أن ندرس أخلاق الأمة وميولها !! وسيكون نجاح نظريتنا فى موافقتها لأمزجة الأمم التى نتصل بها ^(١) .

وحول تحطيم أخلاق الأمم وتغييرها كلياً تقول البروتوكولات : « عليكم أن توجهوا التفاتاً خاصاً فى استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التى أنتم بها محاطون وفيها تعملون .

ولكنكم إذا تصرفتم بسداد فى استعمال مبادئنا فستكشفون أنه قبل مضى عشر سنوات سيتغير أشد الأخلاق تماسكاً وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التى خضعت لنا من قبل » ^(٢) .

أما الأسرة فقد دمروا روابطها : « فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد فكرة أهميته الذاتية ، فسوف ندمر الحياة الأسرية بين الأُميين ، ونفسد أهميتها ، وسنغرق الرجال ذوى العقول الحصيفة عن الوصول إلى الصدارة » ^(٣) .

كيف يكون الاستقرار وقد تمزقت أواصر الأسرة ، وتحطمت القيم والمثل العليا ، وبرزت المصالح النفعية والأنانية القاتلة ؟! كيف لا يكون القلق النفسى وتآنيب الضمير ووسائل الإعلام تطفح بنشر القيم الهابطة وتشجع الرذيلة والتهتك والجريمة بشكل أو بآخر ؟!

(١) بروتوكولات حكماء صهيون : الثانى ص ١١٣-١١٤ .

(٢) البروتوكول التاسع : ص ١٦٧ .

(٣) البروتوكولات ص ١٣٦ .

يقول سير رتشرد لفنجستون : « إن كل شريط سينمائي وكل دورية وكل صحيفة وكل صفحة إعلانات ، وكل رصيف من أرصفة السكك الحديدية مَعْلَمٌ يخوى درساً فاسداً » .

ويقول : « وفي هذا العجيج الصاخب تختنق الأصوات الخافتة التي تهمس بتحكيم العقل ووزن القيم بميزانها الصحيح ، بل ويصم الإنسان أذنيه عن سماع نداء الذوق الفطن » (١) .

الواقع المرير لعالمنا المعاصر :

إن انتشار أسلحة الخراب والدمار وقيام حربين عالميتين ، وتسابق العالم لدمار حرب ثالثة ، وما يجري الآن من حروب مدمرة هنا وهناك .. لأدلة على زيادة الهلع والخوف ، وسيادة شريعة الغاب ، مع اضطراب القيم والموازين .

لقد انهارت فرنسا في الحرب العامة بعد أن خشيت على مرافق باريس ومواخيرها من قتابل الألمان فسلمت في أسبوعين .

وقرر كندى في تصريحه الخطير ١٩٦٢ م ، أن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه .

وصرح خروشوف ١٩٦٢ م كذلك أن مستقبل روسيا في خطر وأن شبابها لا يؤتمن على مستقبلها لأنه مائع منحل غارق في الشهوات .

وفي دول شمال أوروبا ، أرقى بلاد العالم لديهم !! الشباب فيها تائه يدخن الحشيش والأفيون ، وينفق طاقته الحية في هذا الخبل المجنون ..

(١) التربية لعالم حائر : ص ١٤٠-١٤١ ، نقلاً عن التربية الأخلاقية الإسلامية . مقدار

والعصابات التى تتألف للخطف والاعتصاب الجنسى تقلق أمن الدولة وأمن علماء الاجتماع ، وذلك كله فى مجال واحد هو مجال الجنس^(١) .

هذا هو التيه والضياغ الذى تعانى به بشرية القرن العشرين .. وهذه هى المعيشة الضئيلة لدى المجتمع الغربى المعاصر .

أما المجتمع الشيوعى : فالأمر فيه أذهى وأمر ، نقل إلينا سائح سويسرى ما شهدته فى بلاد العالم الشيوعى من فقر وآلام وفساد يقول : « لقد تحطمت القيم الأخلاقية فى أكثر بلاد العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن الفرق بين حالة البلاد الشيوعية والبلاد الأخرى أن الحكومات الشيوعية هى التى تسعى إلى إفساد الأخلاق ، وتحث عليه ، كما أن أوضاع الناس وفقرهم ، ونظام حياتهم الذى فرضته عليهم الشيوعية . كل ذلك يدعو إلى إفساد الأخلاق وتشجيعه فماذا ينتظر المجتمع من أناس تحشر الأسرة كلها : الأب والأم والفتيات والفتيان ، الكبار والصغار فى غرفة واحدة هى غرفة نومهم وجلسهم ومطبخهم .

وقد أوجد الشيوعيون فى أمهات المدن أماكن خاصة للفساد ، ولست أقصد بيوت الدعارة بل أقصد بذلك تلك الحدائق الواسعة ذات الخمائيل الوارفة التى يتوارى فيها الفجار عن أعين الناس ، أو يرتكبون الفاحشة على أعين الناس بلا حرج ولا مبالاة .. أو هى شوارع تترك بلا نور ليلاً لتسهيل الدعارة »^(٢) .

٢

(١) جاهلية القرن العشرين : (ص ١٦٤-١٦٥) بتصرف يسير .

(٢) عائد من الجحيم : أنطوان دومازة ، ١٩٧٢ م ص ٥٦ وما بعدها .

« هذا التفسخ الفظيع والشقاء المريع الذى تعالى منه أوربا اللادينية بشقيها الرأسمالى والشيوعى هو النتيجة الطبيعية ، والعقوبة العاجلة لكفرها بالله وتنكرها لدينه ، والاحتكام إلى أهواء البشر ، وتخرصات المضللين . وإنه لمن سنن الله فى خلقه أنه إن لم تعد إلى الله ، وتمسك بهداه ، فإن المستقبل سيكون أُمراً وأُنكى »^(١) .

هذا ما توصل إليه العالم المتحضر كما يزعمون ، لينتشر التشاؤم والأسى ، وتكثر حالات الانتحار أو التردد على العيادات النفسية ، ومستشفيات الأمراض العقلية .. وما يرافق ذلك من هَلَع وفزع وتبرّم ، أصبح سمة هذا العصر ، ولا ينجو من هذا الوباء إلا مَنْ أنعم الله عليه بنعمة الإيمان والاطمئنان .

خداع وإيهام : ورغم كل الدلائل على شقاء الناس فى المجتمعات الجاهلية ما يزال بريق هذا العالم الغربى يسيطر على بعض الناس فى بلادنا ، ولعل ما يخدعهم هو وجود بعض الخير هنا وهناك .

ولكن وجود هذا الخير المتناثر لا ينفى عن الجاهلية انحرافها .. وقد كانت الجاهلية العربية حافلة بألوان من الفضائل كالشجاعة والعِفّة وإباء الضيّم ، ولكن هذه الفضائل ذاتها كانت تنحرف عن طريقها القويم لأن القصد منها كان غالباً ليتحدث بها الركبان .

والجاهلية الأوربية حافلة بألوان من الفضائل فى مجال التعامل الفردى كالصدق والإخلاص فى العمل ، أو الأمانة ونظافة التعامل ، ولكن لبعدها عن منهج الله تنحرف عن طريقها القويم فتتحول إلى فضائل نفعية لأنها فى

(١) العلمانية : سفر الحوالى ص ٤٤٩ .

مجموعها نافعة في التعامل ، أما حين تفقد نفعها تصبح في نظره حماقة
« مثالية ، لا تستحق الاتباع »^(١) .

« وهكذا يهبط الناس في أحاسيسهم وأفكارهم ، يهبطون إلى عالم
الصراع البغيض .. إلى نزوات الجسد ، وضرورات الغريزة »^(٢) .

وتأتي الضرورة الحتمية لعودة الناس إلى العقيدة ، ففيها تؤدي الفسحة
الندية في حياة البشرية ، ويشرق الأمل في حياة هائلة يحققون فيه آمالهم ،
بعد إتاحة الفرصة لمشاعر الحب والمودة ، والتزود من تعاليم الشريعة الإلهية
بخير زاد .

(١) انظر جاهلية القرن العشرين : (ص ١٤٩-١٥٠) .

(٢) شبهات حول الإسلام : محمد قطب ص ١٢-١٣ .

٤ - السَّعَارُ الجِنْسِي وَالتَّهْتُّكَ الأخْلَاقِي

حاول الناس أن يُتَفَسَّحُوا عن مآسِيهم النفسية بالهروب إلى الجنس والخمر والموبقات .. ولكن دون جدوى .

لقد تميز هذا القرن بالفوضى الجنسية بشكل لم يُسبق إليه خلال الجاهليات القديمة .

وها هي أجهزة الإعلام تتعاون على تحطيم الحواجز الأخلاقية وعلى إفساد الضوابط الفطرية في النفس الإنسانية ، بل على تزوين الشهوات البهيمية ، وتوهين ضوابط الأسرة ، وضوابط المجتمع ورقابته ، وعلى تمجيد العُزَى العاطفي والجسدي والتعبيري .

وَمِنْ ثَمَّ ساهمت الأفلام الهابطة في تلويث شرقنا المحافظ ، لتتزع من الفتاة المسلمة أخلاقها وحياءها الفطري .

ثم شاركت الأفلام الخليعة والمسلسلات الخبيثة في إشاعة الرذيلة وإثارة مشاعر الجنس^(١) .

ومهما ذكرنا عن رذائل الجاهلية العربية قبل الإسلام فلن تصل إلى هذا المنحدر الهابط والمستنقع الآسن فالخلاعة والمجانة في ذلك العصر لم تكن محل اتفاق عند أولئك الناس ، فقد كانت مستهجنة عند بعضهم على الأقل .

(١) انظر : المحون والاستهتار في حضارة القرن العشرين في « الفصل الثاني » ص ٢١٣ من هذا الكتاب .

فالزنا في الجاهلية كان يُرتكب سرّاً ، إلا أنهم يكرهونه علانية . ومن هنا جاء في الآية الكريمة :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ ﴾ (الأنعام : ١٥١) .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : كانوا يكرهون الزنا علانية ويفعلون ذلك سرّاً ، فهاهم الله عن الزنا علانية وسراً^(١) .

أما الآن فترى الناس في الجاهلية الغربية خاصة قد تجاوزوا كل فضيلة سرّاً وإعلاناً ، بل لم تعد حاجة إلى السر وفاسقهم رسل يقول : « إن الفضيلة التي تستند إلى الجهل لا قيمة لها ، وأن الفتيات هن نفس الحق في المعرفة الجنسية كالفتيان »^(٢) .

« وظل سعار الجنس هذا يزداد حتى وصل انهيار الأخلاق والاستهانة بالعفة إلى حد أن أصبح الأمريكيون يعتقدون أن بقاء البنت عذراء قد يسبب لها الإصابة بمرض السرطان ، لذلك فهم يتخلصون من العذرية بسرعة »^(٣) .

لقد تحررت المرأة وتعرّت في ذات الوقت ، وفقدت في الغرب المتحضر حيائها الجنسي ، وصارت تعمل علانية على إغراء الرجل ودعوته بشتى الوسائل ليقضى معها دافع الجنس ... إلا أن الرجل في أمريكا المتحررة أو أوروبا المتفسخة ، صار هو الذى يتدلل ، والأنثى هي التي تجرى وراءه وترتمى في أحضانه لأنه انصرف عنها حين ابتذلت نفسها له وخلعت حيائها الفطرى ..

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى : ٢٣٣/١٤ ، الطبعة البهية المصرية - القاهرة .

(٢) العلمانية : سفر الحوالى ص ٤٢٢ .

(٣) مجلة الدعوة المصرية العدد : ٢٦ - عام ١٣٩٨ هـ نقلاً عن كتاب العلمانية .

صارت الفتاة فى حلبات الرقص هناك تتودد وتتظرف لتحصل على رقصه مع شاب ، فإذا أخفقت كل محاولات الإثارة والإغراء ، انكفأت تبكى فى مرارة علناً فى المرقص لأنها لم تنل أحد الشبان !^(١)

وبينما كانت تلك المجتمعات تنحدر نحو الغواية والأحوال إذا بمرض الأيدز ، ذلك الشبح المخيف ، يفتك بأصحاب الممارسات الجنسية المنحرفة ، أو الشذوذ الجنسى المقيت .

الشذوذ الجنسى :

ذكرت بعض الإحصائيات أن عشرين مليوناً من المجتمع الأمريكى يمارسون الشذوذ بصفة تنظيمية علنية .

ونشرت بعض الصحف « أن وفداً يبلغ تعداداه عشرين شخصاً يمثلون منظمات اللواطه والسحاق فى الولايات المتحدة قاموا بمقابلة مساعدة الرئيس كارتر للمطالبة بحق حرية العمل فى المؤسسات العسكرية ، وللسماع بمزيد من اللواطه فى مكتب التحقيقات الفدرالى ووكالة الاستخبارات ووزارة الخارجية ، ومنع صفة معفى من الضرائب لمنظمتهم .. »^(٢) .

وأشوأ من هذا أن تطالب البرلمانات دول الشمال « اسكندنافية » باعتبار عقد الرجل على الرجل عقداً قانونياً مشروعاً يقام فى الكنيسة ، بل لقد تم عقد فعلى فى إحدى الكنائس بولاية كاليفورنيا »^(٣) .

(١) دراسات فى النفس الإنسانية : محمد قطب ص ٣٥٠ .

(٢) مجلة المجتمع : العدد (٣٥٠) ، نقلاً عن العلمانية .

(٣) مجلة الدعوة المصرية : العدد (٢٦) سنة ١٣٩٨ هـ نقلاً عن كتاب العلمانية : سفر

دور اليهود :

بعد أن أفسد اليهود أوروبا هاجم الآن يحاولون أن يفسدوا بقية العالم .
نشروا الرذيلة وسلكوا في سبيل نشرها كل مسلك . تقول
بروتوكولات حكماء صهيون : « يجب أن نعمل لتتأثر الأخلاق في كل
مكان .. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس
كي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس .. » .

« وماركس منا ويقول : إن العفة الجنسية من فضائل المجتمع
الإقطاعي البائد .

ومن هنا فقد تحول وجه الأرض إلى ماخور يفر فاه لكل فتى
وفتاة »^(١) .

لقد سبق اليهود الشيطان في نشر الفاحشة : « وإن زنا اليهودية مع
أُمِّي مباح ، وكذلك زنا اليهودي بالأُمِّية ، أما زنا اليهودي باليهودية حرام .
كما يقول فيلسوفهم وربانهم الكبير موسى بن ميمون لأن الأُمِّية
كالبيمة »^(٢) .

حتى أن كتبهم الدينية المحرفة تمتلئ بالافتراءات القبيحة : « كيف
أصفح لك .. بنوك تركوني .. ولما أشبعتم صهلوا كل واحد على امرأة
صاحبه » سفر أرميا : ٥-٧ .

ويعتبر اليهود أن المرأة من الأسلحة الفتاكة لتطبيق سياستهم
الصهيونية : « ففي دوائر وزارة الخارجية الأمريكية مُلف سري يحتوي على

(١) جاهلية القرن العشرين : (١٥٦-١٥٧) .

(٢) محمد خليفة التونسي : مقدمة الطبعة الأولى من البروتوكولات .

أسماء وعناوين أكثر من عشرين فتاة رائعة الجمال جرى اختيارهن بدقة وعناية للقيام بالترفيه عن كبار الزائرين السياسيين كل حسب حاجته وذوقه ، وشذوذه الجنسي ، ويطلق عليهم في دوائر الخارجية : « فريق الحب » .

وفي روسيا نجد أن اليهود منذ أيام القيصر هم أصحاب الخانات وأماكن الدعارة والانحلال .

وفي فلسطين المحتلة أسسوا ناديًا للشواذ سمي نادى « الجميلون والجميلات »^(١) .

هكذا يجب أن يفهم ذلك الترابط العميق بين النظريات اليهودية المنحرفة والأهداف الصهيونية التى تعمل على كل الجبهات ، ليسهل على اليهود استلام هذه القطعان البشرية بعد أن تنهار أخلاقها وتستسلم لشهواتها^(٢) .

لقد دمرت أخلاق أوروبا وها هو العالم يسير نحو الهاوية كذلك .. ويحاول بعض العقلاء عبثًا أن يعيدوا الأمور إلى نصابها بعد أن عظم الخُطْب .

وشعرث بعض النسوة فى ديار الغرب بأنّ ما وصلن إليه من ابتذال ما هو إلا إهانة وتخلّف لبنات جنسهنّ .

(١) انظر : أثر الانحراف العقدي والفكرى عند اليهود على الفكر الصهيونى المعاصر ، فصل : أثر الفكر الصهيونى فى الانحلال الخلقي - رسالة ماجستير للأستاذ عطاالله بخيت المعاينة ص ٤٣٤-٤٥٧

(٢) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ١٥٠ عبدالله النمل ه المكتب الإسلامى بيروت ط ٣ سنة ١٣٩٩ هـ .

تقول الكاتبة الإنجليزية « أنى رود » :

« أيا ليت بلادنا كبلاد المسلمين حيث أن الحشمة والعفاف، والطهارة رداء الخادمة والرقيق اللذين ينعمان بأرغد عيش ، ويعاملان معاملة أولاد البيت ولا يمسّ عرضُهما بسوء .

نعم إنه عار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للردائل بكثرة مخالطتهن للرجال .. »^(١)

وسعار الجنس هذا كان مقترناً لدى القوم بشئى أنواع الموبقات وما يزال .

فالمسكرات : لم تنتشر في عصر من عصور التاريخ كما انتشرت في هذا العصر ، ولم تصب المجتمعات بحُمى السكر علناً كما أصيبت به في هذه الجاهلية .

لقد تفنّن الناس في أشكال الخمر والمشروبات وسائر المسكرات .. فعرفوا الأفيون والهروين ، والحشيش والقات وسائر أنواع المخدرات .

وكانت الحبوب المصنعة منها ، ومن يطلع على ما تنشره الصحف والمجلات عن كثرة ضحايا الخمر وحبوب المخدرات سهوله الأمر ولا شك^(٢) .

ثم تفنّن الناس في إقامة المسارح المختلطة والليالي الحمراء في الشرق والغرب .. وهاجمت الأغنية الخليعة المتكسرة والرقصات الساقطة البيوت والأسواق وكل مكان ، عن طريق وسائل الإعلام وأشرطة الفيديو .

(١) الإسلام روح المدنية : مصطفى الغلايينى ص ٢١١ « المكتبة الأهلية » .

(٢) انظر : الخمر والمسكرات في حضارة القرن العشرين « الفصل الثانى » ص ٢٣٧ .

ومع الأسف يسمى الساقطون والساقطات : « نجوم السينما » . أو « نجوم الفن »^(١) في لغة الحضارة الحديثة . « وإن أكبر عملية تمويه قامت بها الحضارة الغربية هي محاولة تصوير الإضحاك والرقص وفنون العُرى والكشف والإباحية المتمثلة في المسرح والسينما على أنها فن رفيع وصار للفن أصوله العلمية وضوابطه الدقيقة ، فيخرج المثلثون من جامعة متخصصة ويتقدم البعض فيها بأطروحات دكتوراة .. كأنما هذا الفساد والتهريج يرتفع ويرتفع حتى يصبح فناً عالمياً على أيدي دعائه من الماسونيين والصهاينة والإباحيين فيما وراء البحر الذين يتلقفون أبناءنا ويصهرونهم في هذه البوتقة »^(٢) .

والآن وبعد هذه الجولة في شعاب الجاهلية التائهة وسماها المنحرفة .. بعد القلق والمعاناة بعد الحرمان من الأمن والاستقرار .. نجد أن الشقاء النفسى والفكرى والاجتماعى ، والانحلال والتهتك لم يسبق للبشرية له مثيل . ومن هنا لا بد لهذه البشرية أن تعود إلى فطرتها السوية .. لا بد أن تعود إلى الله طائعة مستسلمة مُحَكَّمَةً شَرَعَهُ الخفيف .. وليس لها من طريق إلا ذلك الطريق .

ولا بد لدعاة هذا الدين أن يتنبهوا لهذه المخاطر وأن يشدوا العزم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فهم أمل المسلمين المنتظر ، بل أمل عالم حائر ممزق .

(١) انظر : الغناء والمعازف و العصر الحاضر « الفصل الثانى » . ص ٢٦٢

(٢) إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام : أنور الجندى (ص ٦٣-٦٤) .

الخاتمة

الحمد لله الذى بفضلہ تتم الصالحات ...
وحمداً لك اللهم على نعمة الإسلام الذى خلّص البشرية من أدرانها
وما يزال .

فبعد أن كان الناس فى الجاهلية منازل وطبقات ، يأكل القوى فيها
الضعيف ، إذا براية العدل والمساواة ترفرف على بنى البشر ، ليعيشوا إخوة
متكافئين بالإسلام فلا ظلم ولا اضطهاد ، ولا جيروت ولا تفاوت فى
الدرجات . فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا تفاضل إلا بالتقوى
والأعمال الصالحة .

وكان للعرب فضائل شتى ، ومكارم أخلاق .. من كرم وشجاعة أو
نخوة وحسن جوار ، إلى غيرة وإباء ضئيم يتصف بها ويطبقها أفراد خيار من
أهل الجاهلية .. لكن ذلك كله ذهب بَدْداً ، بسبب جوانب السوء التى
أبرزها القرآن ، وهى شرك العبادة وشرك الاتباع
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (سورة الكهف الآية : ١٠٥)

فاستحقوا وصف الجاهلية بجداره رغم وجود بعض الفضائل .

وجاء الإسلام ، فارتفع بمكارم الأخلاق تلك بعد أن جعلها خالصة
لله وحده ، وخلصها من كل ما يشوبها من حسن السمعة والرياء ، فحقق

المسلمون في عالم الواقع من فضائل الأخلاق ، وآداب السلوك مالم تستطع البشرية أن تحققه ولا قريباً منه حتى الآن .

كانت مكارم الأخلاق تختلط بمساوئها في الجاهلية فاجتث الإسلام تلك المساوئ ، وطهر المجتمعات الإسلامية من تلك الرذائل .

إلا أن هذه القمم الشاخمة من تلك الفضائل والمكارم أخذت تنهاى بفعل التخلف العقدي والانحراف الفكري ومن ثم أمام الغزو الجاهلي الغري .

فاهتزت عندها القيم واختلت الموازين في كثير من قطاعات مجتمعاتنا المعاصرة .

بل وكادت أن تكتسب الرذيلة والانحراف شرعية قانونية بتأثير شراسة الجاهلية الوافدة ، وهو ما يُشاهد حتى الآن ، من انتشار للفجور ، وشرب للخمور ، أو اختلاط شائن وليالي حمراء ، بلا مواربة ولا حياء . في كثير من بلاد المسلمين .

وتبقى الرذائل هي الرذائل ، واقتراف الآثام هي هي ، في غيبة من تحكيم شرع الله ، سواء في الجاهلية العربية قديماً وحديثاً ، أو الجاهلية الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي .

ويبقى ارتباط الأخلاق بالإيمان هو الضابط الدقيق لأخلاق المسلمين .. وتبقى التربية الإيمانية هي منبع الفضائل ومصدر السلوك المستقيم ، الذي ينفر من الشرور والآثام .

وكل انحراف في التطبيق لا يدل إلا على غُش في التصور وكرازة في الطبع ، لا تنسجم مع حقائق هذا الدين .

كما أن فهم العبادة ، وتطبيق مدلولاتها الشرعية سيجلو صدى النفوس
ويهدبها باستمرار ، ويعيدها إلى جادة الحق والصواب .

فما أجدد أن يهتم دعاة هذا الدين بهذه المعاني ، وأن يولوها مزيداً
من الرعاية والتوجيه .

وما أشد حاجة البشرية الشاردة عن أمر ربها التائهة في دياجير
الظلمات إلى إعادة التصورات السليمة ، والمنبثقة من رسالة السماء .

ما أحوجها إلى الإيمان الصافي والإسلام الحنيف الذى يهيم على
شؤون حياتها كلها .. إلى الأخلاق النظيفة المرتبطة بهذا الدين .

ما أشد حاجتنا إلى دعاة صادقين مخلصين واعين ، ليعيدوا إلى
أنفسهم ومن حولهم صفاء هذا المنهج تمثلاً وتطبيقاً ، ومنارتهم السامقة
جيل القدوة من الرعيل الأول من سلف هذه الأمة .

ولينقذوا هذه الجموع التائهة مما وقعت فيه من انحراف وغش أو
ضلال .

وإنها لمهمة صعبة ، وجهاد شاق مضى وطويل ولكنها سلعة الله
الغالية ، وبشر الصابرين المجاهدين وكل من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى .

والحمد لله رب العالمين

محمد الناصر

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ١ - الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام .. د. مقداد يالجن ط ١٣٩٢/١ هـ - مكتبة الخانجي بمصر .
- ٢ - أثر الانحراف العقدى عند اليهود على الفكر الصهيونى المعاصر - رسالة ماجستير .. عطا الله بخيت المعاينة / جامعة أم القرى .
- ٣ - أخطاء المنهج العربى الوافد .. أنور الجندى - دار الكتاب للكتابى ط ١ - بيروت .
- ٤ - أدب الحنيفية .. حبيب بن حنش الزهرافى - رسالة ماجستير - جامعة أم القرى .
- ٥ - الاستيعاب .. ابن عبد البر - ط القاهرة .. مكتبة النهضة - تحقيق محمد البجاوى .
- ٦ - أسد الغابة .. ابن الأثير - ط القاهرة - ١٢٨٠ هـ .
- ٧ - الإسلام بين العلماء والحكام .. عبدالعزيز البدرى - منشورات المكتبة العلمية - المدينة المنورة - ١٩٨٠ م .
- ٨ - الإسلام روح المدنية .. مصطفى الغلاينى - المكتبة الأهلية .
- ٩ - الإسلام والحضارة العربية .. محمد كرد على - ط ٣ - ١٩٦٨ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
- ١٠ - الأشربة .. ابن قتيبة .
- ١١ - الإصابة فى تمييز الصحابة .. ابن حجر العسقلانى - دار الكتاب العربى - بيروت .

- ١٢ - الأصمعيات .. أبو سعيد عبد الملك الأصمعي - تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - ط ٥ - دار المعارف .
- ١٣ - إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام .. أنور الجندي - الاعتصام - القاهرة - ١٩٨٥ م .
- ١٤ - الإعلام بأن العزف والغناء حرام .. أبو بكر الجزائري - مكتبة الضياء - جدة .
- ١٥ - إغاثة اللفهان .. ابن قيم الجوزية - دار المعارف للطباعة والنشر - بيروت .
- ١٦ - الأغاني .. أبو الفرج الأصفهاني - طبعة بولاق أو طبعة دار الكتب « حسب ما يشار في الهامش » .
- ١٧ - أمالي القالي - ط دار الكتب المصرية - ١٩٢٦ م .
- ١٨ - أمثال الميداني - المطبعة البهية .. مصر .
- ١٩ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ابن تيمية - دار المجتمع - جدة .
- ٢٠ - البداية والنهاية .. ابن كثير - ط دار الفكر .. بيروت - ١٩٧٨ م .
- ٢١ - بروتوكولات حكماء صهيون .. ترجمة محمد خليفة التونسي - ط ٢ .
- ٢٢ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .. محمود شكري الألوسي - ط ٢ / عمان .. سنة ١٤٠٤ هـ .
- ٢٣ - البيان - مجلة تصدر عن المنتدى الإسلامي في لندن .
- ٢٤ - التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول .. الشيخ منصور على ناصف - مطبعة الباني الحلبي .

- ٢٥- تاريخ الأمم والملوك .. الطبرى - روائع التراث العربى - دار سويدان - بيروت ١٩٦٧ - والطبعة التجارية بالقاهرة ١٩٤٩ .
- ٢٦- تاريخ العرب قبل الإسلام .. د. جواد على - دار العلم للملايين - بيروت - ومكتبة النهضة - بغداد - ط ٢ - ١٩٧٦ م .
- ٢٧- التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى .. د. صبرى جريس - عالم الكتب - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٢ م .
- ٢٨- تربية الأولاد فى الإسلام - عبدالله علوان - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - حلب .
- ٢٩- التربية الأخلاقية الإسلامية .. د. مقداد يالجن - مكتبة الخانجي بمصر - ط ١ - ١٣٩٧ م .
- ٣٠- الترعيب والترهيب .. الحافظ المنذرى - تعليق محمد عمارة - مطابع قطر الوطنية .
- ٣١- تفسير ابن جرير الطبرى - ط ٢ - مطبعة الحلبي .
- ٣٢- تفسير سورة النور .. المودودى - دار الاعتصام - ١٤٠٢ هـ .
- ٣٣- تفسير القرآن العظيم .. ابن كثير - دار الجيل - بيروت - ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٣٤- التفسير الكبير - الفخر الرازى - الطبعة البهية المصرية - القاهرة .
- ٣٥- تنزيه الشريعة عن إباحة الأغاني الخليعة .. أحمد بن يحيى النجمى - طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء - الرياض - ١٤٠٥ هـ .
- ٣٦- تهذيب اللغة .. الأزهرى - تحقيق عبدالسلام هارون - ١٩٦٤ م .
- ٣٧- جاهلية القرن العشرين .. محمد قطب - دار الشروق - ١٤٠٢ هـ .
- ٣٨- جَمْرَةُ خطب العرب .. أحمد زكى صفوت - ط الحلبي - مصر - ١٩٦٢ م .

- ٣٩- حصوننا مهددة من داخلها - محمد محمد حسين - المكتب الإسلامي - ط ٥ - ١٣٩٨ هـ.
- ٤٠- حضارة العرب ..جوستاف لوبون - ترجمة عادل زعير - ط ٢
- ٤١- الحماسة - لأى تمام - تحقيق د. عبدالله عسيلان - ١٩٨١ م .
- ٤٢- حماية الدين والوطن عن غزو أفلام الخلاعة والفتن - الشيخ عبدالله ابن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بقطر - ١٤١٠ هـ.
- ٤٣- حياة الصحابة .. محمد يوسف الكاندهلوى - دار القلم - ط ٣ - ١٤٠٥ هـ.
- ٤٤- الحياة العربية من الشعر الجاهلى .. د. أحمد محمد الحوفى - دار النهضة مصر - ط ٥ - ١٣٩٢ هـ.
- ٤٥- الحيوان .. الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون - ط الحلبي - ١٩٤٥ م .
- ٤٦- الخراج .. أبو يوسف - ط دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- ٤٧- خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية .. عبدالله التل - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٣ - ١٣٩٩ هـ.
- ٤٨- خُلُقُ المسلم .. محمد الغزالي - الاتحاد الإسلامي العالمى للمنظمات الطلابية - ١٤٠٠ هـ.
- ٤٩- الخمر وسائر المسكرات والمخدرات .. أحمد بن حجر آل بوطامى - قاضى المحكمة الشرعية بقطر - المكتب الإسلامي - ١٤٠٢ هـ.
- ٥٠- دراسات فى النفس الإنسانية .. محمد قطب- دار الشروق - ١٤٠٧ هـ .
- ٥١- دستور الأخلاق فى القرآن .. د. محمد عبدالله دراز - مؤسسة الرسالة - دار البحوث العلمية - ط ٣ - ١٤٠٠ هـ.

- ٥٢ - ديوان الأعشى - دار بيروت - ط عام ١٩٨٣ م .
- ٥٣ - ديوان حاتم الطائي - ط بيروت - دار صادر - ١٩٦٣ م .
- ٥٤ - ديوان الحادرة - تحقيق د. ناصر الدين الأسد - دار صادر - بيروت - ١٩٧٣ م .
- ٥٥ - ديوان حسان بن ثابت - دار بيروت - ١٩٨٣ م .
- ٥٦ - ديوان الحطيئة - ط الحلبي - مصر - تحقيق نعمان طه - ١٩٥٨ م .
- ٥٧ - ديوان الحماسة للمرزوقي - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٧ م .
- ٥٨ - ديوان الخنساء - دار الأندلس - ١٩٨١ م .
- ٥٩ - ديوان زهير بن أبي سلمى - دار الكتب المصرية - ١٩٤٤ م .
- ٦٠ - ديوان سحيم - تحقيق عبدالعزيز المحييد - دار الكتب المصرية - ١٩٥٠ م .
- ٦١ - ديوان السموأل - دار صادر - بيروت .
- ٦٢ - ديوان طرفة بن العبد - طبعة دمشق .
- ٦٣ - ديوان عامر بن الطفيل - دار صادر - بيروت - ١٩٥٩ م .
- ٦٤ - ديوان عبيد بن الأبرص - شرح وتحقيق د. حسين نصار - ١٩٥٧ م .
- ٦٥ - ديوان عروة بن الورد - دار صادر - بيروت .
- ٦٦ - ديوان عنترة - تحقيق وشرح عبد المنعم شلبي - المكتبة التجارية - القاهرة .
- ٦٧ - ديوان النابغة - تحقيق شكري فيصل - دار الفكر - بيروت - ١٩٦٨ م .

- ٦٨ - الرحيق المختوم .. صفى الرحمن المباركفورى - ١٤٠٠ هـ - مكة المكرمة .
- ٦٩ - رسائل الشيخ محمد الحامد - ط دولة قطر - ١٤٠٣ هـ .
- ٧٠ - رسالة الحنين إلى الأوطان .. من مجموعة رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون .
- ٧١ - رسالة في أحكام الغناء .. ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد حامد الفقى - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٣ هـ .
- ٧٢ - رسالة في الرياء ذمه وأثره السئ .. سليم الهلالى - مكتبة ابن الجوزى - ١٤٠٨ هـ .
- ٧٣ - رياض الصالحين .. الإمام النووى - مراجعة شعيب الأرناؤوط - دار المأمون للتراث - ١٤٠٢ هـ .
- ٧٤ - زاد المعاد .. ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد الفقى - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٣ م .
- ٧٥ - الزواجر عن اقتراف الكبائر .. أحمد بن محمد الهيتمى - ط محمد الحلبي وشركاه - مصر - ط ٢ - ١٣٩٠ هـ .
- ٧٦ - سنن الحافظ ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى - المكتبة العلمية - بيروت .
- ٧٧ - السياسة الشرعية .. ابن تيمية - دار الكتاب العربى - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٧٨ - السيرة النبوية .. ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى - عبد الحفيظ شلبى - ط ٢ - ١٩٥٥ م .
- ٧٩ - شبهات حول الإسلام ... محمد قطب - دار الشروق .
- ٨٠ - الشبهات والأخطاء الشائعة فى الفكر الإسلامى .. أنور الجندى - دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٨١ م .

- ٨١- شخصية المسلم .. د. محمد علي الهاشمي - الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ١٩٨٣ .
- ٨٢- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون - لجنة الترجمة والتأليف والنشر - ط ١ - ١٩٥١ م .
- ٨٣- شرح السنة .. الإمام البغوي - تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش - المكتب الإسلامي .
- ٨٤- شرح القصائد العشر للتبريزي .. عبد السلام الحوفي - دار الباز للنشر - مكة - ط ١ - ١٤٠٥ هـ .
- ٨٥- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي .. د. يوسف خلف الله - دار المعارف - مصر - ١٩٥٩ م .
- ٨٦- شعراء النصرانية .. لويس شيخو - دار الشرق - بيروت - ط ٢ .
- ٨٧- الشعر الجاهلي .. د. يحيى الجبوري - مؤسسة الرسالة - ط ٤ - ١٤٠٣ هـ .
- ٨٨- الشعر والشعراء .. ابن قتيبة - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - دار المعارف - ط ٣ - ١٩٥٨ م .
- ٨٩- الصحاح .. إسماعيل الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - ط ٢ - ١٩٧٩ م .
- ٩٠- صحيح الإمام مسلم بشرح النووي - دار الفكر - ١٤٠٣ هـ .
- ٩١- صحيح البخاري .. الإمام البخاري - ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - المطبعة السلفية - مصر .
- ٩٢- صحيح الجامع الصغير .. محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - ط ٢ - ١٤٠٦ هـ .
- صحيح سنن النسائي/ صحيح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني/ مكتب

- التربية العرفى لدول الخليج/الرياض ١٤٠٩ هـ .
- ٩٤ - المستدرك .. الحاكم النيسابورى - مطابع النصر الحديثة - الرياض .
- ٩٥ - طبقات فحول الشعراء .. محمد بن سلام الجمحى - تحقيق محمود محمد شاكر - طبعة المدنى - القاهرة .
- ٩٦ - طريق الدعوة فى ظلال القرآن .. جمع وإعداد أحمد فائز - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٥ هـ .
- ٩٧ - عائد من الجحيم .. انطوان دومازة - ١٩٧٢ م .
- ٩٨ - العصر الجاهلى .. د. شوق ضيف - دار المعارف - مصر - ط ٧ - ١٩٦٠ م .
- ٩٩ - العلمانية .. د. سفر الحوالى - جامعة أم القرى - مكة - ١٤٠٢ هـ .
- ١٠٠ - العقد الفريد .. ابن عبدربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .
- ١٠١ - عون البارى .. الإمام أبو الطيب القنوجى البخارى - مطابع قطر الوطنية - ١٤٠٢ هـ .
- ١٠٢ - فتاوى شيخ الإسلام ابن نيمية .. جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن القاسم - مكتبة المعارف - الرباط .
- ١٠٣ - فتاوى فى الغناء .. أحمد بن الحسن الحنبلى - تحقيق حمد بن عبدالعزيز الضويان - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩ هـ .
- ١٠٤ - فتح البارى .. ابن حجر العسقلانى - ط البانى الحلبى - القاهرة - ١٩٥٩ هـ .
- ١٠٥ - الفوائد .. ابن قيم الجوزية - المطبعة القيمة - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ١٠٦ - فى ظلال القرآن .. سيد قطب - دار الشروق - ١٩٨٢ م .
- ١٠٧ - القاموس المحيط .. الفيروزآبادى .

- ١٠٨ - كَفُّ الرُّعَاعِ عَنْ مُحَرَّمَاتِ اللّٰهُو وَالسَّمَاعِ .. أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ
الْهَيْثَمِيُّ - تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ عَطَا - دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ -
بِירוْت - ١٤٠٦ هـ .
- ١٠٩ - الْكُتْرُ الْمَرْصُودُ فِي قَوَاعِدِ التَّلْمُودِ .. د. وَهْلَنُجْ وَزْمِيلُهُ - تَرْجُمَةُ
يُوسُفَ حَنَا نَصْرَ اللّٰهِ - بِירוْت .
- ١١٠ - لِسَانُ الْعَرَبِ .. ابْنُ مَنْظُورٍ .
- ١١١ - الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ .. مُحَمَّدُ أَمِينُ الْمَصْرِيِّ - دَارُ الْأَرْقَمِ -
الْكُوَيْتِ .
- ١١٢ - مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ .. الْمِيدَانِيُّ - الْمَطْبَعَةُ الْبَهِيَّةُ - الْقَاهِرَةُ - ١٣٤٢ هـ -
دَارُ مَكْتَبَةِ الْحَيَاةِ - بِירוْت - ١٩٦١ م .
- ١١٣ - الْمَجْبَرُ .. مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ - دَارُ الْأَمَانِ الْجَدِيدَةِ - بِירוْت .
- ١١٤ - مَخْتَصَرُ مَنْهَاجِ السَّنَةِ .. الذَّهَبِيُّ - تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ الدِّينِ الْخَطِيبِ - دَارُ
الْبَيَانِ .
- ١١٥ - مَذَاهِبُ فِكْرِيَّةٍ مُعَاَصِرَةٍ .. مُحَمَّدُ قُطْبٌ - دَارُ الشُّرُوقِ - ط ١ -
١٤٠٣ هـ .
- ١١٦ - مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - دَارُ الْبَازِ لِلنَّشْرِ - مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ - ط ٢ .
- ١١٧ - مِشْكَاةُ الْمَصَابِيحِ .. الْخَطِيبُ التَّبْرِيزِيُّ - تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ نَاصِرِ الدِّينِ
الْأَلْبَانِيِّ - الْمَكْتَبُ الْإِسْلَامِيُّ - ١٣٩٩ هـ .
- ١١٨ - مُعَالَمُ فِي الطَّرِيقِ .. سَيِّدُ قُطْبٌ - دَارُ الشُّرُوقِ - ١٩٨٠ م .
- ١١٩ - الْمُعْتَقَدَاتُ وَالْقِيمُ فِي الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ .. مُحَمَّدُ مُحَمَّدُ صِيَامٌ - رِسَالَةٌ
دَكْتُورَاهُ بِجَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى - ١٤٠٢ هـ .
- ١٢٠ - مُعْجَمُ الشُّعْرَاءِ .. الْمَرْزَبَانِيُّ - دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ -
١٩٦٠ م .

- ١٢١- المفضليات .. المفضل بن محمد الضبي - تحقيق أحمد شاكر
وعبد السلام هارون - دار المعارف - ط ٦ .
- ١٢٢- مقدمة ابن خلدون .. الطبعة الأزهرية - مصر .
- ١٢٣- مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى .. د. عبد الباسط بدر - دار
المثارة للنشر - جدة - ١٤٠٥ هـ .
- ١٢٤- ملاح عن دور الإسلام في بناء العمارة العربية .. د. محمد رشاد
خليل - ط ١ - ١٩٨٢ م .
- ١٢٥- موسوعة أخلاق القرآن .. د. أحمد الشرباصي - دار الرائد العربى
- بيروت - ١٤٠١ هـ .
- ١٢٦- الموطأ .. الإمام مالك بن أنس - تخرج محمد فؤاد عبد الباقي -
دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البانى الحلبي .
- ١٢٧- نظام النفقات في الشريعة الإسلامية .. أحمد إبراهيم إبراهيم -
المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٩ هـ .
- ١٢٨- نوادر الأصول للترمذى - المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
- ١٢٩- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية .. د. محمد محمد حسين - دار
النهضة - بيروت - ط ٣ - ١٣٨٩ هـ .
- ١٣٠- هذا الدين .. سيد قطب - دار الشروق .
- ١٣١- واقعنا المعاصر .. محمد قطب - مؤسسة المدينة للصحافة - ط ١
- ١٤٠٧ هـ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣

الفصل الأول :

● المبحث الأول : محبة عن المجتمع العربي في

١	نفسر الجاهلي
٢	١ - انتظام القبلي
٢٥	٢ - الناس في المجتمع الجاهلي منازل ودرجات
٢٨	٣ - معاش العرب ونظرتهم إلى المهن

● المبحث الثاني : راية العدل والمساواة

٣٥	تروفي على الناس في ضلال الدعوة الإسلامية
----	--

الفصل الثاني :

● المبحث الأول : مفهوم الأخلاق وطبيعة النفس

٤٧	البشرية
----	---------

● المبحث الثاني : صور من مكارم الأخلاق في

٦٣	الجاهلية والإسلام
٦٧	١ - الكرم خلق عربي أصيل
٨٤	- الإسلام والكرم
١٠٠	٢ - الشجاعة عند العرب
٢٠٩	- الإسلام والشجاعة
١٢١	٣ - الغيرة والعفة
١٢٧	- الغيرة والعفة في نظر الإسلام
١٣٦	٤ - الوفاء عند العرب
١٤١	- الوفاء في الإسلام

١٤٩	٥ - الحرية وإبهاء الضيم
	- استعلاء الإيمان ومحاربة الظلم
١٥٦	في الإسلام
١٦٣	٦ - حسن الجوار خلق عربي أصيل
١٦٥	- حقوق الجار في الإسلام
١٧٥	٧ - الحلم عند العرب
١٨١	- الحلم والأناة من أخلاق المؤمنين
١٨٩	٨ - صفات حميدة أخرى
	● المبحث الثالث : صور من الأخلاق الذميمة
١٩٥	وإعادات القبيحة
١٩٨	١ - المجون في الشعر الجاهلي
٢٠٧	- الطهر والعفاف في ظلال الإسلام
	- المجون والاستهتار في حضارة القرن
٢١٣	العشرين
	٢ - الخمر ومجالس الشراب عند أهل
٢١٨	الجاهلية
٢٢٩	- الإسلام يحرم الخمر والمسكرات
	- الخمر والمسكرات في حضارة القرن
٢٣٧	العشرين
٢٤١	٣ - القبان والغناء في الجاهلية
٢٤٥	- الغناء والمعارف في نظر الإسلام
٢٥٣	- أقول الأئمة والعلماء في الغناء والمزامير
٢٦٢	- الغناء والمعارف في العصر الحاضر
٢٦٦	٤ - الميسر
٢٧١	- تحريم الإسلام للميسر
٢٧٣	- أنواع من القمار قديما وحديثا
٢٧٩	٥ - أخلاق ذميمة أخرى يصورها الشعر الجاهلي

الفصل الثالث :

● أبرز السمات الأخلاقية في المجتمعات

الإسلامية واحاهلية

٢٨٣

● المبحث الأول :

١ - أثر العقيدة في توجيه السلوك

و الأخلاق

٢٨٥

٢ - الارتباط الوثيق بين العبادة والأخلاق

٢٩٥

٣ - من سمات المجتمع المسلم أن أخلاقه واقعية

٣٠١

(أ) الإخلاص والتجرد لله تعالى

٣٠٦

(ب) الحب والتآخي

٣٠٩

(ج) التناصح « الأمر بالمعروف والنهي

٣١٢

عن المنكر »

(د) لواء النفس ومقاومة الأهواء

٣١٧

● المبحث الثاني :

١ - فساد في التصور وانهار في الأخلاق

٣٢٣

٢ - سيادة الأخلاق النفعية

٣٣٣

٣ - القلق والحيرة والاضطراب

٣٣٩

٤ - السُّعَارُ الجنسي والتهتك الأخلاقي

٣٤٦

- الشذوذ الجنسي

٣٤٨

- دور اليهود

٣٤٩

الخاتمة

٣٥٣

أهم المصادر والمراجع

٣٥٦

فهرس الموضوعات

٣٦٦

